دعوة الحق

معركة وادي المخازن
بعيدا عن التعبير الملحمي للتاريخ

عدد خاص

بمناسبة الذكرى الأربعمائة
لمعركة وادي المخازن

السنة 19
العدد 8

شهرية
تعنى بالدراسات
الإسلامية وبشؤون
الثقافة والفكر

دعوة الحق

السنة التاسعة عشرة العدد الثامن
رمضان 1398 * غشت 1978

تصدرها
وزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية
(مديرية الشؤون الإسلامية)
بالمملكة المغربية
الرباط

بيانات إدارية

• تبعث المقالات الى العنوان التالي :
مجلة « دعوة الحق » - مديرية الشؤون الإسلامية
ص ب : 375 - الرباط - المغرب
الهاتف : 10 - 632

• الإشتراك العادي عن سنة : 30 درهما . والشرفي 100 درهم فأكثر .

• السنة عشرة أعداد . لا يقبل الإشتراك الا عن سنة كاملة .

• تدفع قيمة الإشتراك في حساب :
مجلة « دعوة الحق » رقم الحساب البريدي 485.55 الرباط .

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

أو تبعث رأسا في حوالة بالعنوان أعلاه .

• ترسل المجلة مجاناً للمكتبات العامة . والنوادي والهيئات الوطنية والثقافية والاجتماعية بناء على طلب خاص

• لاتلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر •

فهرس

صفحة

وَلا يمكنك أن تبقى تعيش في جو
الأمل ولو ضاقت بك رحاب الدنيا
موقنا إلا إذا كنت عالما حقّ العلم
بتاريخنا وبأصالتنا وبوقائع أجدادنا
فاقرأ - شعبي العزيز - تاريخ بلادنا
وتعمّق فيه، وسوف تصبح إذاك فخورا
بمغربيتك، مستعدا لكل التضحيات
قابلا لكل المسؤوليات

جلالة الملك
الحسن الثاني

صدى المعركة

في المشرق

(ومما شاهدته من سيرة أهل المشرق بأهل قطرنا حينئذ لما انتهى اليهم من غزوته العظيمة ما يكل عن وصفه اللسان وعن تخطيطه البنان ، وترى الواحد منا بينهم كأنه أعجوبة عظيمة يشار اليه قائلين : هذا من اهل الغزوة المشهورة ... وصارت العرب من كل مملكة يفخرون بذلك على الترك) .

مخطوط (المنتقى المقصور) لاحمد ابن القاضي ـ دار الوثائق التابعة للخزانة العامة بالرباط

ج 1059 . ص 102

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية :

معركة وادي المخازن
بعيدا عن التفسير المادي للتاريخ

●● لم تكن موقعة وادي المخازن معركة حربية من نوع المعارك الحربية التي شهدتها العصور الوسطى . ولم تكن امتدادا فقط للحروب الصليبية فى المشرق العربي الاسلامي ، ولكنها كانت تجسيدا ضخما لهذه الحروب جميعها اتخذ شكلا فريدا لم يشهد الشرق له مثيلا . فلاول مرة فى تاريخ الصراع بين العرب والمسلمين وبين اوروبا (او بين دار الاسلام وبين دار الكفر) تحتشد جيوش مسيحية بهذه الكثافة والاعداد والتخطيط والاستراتيجية للهجوم على دولة اسلامية واحدة ، هي ان كانت ـ جغرافيا ـ بعيدة عن مركز الثقل فى الوطن الاسلامي الكبير ، فانها ـ دينيا وتاريخيا وحضاريا ـ اقرب اليه من حبل الوريد .

ومن حيثما نظرنا الى موقعة وادي المخازن العظيمة نجد فروقا جوهرية اساسية بينها وبين جميع المعارك والغزوات والحروب التي عرفها المسلمون فى المشرق العربي الاسلامي ، سواء من حيث الهدف الاستراتيجي او الوسائل المستخدمة . فاذا تجاوزنا عن روح الحقد والانتقام والثار التي عملت عملها فى نفوس المعتدين ، فان الهدف هذه المرة اضخم من كل الاهداف التي عرفتها الحروب السابقة فى المشرق ، والمغرب على سواء ..

ان توقيت المعركة جاء فى زمن ما سمي ـ تضليلا وتمويها ـ بالاكتشافات الجغرافية التي كانت مقدمة للاستعمار الغربي الاستيطاني لافريقيا وآسيا . وكانت اسبانيا والبرتغال على رأس الدول الاوربية المتزعمة لهذه الحركة التبشيرية الجديدة . ولم يكن هنالك فى المنطقة من يعرف المغرب حق المعرفة غير الاسبان والبرتغاليين ، بحكم الجوار والتفاعل والتجربة والممارسة والاشتباك ، الى جانب عشرات الخلفيات التاريخية التي كانت تحكم العلاقة بين الدول الثلاث ..

● وليس من شك أن المغرب كان يمثل القوة الحضارية فى المنطقة جميعها الى ذلك العهد . وكانت مكانة بلادنا ثقافيا وعسكريا وتجاريا وبحريا تضاهي مكانة أضخم الدول على وجه الارض طرا .. وهذه حقائق التاريخ ، وليست انفعالات نفس شديدة الغيرة على بلادها ..

● كان الهدف الاساسي من وراء معركة وادي المخازن يقوم على مرحلتين تخطيطيتين :

المرحلة الاولى : ضرب المغرب واسقاط دولة الاسلام والعروبة فيه ومواصلة عمليات الاضطهاد الديني ومحاكم التفتيش الشهيرة باسبانيا والعبور بها الى بر المغرب . وكانت تجربة احتلال سبتة تغريهم وتحفزهم لاحتلال المغرب كله من البحر الى الصحراء . بالمفهوم المغربي القح للصحراء كما لا نحتاج أن نقول .

وبسقوط المغرب ورفع الصلبان فوق مساجده تتمهد لهم الطريق نحو افريقيا .

المرحلة الثانية : احتواء القارة الافريقية المكتشفة بواسطة طوابير الجواسيس الذين لبسوا مسوح العلماء الجغرافيين والرحالة وعابري السبيل . (العجيب ان العملية تكررت فى منتصف القرن التاسع عشر فى نفس المنطقة تمهيدا لاعلان الحماية بالمغرب) .

ومن يقول بالدوافع الاقتصادية وبالتفسير المادي للتاريخ تكذبه وتفحمه معركة وادي المخازن التي وقعت قبل فترة ما اصطلح عليه فى كتب التاريخ بعصر النهضة باوروبا ، وقبل اندلاع الثورة الصناعية ، حيث اشتدت الحاجة الى تصريف المنتوجات الصناعية الجديدة وايجاد مصادر للمواد الخام .

● التاريخ هنا تحرك وبصورة يقينية قاطعة بدافع ديني محض . والصراع قام اساسا بين الاسلام باعتباره دين العقل والتنوير والتقدم وبين مسيحية اوروبا الوجلة الخائفة المتذبذبة تحت وطأة ركام هائل من الخرافات والاساطير .

ولقد هوجم المغرب لاسلامه ولقيام دولة الاسلام والعروبة على ارضه، ولدوره القيادي التي اقتضت ارادة الله أن يقوم به ولا يزال يقوم به الى يومنا هذا .

ومما يثير الفكر بقوة أن ماجرى فى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) يجري اليوم على مسرح الاحداث بصورة يراها البعض مختلفة تمام الاختلاف ، ويراها المؤمنون بربهم ، والواعون بحقيقة التاريخ (باعتباره ارادة الله تعالى) متقاربة ومتشابهة الى حد بعيد .

وصدق من قال ان التاريخ يعيد نفسه . ان الاعادة تتم أمام ناظرنـــا بشكل مفزع ورهيب وعلى جانب كبير من الاتقان والدقة والدهاء والمكر ..

ان الدارس لمختلف الاطوار التاريخية لمعركة وادي المخازن يجد تشابها كبيرا بينها وبين ما يجري اليوم فى افريقيا ... فلا يمكن الفصل بين أحداث زائير اليوم والصحراء بالامس وما تصطرع به القارة الافريقية فى جنوبها ووسطها وشرقها وقرنها من احداث وتطورات تتضخم يوما بعد يوم وبين معركة وادي المخازن وعشرات المعارك التي خاضها أجدادنـــا بشجاعة وآباء وصمـــود .

ان تغير الاساليب والوسائل والتقنيات لا يقتضي تغير المواقـــف والاهـــداف ...

● ونحن هنا نقولها بصراحة : ان العملاقين الكبيريـــن اللذيـــن يتقاسمان اليوم مناطق النفوذ فى العالم يجمعان على غزو افريقيا ..

وغزو افريقيا يعني فى المقام الاول – ومن وجهة نظرنا الاسلامية – سقوط الاسلام واندثار أثره ، وبسقوطه واندثاره تتساقط تباعا اللغـــة العربية والسلام والامن وكرامة الانسان المسلم الافريقي والاسيوي على سواء ، اذ هذا مرتبط بذاك ..

هكذا – اذن – تبدو الحقائق واضحة أمام من ينظر اليها بالرؤيـــة الاسلامية الصافية ..

لقد دخلت أوروبا معركة وادي المخازن بالصليب . واليوم تدخـــل قارتنا بالمنجل .. وهما معا شعار واحد ، واستعمار واحد ، وانهيـــار واحـــد ، لا قـــدر الله ..

فاي فرق بين الامس واليوم ؟ .

ان التعبئة الجماعية وشحن النفوس بطاقات الاسلام الحق وبـــث روح الامتثال والطاعة والانضباط والانحياز الى جانـــب العقـــل النيـــر المستنير والاخذ باسباب الحيطة والحذر كلها عوامل ايجابية فى انتصارنا العظيم على خصوم الاسلام والعروبة والمغرب والسلام الافريقي فى موقعة وادي المخازن .. ولا احد يجادل فى قيمة وصلاحية وفعالية هذه العوامل ذاتها فى معارك اليـــوم ..

● ان خرافة التفسير المادي للتاريخ لا يمكن ان تكون بديلا عـــن التعبئة الاسلامية الواعية والمتفتحة والمتعلقة لصد العدوان الصليبي – المنجلي على ديارنـــا ..

ونحن نقولها بصراحة ايضا : ان ما يسميه أبناء جلدتنا وعمومتنا العاقون فى جزائرنا الشقيقة بالبوليزاريو ، ما هو فى الحقيقة الا شراذم من المتعلقين باذيال الماركسية ـ اللينينية الممعنة فى الرجعية والتخلف عن روح العصر .. وهؤلاء يتلاقون مع رواد المنجل و ((المكتشفين)) الجدد للقارة فى اهداف خطيرة تتجاوز ما يعلن عنه فى أجهزة الاعلام .. وما قضية تقرير المصير ، وحرية الشعوب ، ووحدة الكفاح ضد الامبريالية الا غطاء لامر أشد خطرا مما نتصور .

يقول المؤرخون المغاربة ان الاعداد للمسيرة الخضراء المظفرة صورة جديدة لما تم قبل معركة وادي المخازن .. وهذا يعني أننا دخلنا المعركتين بنفس السلاح والتخطيط ... ولا غرو .. فمغرب العلويين امتداد لمغرب السعديين .. هي دولة واحدة تستظل بعرش واحد ... وقبل هذا وذاك هو شعب واحد .

وبعد ؛

فقد أبت مشيئة الله الا أن تجتمع فى هذا الشهر المبارك ثلاث ذكريات مجيدة من تاريخنا الوسيط والحديث والمعاصر .

- الذكرى الاربعمائة لمعركة وادي المخازن .
- الذكرى الخامسة والعشرون لثورة الملك والشعب .
- الذكرى الثامنة عشرة لوفاة بطل الاستقلال والتحرير جلالة المغفور له محمد الخامس قدس الله روحه .

وهي ذكريات وان تباعدت واختلفت شكلا وأسلوبا فقد اتحدت فى الاهداف والنتائج .

لقد كانت ثورة الملك والشعب التي تصاعد لهيبها يوم 20 غشت 1953 نقطة تحول خطيرة فى تاريخ المغرب الحديث تجاوب بها الملك والشعب مع امجاد حضارتنا وتلاقت فيها أرواح الشهداء والمجاهدين وامتزج من خلالها الحاضر بالماضي والشاهد بالغائب فلم تقل شانا عن ملحمة وادي المخازن ولم تكن اضعف تاثيرا منها على مستقبل المغرب .

ومما لا يرقي اليه الشك ان المنطلق الاساسي لثورة الملك والشعب لم يخرج قط عن دائرة الحرية والكرامة والعزة والشرف فداء وتضحية وجهادا وسعيا مستمرا وكدحا متواصلا .

واذا كان المغاربة قد انتصروا فى ثورتهم العظيمة بالتحام العرش بالشعب فان احدا لا يشك فى ان ذلك كان وجها من وجوه تثبت هذا

الشعب بدينه الحنيف اذ من اقدس تعاليمه الطاعة لاولي الامر والبيعة الشرعية لامير المؤمنين ولم تكن هذه المعاني السامية غائبة عن رجالنا الشجعان الذين تحملوا عبء المقاومة والتحرير .

● واذا كان قائد المعركة قد سقط شهيداً في اوج الجهاد الاكبر بعد مضي خمس سنوات على اعلان الاستقلال ، وبكاه شعبه مر البكاء ، فان اللواء لم يسقط ولن يسقط بحول الله وقوته .

● ان استمرار جلالة الملك الحسن الثاني ـ نصره الله ـ على نهج اجداده وآبائه المجاهدين الابرار يشكل في الواقع اقوى ضمان لاحراز مزيد من الانتصارات وتحقيق الاهداف الوطنية العليا على هدى من الله ورضوان .

(دعوة الحق)

رواية عبد العزيز الفشتالي

(فمنها ما كان ... بوادي المخازن الذي اجتمعت فيه جموع الملتين وأمم الكلمتين فقاوم أيده الله احزاب الشرك وطواغيث الكفر وحده لانقضاء اخيه المولى عبد الملك أمير المؤمنين رحمه الله لاول المصطدم وعندما اقتدح زناد الحرب فكان في موته ساعتئذ واحزاب الطاغوت فاغرة الافواه لالتهام انصار الملة كبوة للاسلام وعثار لجد الدين لولا ان الله تعالى جبر الصدع واقال العثار بمولانا أمير المومنين ...

ولم يحفل بما قارن هجوم العدو من موت اخيه ولا زاد أيده الله على ان وكل برعي محفته من وثق بمكانه وصمم هو أمام في الوثبة الى المشركين حتى زحزحهم عن مصافهم وصبر لهـــول اليوم وثبـــت محتسبا لزلازل المشركين وصدماتهم المتتاليـــة ...

فأصابته ايده الله يومئذ جراحات بالبندق مشطت احداها ظاهـــر قدمه وخاضت في احشاء فرسه ... واصابته اخرى ايده الله في صدره ... وسمعته أيده الله يحدث انه لما وكزته في صدره لم يشك لشدتهـــا انها نافذة من تابوته قال ايده الله : فادخلت يدي من تحـــت الاطـــواق لالمس الجرح فوجدت حصاة البندق وقد اخترقت الاطواق وبردت عند الثوب وتورم المكان من ساعته ورما مفرطا عقب الله فيه باللطف الشامل ..

وناهيك من يوم اجلى عن ثلاثة ملوك موتى ما بين مجدل وغريـــق وفائض النفس حتف الانف وعن ثمانين الفا من المشركين ما بين قتيـــل واسيـــــر) .

عن (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا) ـ صفحة 37 ـ 39

لابي فارس عبد العزيز الفشتالي ـ وزير المنصور السعدي

دراسة وتحقيق : الدكتور عبد الكريم كريـــم

المغرب يحتفل بالذكرى الأربعمائة لمعركة وادي المخازن

السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور أحمد رمزي يلقي كلمة هامة في حفل رسمي أقيم بموقع المعركة.

احتفل المغرب يوم الجمعة 4 غشت الجاري بالذكرى الاربعمائة لمعركة وادي المخازن . وأقيم بالمناسبة حفل رسمي كبير بموقع المعركة بالقرب من مدينة القصر الكبير ترأسه السيد وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية الدكتور أحمد رمزي بحضور عدد من السادة وزراء حكومة صاحب الجلالة وجمهور غفير من سكان المنطقة وممثلي القبائل المجاورة.

وقد ألقى السيد وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية كلمة باسم حكومة صاحب الجلالة نصره الله أبرز فيها المعاني النبيلة التي تكتسيها هذه المعركة الخالدة التي رفعت رأس المملكة المغربية في الآفاق وأكسبتها مهابة ومكانة بارزتين على الصعيد الدولي .

كما اهتمت أجهزة الاعلام بالذكرى . ونشرت الصحف المغربية مقالات بالمناسبة .

ويسرنا أن ننشر النص الكامل لكلمة الدكتور أحمد رمزي :

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة والسيدات

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

قررت حكومة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني ـ كما تعلمون ـ ان تحتفل هذه السنة بالذكرى الاربعمائة لمعركة وادي المخازن المجيدة ، احياء لتاريخنا ، واستلهاما للعبر والعظات من مجدنا التليد، وربطا للحاضر المشرق بالماضي الزاهر الحافل بالبطولة والشرف والسؤدد وفي ذلك ما فيه من شحذ للهمم ، وتقوية للشعور الوطني واثراء لتجربتنا النضالية في مرحلتنا الجديدة من المواجهة مع

القوى المتآمرة ضد سيادتنا الوطنية والطامعة في النيل من مكتسباتنا وسلب حقوقنا .

لقد شهدت هذه الرحاب ملحمة من اروع واعظم الملاحم الحاسمة في تاريخ الاسلام والعروبة ، وصفها عدد غير قليل من المؤرخين المغاربة والمشارقة « بمعركة بدر الثانية » لما كان لها من تأثير حاسم على ايقاف موجات الزحف الصليبي على ديار الاسلام، ولما لعبته من دور مصيري في تقوية جانب هذا الدين واعلاء شان المسلمين في المغرب وسائر البلاد العربية والاسلامية ولما وضعته من حد فاصل لتكالب وتآمر اوروبا الصليبية ليس فقط ضد بلادنا ، ولكن ضد شعوب اسلامية وافريقية كانت مهددة بالاكتساح والغزو لولا انتصار المغاربة في موقعة وادي المخازن العظيمة .

ان الامر الاساسي الذي يجب التركيز عليه في هذا الصدد ان المغاربة واجهوا في معركة وادي المخازن اعظم امبراطورية على الارض بلا منازع . فلقد كانت البرتغال في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، كما كان يقال الى أوائل القرن الحالي عن انجلترا . واذا اضفنا الى ذلك الروح الصليبية التي دفعت بالكنيسة في أوروبا الى اعلان التعبئة الجماعية المقدسة مما دفع بجيوش عدةدول للمشاركة في الحرب ضدنا ، وجدنا انفسنا أمام غارة دولية بالمعنى الواسع للمصطلح ، سواء بمقياس اليوم ، أو بمقياس القرون الوسطى .

لقد شاء قدرنا أن يكون المغرب أول دولة عربية اسلامية تستهدف للتآمر الاجنبي في ابان عصر النهضة في اوروبا . والغريب ان بلادنا كانت آخر دولة عربية اسلامية تسقط في يد القوى الاجنبية في أوائل القرن العشرين مما يؤكد بما لا يرقى اليه الشك انا ظللنا صامدين زهاء أربعة قرون، نقاوم ، ونرد العدوان ، ونتنصر ، ونعيد الكرة من جديد ، في سلسلة متواصلة مرهقة من المعارك التي لم تكن معركة وادي المخازن الشهيرة الا قمتها ونقطة تحول كبرى في مسارها ، ولم تكن معركة الصحراء التي خضناها وراء القائد الرائد الملهم جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله الا واحدة من هذه المعارك التي لا نحسب انها انتهت او في طور الانتهاء ما لم نحرر آخر شبر من ارضنا وشواطئنا في الشمال والشرق على السواء .

وهكذا – أيها السادة والسيدات – لم نخض هنا على هذه الربى الطيبة معركة عادية مع دولة عادية ولكننا خضنا اشرس المعارك واشدها هولا وفزعا واكثرها تضحيات وتكاليف مع أقوى دولة على وجه الارض . ولا غرو ، فان شعارنا « الصدر او القبر » ومثلنا « الحياة الكريمة في ظل العز والشرف والسيادة » .

لقد وقعت معركة وادي المخازن في ظروف دولية بالغة الخطورة ، كان العالم الاسلامي كله مهددا بالسقوط في يد الاستعمار الجديد ، بعد تجربة التتار في الشرق وامتداد النفوذ التركي واكتساحه لجميع الاقطار الاسلامية باستثناء هذا المغرب العظيم . وكانت أوروبا التي فشلت في حروبها الصليبية بالمشرق العربي تحاول جادة التعويض عن فشلها بحركة صليبية جديدة يكون مسرحها المملكة المغربية كخطوة أولى في الطريق الى اكتساح افريقيا برمتها .

وبعد احتلال سبتة وبعض الموانىء المغربية على المحيط الاطلسي تفتحت شهية البرتغال زعيمة اوروبا آنئذ واغرتها بعض المظاهر الضعيفة والمتخاذلة احيانا للتسلل الى قلب المغرب تمهيدا لاحتلاله من جميع الجوانب واقامة دولة الصليب على أرضه الطاهرة ، بيد أن المغرب ، او بالاحرى العرش المغربي الشريف في عهد الدولة السعدية استطاع ان يتحرك في الظرف المناسب ليرد العدوان ويمحو العار وبقي البلاد دمارا وهلاكا كانا متوقعين لولا يقظة ووعي وحزم القيادة الرشيدة المتمثلة يومئذ في السلطان القائد المجاهد المولى عبد الملك السعدي واخيه ابي العباس أحمد الذي عرف في تاريخ المغرب والاسلام وافريقيا باحمد المنصور الذهبي صاحب الفتوحات الكبرى والمناقب العظمى .

ان انتصار المغرب في معركة وادي المخازن لم يكن صدفة ولم يات كيفما اتفق . فان الشعوب العظيمة لا ترتجل الملاحم ولا تغامر بشرفها وأرواح ابنائها ، ولكنه انتصار مخطط له بدقة واتقان وعلم وخبرة وكفاءة اقل ما يقال في حقه انه وليد معاناة وتفاهم وتلاحم وتجاوب وارتباط القمة بالقاعدة وانصهار الجميع في بوتقة الوطنية الحق دفاعا عن حوزة البلاد وحرمتها وسيادتها ، وذودا عن بيضة الاسلام وشرف العروبة واستقلال ديار المسلمين في مغرب الارض ومشرقها .

بهذه الخصال الجهادية استطاع الشعب المغربي الابي ان يحرر البلاد ويطهر ارضنا الطيبة من رجس الغزاة الاستعماريين والمغامرين الطامعين والخونة العملاء الضالعين مع معسكر الكفر والقهر فما نال البرتغاليون منا شيئا وما حققوا هدفا ، وولوا الادبار خاسرين مندحرين بعد ان سقط كبيرهم « سبستيان » صريعا .

ايها السادة والسيدات :

ان العبرة من الاحتفال بالذكرى الاربعمائة لمعركة وادي المخازن في عهدنا الجديد لتنصرف أساسا الى اقتباس ما يمكن اقتباسه من عظات تاريخية ودروس وطنية تكون لنا زادا في معركتنا الحالية ضد عوائق التنمية من جهة ، وضد الغزاة الجدد الطامعين في ارضنا ومواردنا . فنحن — اذن — امام تحد جديد ، وفي مواجهة معركة جديدة ما احرانا ان نحتشد لها الجهود وراء قائدنا العظيم مولانا المنصور بالله الحسن الثاني زاده الله عزا وسؤددا .

لقد خضنا معركة وادي المخازن منذ اربعة قرون من اجل ان نعيش احرارا في بلادنا وتعيش افريقيا حرة ايضا . ولكن التاريخ اعاد نفسه لنواجه مع قارتنا وشعوبها كلها غزوا اجنبيا شرسا لا يحمل الصليب هذه المرة ولكنه يحمل أخطر من الصليب ، ولا يبشر بالحب والتسامح الانساني المزعوم ولكنه يبث الحقد ويحرض على التمرد ويهدد الامن والسلام ويعرض مسيرة التقدم والنماء الى التعثر ان لم يكن الى التوقف المؤقت او النهائي .

بيد ان احفاد رجال وادي المخازن قادرون على القيام بنفس الدور العظيم لدرء الخطر والتصدي لاى نوع من الغزو ومقاومة كل استعمار مهما كان شكله ولونه وشعاره .

ان معركة وادي المخازن — ايها السادة والسيدات — لم تكن لتحرر شمال المملكة فحسب ، ولكنها حررت أيضا جنوبها ، وحررت — ثالثا — اقطارا عربية أخرى وخاصة دول وامارات الخليج العربي التي خف عنها الضغط البرتغالي في اعقاب انهزام لشبونة الشنيع وبذلك يكون المغرب قد ساهم في الماضي في الدفاع عن الاشقاء والاصدقاء تماما كما يساهم اليوم في الشد من عضدهم وتعزيز جانبهم وابعاد خطر الغزو والدمار عنهم بما أوتي من قوة وعزم ، وبما وهب الله ملكه الهمام من عبقرية وحنكة وبعد نظر وحصافة راى .

تلك هي الدروس السريعة التي يمكن استخلاصها من معركة وادي المخازن .. ملحمة الاجداد والدرة الناصعة في عقد تاريخنا الخالد .

وخير ما نختم به الدعاء الصالح لامير المؤمنين مولانا الحسن الثاني نصره الله وولي عهده المحبوب الامير سيدي محمد وصنوه الامير مولاي الرشيد وسائر افراد العائلة المالكة الشريفة .

فاللهم احفظ مولانا الملك القائد بما حفظت به ذكرك الحكيم . وارزقه اللهم مزيدا من التوفيق والسداد والقبول والفوز المبين .. وارفع به راية الاسلام ، واهزم بيده وشعبه المؤمن جحافل القهر والكفر أينما كانت .. وابق بلدنا هذا عظيما في فوزه المستمر وموفقا في مسيرته ومظفرا في معركته ومحروسا ابد الدهر .

ورحم الله شهداء معركة وادي المخازن وماطرهم بشآبيب رحمتك الواسعة .. والفاتحة لارواحهم الطاهرة وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين . والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

إسلام رائد

● اثناء الزيارة التي قام بها وفد من رابطة علماء المغرب الى المملكة العربية السعودية اهدى الاستاذ عبد الله كنون نسخة من كتابه القيم « اسلام رائد » لفضيلة الشيخ السيد عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس العام لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالمملكة العربية السعودية .

وقد تلقى الاستاذ كنون مؤخرا خطابا من العالم السعودي الكبير ينوه فيه بكتاب « اسلام رائد » باعتباره اضافة عميقة الى المكتبة الاسلامية المعاصرة . ويقول :

« ... فقد اطلعت على كتابكم القيم الموسوم بـ « اسلام رائد » الذي بذلتم فيه الجهد ما يستحق التقدير . وانني اذ اشكركم على ما تضمنه الكتاب من التوجيه والارشاد والدعوة الى الحق وعرض الاسلام عرضا نقيا سليما من شوائب الشرك والبدع أرجو من الله لكم التوفيق وان ينفع بجهودكم الاسلام والمسلمين انه على كل شيء قدير . وأرجو من فضيلتكم اتحاف هذه الرئاسة بكمية من الكتاب للتوزيع على طلبة العلم لتعم الفائدة ويحصل المقصود .

وفق الله الجميع لما يرضيه وأثابكم على عملكم الطيب انه جواد كريم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

هذا وقد اصدرت المطبعة الملكية بالرباط طبعة ثانية من الكتاب في حلة قشيبة .

في الخطاب الملكي السامي بمناسبة عيد الشباب :

دعوة إلى دراسة التاريخ المغربي لاستلهام حوافز الاستمرار والتحدي

احتفل المغرب يوم تاسع يوليوز بعيد الشباب الذي صادف هذه السنة الذكرى التاسعة والاربعين لميلاد جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله .

وبالمناسبة القى سيدنا المنصور بالله خطابا مركزا وجه فيه حفظه الله نصائح ثمينة الى الشباب المغربي مهيبا بهم الى دراسة تاريخ المغرب والمقارنة بين الحاضر المشرق والماضي الزاهر .

وفيما يلي النص الكامل للخطاب الملكي السامي :

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

شعبي العزيز :

تلتقي اليوم ، كما هي عادتنا ، كلما احتفلنا بعيد الشباب ، وقد فكرت طويلا فى معنى الاحتفال بعيد الشباب ، وحاولت ان أكتنه معناه ، فى اعمال والدنا المغفور له محمد الخامس رضي الله عنه ، فى اعماله وفى تفكيره وفى ما يرمي اليه ، وقد تذكرت خطابه يوم قلدني مسؤولية ولاية العهد ، ذلك الخطاب الذي أوصاني فيه بالحنو والدفاع عن أسرتي الكبرى وأسرتي الصغرى ، فهكذا ، زيادة على أواصر المواطنة ابى رضي الله عنه الا أن يواخي بينك وبيني بكيفية خاصة وفى موقف رهيب ، ولي اليقين انه رحمه الله كان يرمي من جملة ما يرمي اليه ، الى معنى سامي ، الا وهو أن الشعب والملك فى هذا البلد الامين هما طرفان من جسد واحد لا يمكن لاحد منهما أن يتمتع بالصحة دون الآخر . ولا يمكن لاحد منهما أن ينجو الا اذا أخذ بيد الآخر ، ولا يمكن لاحد منهما أن يبني ويشيد الا اذا تعاون وتعامل مع الآخر .

وها نحن منذ سنة الف وتسعمائة وسبع وخمسين نحتفل بعيد تاسع يوليوز . وهكذا اصبح هذا الاحتفال ، ليس احتفالا بعيد ميلاد رجل واحد ولا بعيد ميلاد ملك بل اصبح عيد تجديد وتجدد الشباب كل سنة في هذه المناسبة ، مناسبة تاسع يوليوز ، وتجدد الشباب له معان كثيرة ، وله فلسفة عميقة ، ذلك أن الشباب أولا : ينطوي على سريرة نظيفة طاهرة وكلما طهرت النيات تجلت الغايات والمقاصد ، وسهل اذ ذاك الوصول اليها وبلوغها .

ثانيا : الشباب يعني أن لا مستحيل مع الشباب وهكذا شعبي العزيز ، منذ ان قلدني الله أمر شؤونك ، خضنا ميدان المستحيلات ، وانتصرنا ولله الحمد في ميادين المستحيلات ، الشباب يعني يقظة مستمرة ، حرصا لا ينقطع على كرامة الدولة وحوزة الوطن والحفاظ على الاصالة ، وهكذا كذلك شعبي العزيز منذ ثماني عشرة سنة ونحن ندافع عن كرامة الدولة ، ونذود عن سيادتها ونحافظ أكثر ما يمكن عن أصالتها .

شعبي العزيز :

في الشهر الماضي خاطبتك في شؤون تمس باقتصادك ، أي برفاهيتك واسعادك علما منا ان الدولة الحقيقية اليوم ليست الدولة الغنية ماديا والفقيرة معنويا، او الدولة المتعلمة الغنية فكريا والفقيرةماديا، بل ، الدولة الحقيقية التي لها وزنها في قارتها وفي جهتها وفي أسرتها الكبرى البشرية هي تلك الدولة التي تتميز بتوازن متكامل مستمر بين مادياتها وروحانياتها ، فخاطبتك شعبي العزيز في الشهر الماضي لتستكمل وسائل سياستنا من الناحية المادية ولكننا حينما خاطبناك ، لم نقل لك افعل كذا ، واعمل كذا ، بل توجهنا كذلك الى روحانياتك والى تفكيرك حتى تنمي في آن واحد مشاعرك بالمسؤولية ، وتنمي، كذلك تقييمك للاوضاع الاقتصادية فتنمو نموا يزدهر به الوطن وينشرح له الصدر ، ويرتاح به الضمير .

خاطبناك في الشهر الماضي وكان خطابنا ولله الحمد خطابا مطابقا أولا لما ننتظره منك من ناحية العمق والكنه ، ولكنه ولله الحمد صادف اطارا وشكلا طالما طمحنا اليه وطمحت اليه ، الا وهو الاطار الاسلامي الحقيقي ، اطار التشاور ، اطار تبادل النصح واطار المشاركة في المسؤولية ، تنفيذية كانت أم تشريعية ، فصادف ولله الحمد نداؤنا ، صادف ما كنا نتمناه جميعا من وجود اطار دستوري يجعل منا كلا لا يتجزأ ويضع على عاتقنا وكاهلنا جميعا العبء الذي به سنخرج من طور التخلف الى طور الرخاء والازدهار .

اننا شعبي العزيز نريد قبل كل شيء أن نركز على فكرة اساسية خطابنا اليوم الذي سيكون خطابا قصيرا ووجيزا ، اننا لا ندعوك الى التجنيد لقصد الرفاهية وبلوغ الثراء والغنى ، للرفاهية والغنى فقط، لان الشعب المغربي لم يكن قط شعبا ماديا صرفا ، دعوناك للعمل والجد والكد لتجعل من ثرواتنا ومن خيراتنا ومن منتوجنا وتتاجنا اسلحتنا المادية والمعنوية التي يمكننا من لعب الدور الذي ينتظرنا في قارتنا ، في أسرتنا العربية ، في اسرتنا الاسلامية الذي ينتظرنا طبقا لما عودنا عليه الاجيال والتاريخ .

وما هو دورنا يا ترى ؟ دورنا قبل كل شيء ان نصدع بالمسؤولية وان نقوم بالواجب وان نعين على المعروف ونعين على محاربة المنكر .

ولكن بأي كيفية سنحارب المنكر ؟

هل بكيفية فضولية ؟ أم بكيفية مشروعة ؟ علينا ان نعلم أن كل تدخل للمغرب سواء كان الآن أم في الاجيال المقبلة لن يكون الا تدخلا مشروعا اما فرضه الجوار واما فرضته المبادىء واما نادى به ديننا الحنيف ، فكلما تحركنا في هذا الاطار المشروع وقمنا بواجب التعاون مع الاخوة ، كان دائما الحق من ورائنا وبالتالي الله معنا .

شعبي العزيز :

اذا كنت طموحا كما اعتقدك طموحا ، واذا كنت تشرئب الى المستقبل كما اعتقد انك تفعل ، سوف تبني معي ذلك المستقبل وقبل المستقبل هذا الحاضر الذي سيمكننا من رفع علمنا خفاقا بتواضع دون كبرياء ، ستعيننا لنبني تلك الوسائل وذلك المعول الذي به سنشق طريقنا ، وستنبت تلك البذور التي نحرثها الآن وسوف تستمر في حرثها ، فاذا كنت على بينة من هذا وذاك ، وايماننا على انك على بينة من هذا وذاك ، وأنك ستبقى على بينة اذن سنكون أسعد الشعوب وأسعد الامم .

شعبي العزيـــز :

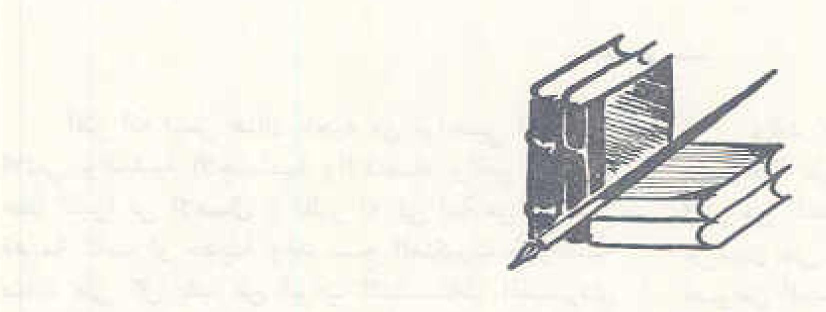
لي نصيحة فى هذا اليوم ، ونصيحتـــي هـــي الآتية : لا يمكنك ان تتصور بكيفية واضحة واجبك ومسؤولياتك ، ولا يمكنك أن تبقـــى مستمـــرا فى مستواك العالي ، ولا يمكنك ان تتحمل من التضحيات ما تتحمل ، ولا يمكنك ان تبقى تعيش فى جو الامل ولو ضاقت بك رحاب الدنيا موقتا ، الا اذا كنت عالما حق العلم بتاريخك وبأصالتك وبوقائع اجـــدادك ، فاقرأ شعبي العزيز ، تاريخ بلادك وتعمـــق فيـــه ، وسوف تصبح اذ ذاك فخورا بمغربيتك مستعدا لكل التضحيات قابلا لتحمل كل المسؤوليات .

هذه شعبي العزيز بكيفية وجيزة كلمتي لك فى هذا اليوم الذي نحتفل به كاخوة وكاخوان وكأشقاء آخى بينهم محمد الخامس رضي الله عنه ، أردت أن أقدم لك هذه الكلمة لتتفحص معانيها وتدرك اسرارها، يقينا منا أنك اذ ذاك ستصبح ذلك الشعب الذي عليه المعول ، والذي يحق لكل من انتسب اليك رئيسا أو مرؤوسا ، مقودا أو قائدا ، مواطنا أو ملكا ، يستحق انيزهو وأن يفتخر وان يحمد الله على انه ولد مغربيا فى هذا الظرف الدقيق من حياة البشرية .

شعبي العزيـــز :

انني اعلم انك فى المدن والقـــرى تشاركنـــي افراحي ومسراتي ، فشكرا لك على ما تقدمه لي من تهاني ولو تمكنت من ذلك لقبلتك أفرادا وجماعـــات ولاحتضنتك ماديا كما احتضنك فى غدوي ورواحي ، فى يومي وفى ليلي ، فى عملي وفى راحتي ، راجيا من الله سبحانه وتعالى ، أن يديم علينا نعمة التآخي والتجاوب والتضامن انه سميع الدعاء .

والسلام عليكم ورحمة الله .



حول وقعة وادي المخازن

للأستاذ عبد الله كنون

● نشر الاستاذ الكبير عبد الله كنون هذين المقالين بمجلة « الانوار » التطوانية في غشت 1952 ومجلة « لسان الدين » في غشت 1955. اي قبل استقلال المغرب وعودة جلالة المغفور له محمد الخامس الى ارض الوطن بثلاثة شهور لا اقل ولا أكثر. وهي فترة دقيقة من تاريخ المغرب الحديث تميزت بحدة الصراع بين القوى الوطنية المؤمنة بالاسلام والعروبة والشرعية المتمثلة في صاحب العرش المغربي السلطان سيدي محمد بن يوسف، وبين جحافل الشرك والطيبية الحديثة المتمثلة في الاستعمار الاجنبي لبلادنا. ولعل هذا يتضح جليا من خلال مقدمة المقال التي تتضمن كشفا للواقع المغربي آنئذ ونقدا وطنيا مخلصا.

ونشير الى ان الاستاذ كنون نشر هذين المقالين بعد ذلك ضمن مجموعة مقالات قيمة في كتابه « خل وبقل ».

— 1 —

اظن انه ليس هناك ناحية من نواحي العمل الادبي والخدمة الاجتماعية والاقتصاد والفن لم نولها حظا كبيرا من الاهمال لا نظير له في أمة من الامم قديمة كانت او حديثة وقد نسج العنكبوت خيوطه عندنا على كل باب من أبواب النشاط الفردي والجماعي للامة، فلا ترى الا غبارا متراكما على كل مرفق من مرافق الحياة لشعب يريد ان يجاري الشعوب الراقية في جميع الشؤون.

وباستثناء العمل السياسي الذي يضطلع به نفر من المجاهدين الابرار داخل البلاد وخارجها، فاننا اصبحنا نمثل مدينة الاموات بحيث تركنا الميدان فارغا لكل صادر ووارد فلا تسمع لنا نأمة ولا نتظاهر بمظهر يدل على ان رمقا يجري في عروقنا فتؤمل لنا الحياة من جديد.

ولقد كنت أرى اننا في الميدان الثقافي نكاد نكون عالة على التاريخ. أي اننا نعيش في الماضي اكثر من الحاضر؛ فكتابنا وشعراؤنا ومؤلفونا لا يزيدون على أن يجتروا ما قرؤوه ولم يهضموه من نصوص ادبية وأبحاث علمية وتاريخية، وكنت اقول انه لا بد في مستهل نهضة الامة من النقل والحكاية والاقتباس حتى اذا تفتحت العقول وتلقحت الافكار سالت الاقلام وجادت القرائح بالطريف والجديد، ولكني صرت اعتقد الآن اننا لسنا بسبيل من التاريخ ولا من الواقع، واننا نمر بآيات مجدنا ونحن عنها معرضون. وننغض رؤوسنا لكل داعية يدعونا الى ما فيه نجاحنا كاننا بالبعث مكذبون.

ولا اذهب بعيدا بالقارىء الكريم، فهذه وقعة وادي المخازن الشهيرة التي كانت من الوقائع الفاصلة

في تاريخنا القومي والتي قضت على سياسة التدخل الاجنبي قضاء مبرما ، فلم ترفع راسا بعدها مدى قرون ، هذه الوقعة لا نرى اهتماما بها في حياتنا الاجتماعية ولا نسمع لها صدى في انتاجنا الادبي كانها حادث عادي يتكرر وقوعه كل يوم ولا يلفت نظر احد من الناس ، مع أن الحوادث العادية قد تكون موضع اهتمام وتعليق من ذوي النظر الصائب والفكر الخالق ! فكيف بحادث هام لم يشتمل التاريخ المغربي المجيد على عدد اصابع اليد الواحدة من نظائره .

وبينما نحن ازاءها على هذا الحال ، نرى وفود البرتغاليين كل عام تحج الى موقعها بالعشرات بل المئات . ما بين شيب وشباب . ومدنيين وعسكريين؛ ورجال دين يقيمون الصلوات ويرفعون الانصاب . ويخطون ويصورون ، ويضعون الدراسات ويستخلصون العبر ، شأن الامم الحية التي تعني بماضيها كما تعني بحاضرها وتستفيد من نكباتها وعثراتها كما تستفيد من فتوحاتها وانتصاراتها .

وكأني بمتشدق يقول انهم اذا اهتموا بها هذا الاهتمام وحجوا لموقعها كل عام فقد كانت وبالا عليهم وسببا لادبار دولتهم . اما نحن فقد انتصرنا فيها انتصارا عظيما وطهرنا بلادنا من رجسهم ولا يستوى شعورنا نحوها بشعورهم ، وهذا الجواب على ما يقتضيه من اهمال لمواطن الفخار في تاريخنا القومي يلزمنا بالرجوع مثلهم الى تذكر ايامنا السود ومعاركنا المخسورة كوقعة « ايسلي » التي كانت فضيحة الجيش المغربي ، فنعكف على دراستها . واستخراج المثلات من حوادثها ولكننا لا نفعل شيئا من ذلك ولا نتذكر ربحا ولا خسارة . وانما نقول لم فاتنا هؤلاء ، ولم تأخرنا وتقدم اولئك ؟ ونكتفي بهذا التساؤل ولا نهتم بالجواب عنه ! .

على اننا نهمل هذه الواجبات وهي على طرف الثمام منا في بلادنا ويأتي البرتغاليون للطواف بحرم وادي المخازن من بلادهم في العدوة الاخرى ، فلا نكون مساوين لهم . ولو قمنا بهذه الواجبات حتى نرحل بدورنا ايضا الى الاندلس ونقف على مواقع الزلاقة والارك والعقاب ونتقصى عن هذه الوقعات تفصيهم ، ونتقفى آثارها تقفيهم وهيهات هيهات !

راجعت الآثار الادبية فلم ار فيها ذكرا لهذه الواقعة الا ما كان من قبيل الاشارة الخفيفة في شعر عبد العزيز الفشتالي وهو شاعر المنصور الذهبي الذي جلس على عرش المغرب في نفس يوم النصر وذلك حين يقول من مدح سلطانه :

عمادي الذي اوطا السماكين اخمصي
وأوفى على السبع الطباق فادناني
متوج املاك الزمان وان سطا
احل سيوفا في معاقد تيجان
وقاري اسود الغاب بالصيد مثلها
اذا اضطرب الخطى من فوق جدران
هزبر اذا زار البلاد زئيره
تضاءل في آجامها اسد خفان
وان اطلعت غيم القتام جيوشه
وارزم في مركومه رعد نيران
صببن على ارض العداة صواعقا
اسلن عليهم بحر خسف ورجفان
كتائب لو يعلون رضوى لصدعت
صفاة الجياد الجرد تعدو بعقبان
عديد الحصا من كل اروع معلم
وكان كمي بالرديني طعان
اذا جن ليل الحرب عنهم طلى العدا
هدتهم الى أوداجها شهب خرصان
من اللاء جرعن العدا غصص الردى
وعفرن في وجه الثرى وجه (بستان)
وفتحن اقطار البلاد فأصبحت
تؤدي الخراج الجزل املاك السودان

وهو يعني ببستان « سبستيان » ملك البرتغال. فهذه هي الاشارة الوحيدة التي وقعت في الشعر المغربي قديمه ومحدثه فيما نعرف الى هذه الوقعة المعلمة ، واللحن الموسيقي الذي ما ان ينسكب في آذاننا فنصغي له حتى انقطع فجأة وانقطع معه ذكر الوقعة بتاتا في الآثار الادبية بله الفنية التي ما زالت من قبيل المحاولات عندنا .

ولا شك أن كل ما منيت به هنا من اهمال قد عوض في الضفة الاخرى عند البرتغال ، وان كانوا هم المهزومين ، بما يجب من ترديد لذكرها في شعرهم ونثرهم وبحث طويل عريض في اسبابها ونتائجها وتخطيط لموقعها وتصوير لوقائعها مما به يظهر الفرق بين الامم التي تريد أن تحيا والتي تتمنى الحياة .

وعلى ذكر سبستيان فاني لاحظت في تواريخنا المتداولة انها اهملت حادثا مهما مما يتعلق به . وهو

نقل وفاته بإذن من المنصور لدفنه ببلاده مع آبائه واجداده وكان ذلك بعد قدوم وفد من البرتغال على المنصور وتقديم طلب بهذا الصدد اليه وكان هذا الوفد أول الوفود المتلاحقة بعد ذلك التي تقدم الى بلادنا لغرض يتعلق بمعركة وادي المخازن ، وها هي لا تزال تتلاحق لهذا الغرض الى الآن .

والذي ذكر هذا الوفد هو الفشتالي في تاريخه « مناهل الصفا » والعجب من اليفرني الذي لم يذكره، وهو لا يرد في الغالب الا من المناهل واما صاحب الاستقصا فاكثر اعتماده على اليفرني . فلذلك لم يذكره هو بدوره . ولكن أحدا نقله عن (منويل) تضمن الخبر المتعلق بذلك فلعله اكتفى به .

وهاك ما قاله الفشتالي في مناهله من مخطوطتنا الخاصة : « وخرج (المنصور) في غرة شعبان من عام ستة وثمانين وتسعمائة لظهر الزاوية من ساحة فاس حتى استكمل اهبة السفر وفرغ مما عن له ، فوفد عليه بمعسكره رسل سلطان النصارى يرغبونه في الامتنان عليهم بشلو طاغية سبستيان المواري بالقصر فتطارحوا عليه يرغبونه متضرعين ولعز الاسلام خاضعين فراى ايده الله ما في اسلام الشلو لهم والذهاب به الى بلادهم من مزيد الفخر للاسلام . وتجدد الاحزان لعبدة الاصنام ، بمشاهدته وتغيظهم برؤيته ونكايتهم بالوقوف على فريسته ، فامتن لذلك به عليهم وبغير عوض أسلمه اليهم ، بعد ان كانوا لبذل الاموال العظيمة فيه مذعنين . فجعلوه في تابوت وحملوه وساروا به فرحين ، وبمامن عليهم من اسلامه مغتبطين » .

ونص ما حكاه الناصري في الاستقصا عن منويل وهو مما يزيد اهتمام القوم الذي تحدثنا عنه بالواقعة وضوحا قال :

« وزعم (منويل) ان سبستيان هلك تحته في ذلك اليوم اربعة افراس ، وكان شابا حدثا ، وقال لاصحابه ان تروني امامكم وان لم تروني فانا في وسط العدو اقاتل عنكم . قال : وابدأ واعاد في ذلك اليوم الى ان خر قتيلا . وبقي مذكورا عند البرتغاليين يسمرون باخباره . وذكره شعراء اوربا في اشعارهم ولا زالوا يذكرونه الى الآن ، وخلفه في ملكه الطاغية انريكي البرتغالي فهو الذي ولي بعده واقتدى جنازته من المسلمين ونقلها الى سبتة فبقيت هنالك الى ان هلك الطاغية انريكي وتولى على البرتغال طاغية الاسبنيول فليب الثاني فصار ملك الدولتين معا ، وهو خال سبستيان اخو امه فنقل جنازته من سبتة الى لشبونة » .

ففي هذا النقل مزيد تفصيل عن الحادثة ـ على عادة الاجانب في الاهتمام بالشاذة والفاذة ، الا انه لا ذكر فيه للوفد وفيه مع ذلك درك على (منويل) لزعمه أن تسليم الرفات كان بالفداء اي بتعويض والذي ذكره الفشتالي انه كان بغير عوض امتنانا من المنصور عليهم مع استعدادهم لبذل الاموال العظيمة في ذلك ، والفشتالي أثبت في هذا الامر لمباشرته ومشاهدته وهمة المنصور واصول الدبلوماسية تؤيد ذلك .

ويلاحظ انه لم يكن بين وصول الوفد البرتغالي وتاريخ المعركة الا شهران فقط ، فانها كانت منسلخ جمادى الاولى سنة 986 والوفد وصل غرة شعبان الموالي . وهذا مما يدل على مزيد الاهتمام ايضا وشدة العناية ، رزقنا الله شيئا منهما .

— 2 —

في يوم 4 غشت 1875 م وقعت معركة وادي المخازن الشهيرة بين الجيش البرتغالي والجيش المغربي الذي انتصر على عدوه انتصارا عظيما .

ويقال لها ايضا معركة الملوك الاربعة وهم ملوك البرتغال وملك المغرب الذي استنصر به ، وقد سقطا في الميدان ، والملك عبد الله المعتصم الذي دبر المعركة ومات أثناءها مريضا ،والملك احمد المنصور الذي اعلن نتيجة المعركة وتولى يومها عند وفاة اخيه عبد الملك المعتصم .

ومن الغريب اننا ـ كما قلنا في مقال سابق نشر بمجلة الانوار ـ لم نجد في الادب المغربي صدى لهذه الموقعة باستثناء ما اتى عرضا في قصيدة لعبد العزيز الفشتالي على حين ان الادب البرتغالي يزخر بترداد ذكرها وقد خرج أهلها منهزمين فكيف لو كانوا منتصرين .

وفي هذه الايام وقفنا على هذه القصيدة البليغة التي نظمها في الموضوع صديقنا الشيخ محمد الامام ابن الشيخ ماء العينين فناسب أن نثبتها في هذا العدد من لسان الدين الذي يسجل مرحلة حاسمة من مراحل الكفاح المغربي وهو ايضا عدد غشت ، الشهر الذي وقعت فيه تلك المعركة الحاسمة .

وها هي هذه :

خليلي مرا بي بوادي المخـــازن
نجدد شكرا بين تلك المواطــــن
مواطن كانت للجهاد مشاهــدا
بهن مياه العز غيـر أواســـن
به وقعة ما زال يسري نسيمهـــا
على بعد عصر وابتعاد الاماكـــن
بايدي رجال شيدوا الدين وارتدوا
رداء من العلياء ضافي المحاسـن
فلم تثنهم عن راحة العز راحـــة
ولا حسو كأس بين شاد وشـــادن
رجال من أبناء المغاربـة الالـــي
هم الناس ان عدت كرام المعــادن
فنشمخ أنفا ثم نطرق بعدهـــا
حياء لفـوت بيننـا وتبايـــن
اولاك حموا اقصى البلاد وانتـــم
مساكين محميون وسط المساكـــن
وما ذاك الا من نتيجة سعيكـــم
ونبذ لدين المصطفى والتهــاون
الم يان للنـوام ان يتيقظـــوا
وان يالموا من حر خدش البرائــن
تظنون سورا من حديد امامكـــم
وما هو الا من ركام الدواخـــن
الاعرق للمجد المؤثـل نابـــض
فينهض منا قاطن اثـر ظاعـــن
نجدد رسم الدين بعد اندثـــاره
ونسمك من بنيانـه المتطامـــن
فنرعى رياض العز من كـل قـــارة
ونترك للبيقور مرعى الدواجـــن
فان انتم راجعتم نهـج دينكـــم
أثرتم دفين العز من كل كامـــن
واحرزتم من ارثكم كـل غابـــر
وحركتم من مجدكم كل ساكـــن
وان انتم استحليتم الـذل مرتعـا
وآلفتم شرب المياه الاواجـــن
وقلتم مقال العجز فى الياس راحة
فتصليم آذان وجـدع مـــوارن

* * *

بعد كتابة ما تقدم نشره بنحو سنة ، وقفـت عند الاخ الاستاذ محمد المختار السوسي على قصيدة فى معركة وادي المخازن للشيخ داود بن عبد المنعم الدغوغي . ممن عاش اواخر القرن العاشر وتوفـي أوائل الحادي عشر . اي انه عاصر الوقعة ، وربمـا كان ممن حضرها . وهذا ما تؤكده القصيدة التـي وصف فيها المعركة وصف شاهد عيان . والغريـب ان هذه القصيدة من وزن قصيدة الشيخ محمد الامام وقافيتها ، فمن الجائز أن صديقنا اطلـع على قصيدة الدغوغي ونسج على منوالها . والمهم هو أننا وجدنا صدى للموقعة الكبرى فى الادب المغربي ، بخلاف ما كنا نظن من خلوه من ذكرها تماما ، وان كانت هـذه الصبابة القليلة لا تروي غليلا ، ولا تشفي عليلا ، وربما كان من بطون الدفاتر وخبايا الخزائن ، آثار اخرى لم نطلع عليها ، وربما ضاع من ذلك أكثر مما بقـي ؛ وربما ... وربما ...

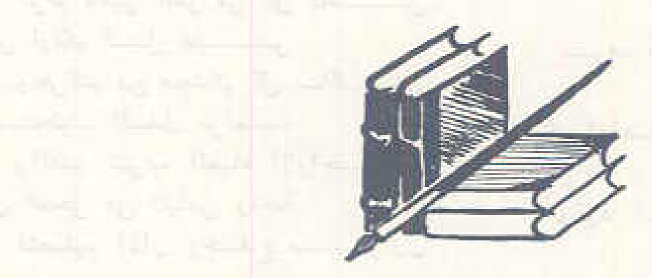
وعلى كل حال فهذه هي القصيدة الاولى التي عرفناها فى هذا الموضوع :

جنى النصر ما بين الظبا والكنائـن
على سابقات المذكيات الصوافـن
فبين المعالي والمآثير فى الوغـى
يجول الذي يبغي اقتحام المدائـن
هي السور من يجتزه حل بساحها
فحل له منها امتلاك الخزائـــن
ومن لم يخض بحر الحروب فلا يرى
لحوزته دون العدا خير صائـــن
ومن لم يخضها بالثبات قرابـــه
يفيل ويمسي حظه جد خائـــن
وماذا يفيد الجيش ان كان ربـــه
كـبيبتيان عند وادي المخـــازن
يقود لها ما يحجب الشمس نقعـه
مياسـره لا تلتقـي بميامـــن
اتى سادرا يختـال فى غلوائـــه
وفى صدره للدين غلي الضغائـــن
يسرب نحـو المغربين جنـــوده
كمثل الدبا عن ماخرات السفائـــن
وما قصاه الا انتهـاك حريمـــه
ودك صياصيه وبعث الدفائـــن
وقود أساري المسلمين لارضـــه
يقدمهم للصلب مثـل القرائـــن
ولهو بأبكار الخـدور بناتنـــا
فيصبحن مـن خدامه والســوادن
فذا مكره ، والله يمكـر مكـــره
به ، اذا حداه نحو تلـك الاماكـــن
فخيم فى تلك الجهات وعينـــه
لمراكش الحمـراء لا لتطـــاون

ولكنه مـــع حفلـــه بمدافـــــع
وبيض وسمر وامتلاء الكنائـــــن
تخلف ربط الجاش عنه فـــــرده
على خزيه صفرا ولو من فراســن
تجمع جند الله من كـــل وجهـــة
وقد غص من مدينه كل دائـــــن
من الملك المقدام فالعلمـــاء فـــا
الشيخ اولى التقوى واهل البواطن
وتلوهم الاجناد والناس كلهـــم
تضل بهم ابصار كـــل معايــــن
فشبت لظى الهيجـاء ليس وقودها
سوى انفس الشجعان وسط الميادن
اذا ارعدت تلك المدافـــع أبرقـت
صقيلات بيض الهند فوق اليمائـن
فلولا البروق الخاطفات من الظبـــا
لما ابصرت عين خلال المداخـــن
قد انقضت الفرسان منـا عليهـــم
انقضاض صقور الجو فوق الوراشن
وصابر كل قرنه فمجندل الثـــ
ـــرى وجريح ساحب للمصـــارن

وهامهم مثل الكرين وقـد غـــدت
سنابك خيل الله مثـل المحاجـــن
وسيبستبان كفنتـــه مياهـــــه
هزيما ، وماء النهر افظع كافـــن
فحين قضى البتار فى الكفر ما قضى
واشلاؤه نتـــن بغير مدافـــن
رايت الوفا من رؤوس تجمعـــت
ويا ليتها ايضا جـدار المـــآذن
هنالك نصر المومنيـن مـــؤزرا
على كل ذي كفر ، تهجم ، ضاغـــن
فذلك يوم مثل بـــدر وصنــــوه
حنين بأيدي المومنين الميامــــن
لقد ذاق فيه البردقيز بنا الـــردى
جزاء مناحيـس خزايـــا ملاعـــن
بغوا فجنوا جنى البغاة فأصبحـوا
سماد الفيافي لاسمـاد الفـــدادن
فللثكل ما كان الهزيـم لارضـــه
وللصقر من ذاقوا الردى والشواهن
فنحمد رب العرش اذا كان ديننـــا
لاهل الوغى والبأس خير المعـــادن

(*) نشر هذا المقال فى غشت 1952 بمجلة الانوار
(*) هـــو العدد الصادر فى غشــت 1955 .



إحتلال البرتغاليين للثغور المغربية الذي أدى الى موقعة وادي المخازن.

للأستاذ محمد الفاسي

كان سكان مدينة سبتة آمنين فى بلدهم لما صحبهم يوم الخميس 15 جمادى الثانية سنة 818هـ. (21 غشت 1415) جيش عرمرم يقوده ملك البرتغال جان الاول وقد ضمت هذه العساكر اثنين واربعين ومائتي سفينة كانت قد اقلعت من الاشبونة اربعة اسابيع قبل ذلك ولم يشاهد الاشبونيون قط فى تاريخهم مثل هذا العدد الضخم من المراكب يخرج من مرساهم وهذه العساكر جاءت تغزوا المسلمين فى عقر دارهم بعد أن تم اخراجهم من الجزيرة الاندلسية. وكانت هذه الحملة الصليبية الهائلة على البلاد المغربية اول محاولة استعمارية قامت بها المسيحية فى غرب العالم الاسلامي واول هجوم توسعي حققته المملكة البرتغالية الناشئة . وقد كان جان الاول هذا مؤسس اول دولة فى البرتغال استطاعت أن تتخلص من نفوذ قشتالة وان تستقل استقلالا تاما بعد ما قضى على النفوذ الاسلامي بكل النواحي التي تكونت منها المملكة البرتغالية . وكان لجان الاول هذا مطامح لا حد لها وكان يرى مع كل الامم النصرانية أن العدو الاول هو الاسلام ، وانه يجب القضاء عليه قضاء مبرما لا فى الجزيرة فقط ولكن فى افريقيا كذلك أولا ثم فى الشرق ثانيا ، وكانت الامم الاسلامية لسوء الحظ قد دخلت فى هذه الحقبة فى طور تأخر وتدهور وانحلال يتعجب الباحثون من كونها مع ذلك طاولت الدهر وصمدت فى وجه كل الاعتداءات التي اعقبت هذه الحملة وبقيت موجودة ولم تمح من التاريخ كما امحت من قبل مدنيات ... وامبراطوريات كانت قوية عتيدة وحاق بها الفناء . وكان من المنتظر أن يتجه جان الاول فى تنفيذ خطته الى مملكة غرناطة الاسلامية اولا الا انه خشي ان تتهمه قشتالة بمحاولة الاستيلاء على ما هو من حقها فلذلك لم يبق له الا أن يوجه مطامعه نحو المغرب ونحو سبتة بالذات لانها المرسى الذي اقلعت منه سفن المسلمين لغزو الاندلس والذي لا تزال تقلع منه قوات المدد التي كان يوجهها المغرب لاعانة مسلمي غرناطة ولانها مرفأ مهم يساعد مملكة البرتغال على توسيع تجارتها نحو مدن ايطاليا المزدهرة اذ ذاك ، فهو وسط بينها وبين مرسى الاشبونة اذ ان المطامع الاقتصادية كانت تتلازم مع النعرة الدينية وحب الانتقام من المسلمين . وقد نجح جان الاول فى هذه المحاولة الاولى لانه استطاع ان يضمن لها الكتمان التام عند استعداداته لهذا الهجوم . حتى أن الجنود عند مغادرتهم الاشبونة لم يكونوا يعرفون أين يقصدون بالضبط وقد كان الملك ومستشاروه المطلعون على السر يشيعون اخبارا باطلة عن الناحية التي يقصدونها وكانت هذه المفاجأة فى الهجوم على سبتة العامل الاول فى تسهيل الاستيلاء عليها . ورغم استماتة اهلها فى الدفاع عن حوزتهم فان البرتغاليين استطاعوا أن يلجوا المدينة من احد ابوابها . وهناك فى شوارع المدينة الضيقة وقعت مقتلة شنيعة اذ لم يفكر احد من المغاربة فى الفرار وما غربت شمس ذلك اليوم المشؤوم حتى خلت سبتة من سكانها وصارت مدينة برتغالية . قال احد المؤرخين البرتغاليين عند ذكر هذه

● نشر هذا المقال فى العدد 9 ـ السنة 3 من مجلة « البحث العلمي » .

الحوادث : « ومن ذلك اليوم لم تعد مغربية الى الآن، وان الاستيلاء عليها حادث عظيم يعتبر ابتداء لعهد الفتوحات وهو أولى بأن تؤرخ به العصور الحديثة من ان تؤرخ بسقوط القسطنطينية في يد المسلمين»(1).

وقد كان كذلك بالنسبة لاوربا فمنذ هذا التاريخ والهجومات الصليبية والاستعمارية تتوالى لا على المغرب العربي الاسلامي فحسب ولكن كذلك على بلاد الخليج العربي شرقا ، بل وعلى كل بلاد آسيا وامريكا بعد اكتشافها ، وبالنسبة للبرتغال فان عظمته الاستعمارية بدات من هذه السنة ، ومنذ هذا التاريخ والمغرب واقف في وجه هذا التحدي ، يحاول رد الغزو الاوربي وايقاف قواته بالاقل في الشواطىء ريثما يستطيع اخراجه من كل التراب المغربي نهائيا. وقد كانت لهجومات البرتغاليين على بلادنا نتائج متنوعة كانت من اسباب تاخرنا وعدم مسايرتنا للنهضة العامة التي شملت بلاد أوربا والتي استمدت عناصرها من الحضارة العربية الاسلامية ولكننا لم نستطع اذ ذاك المساهمة فيها لاننا كنا مشتغلين بالمحافظة على كياننا واستقلالنا تجاه هجمات الامم الغربية من برتغاليين واسبانيين وانكليز وغيرهم . وكانت اكثر هذه الامم تكالبا على البلاد البرتغال اتباعا للسياسة التي اختطها جان الاول من وجوب التوسع في المغرب واثبات حكم الصليب في كل انحائه . قال المؤرخ المذكور سابقا وهو ضابط برتغالي كبير يدعى فاسكو دي كارفالو في محاضرة القاها على الطلبة الضباط في المدرسة الحربية الفرنسية بباريس سنة 1934 : في معرض كلامه على غزو سبتة : « كان شباب البرتغال يتحرقون على القتال .. ولكن ضد من ؟ اين يجدون العدو ؟ اذ اننا من جهة قد عقدنا الصلح مع قشتالة ، ومن جهة اخرى يواجهنا البحر . ولكن بمقتضى تقاليدنا وديننا ومصلحتنا فان العدو لا يزال هو المسلم ، فاذا كان قد التجأ الى ما وراء البحار فيجب أن نذهب للبحث عليه هناك ، يجب أن نطارد الوحش في مكمنه » (2) ، ويختم هذا الفصل بقوله : « وهكذا في الوقت الذي ضعفت فيه الروح الصليبية في كل أوربا فانها اخذت تنتعش بالبرتغال » (3) .

واتباعا لهذه الخطة اخذت الحملات البرتغالية تتوالى على المغرب وكانت الغاية منها تركيز السيطرة المسيحية في ارجائه لتسهيل مهاجمة الشرق من جهة البحر وبتاتى هكذا « ضرب الاسلام في ظهره » على حد تعبير فاسكو دي كارفالو السابق الذكر (4).

ومن هذا التاريخ والمغرب يكابد الشدائد من جراء هذه السياسة الظالمة المتهورة والفاشلة مع ذلك اذ رغم استيلاء البرتغاليين على القصر الصغير (1458) وعلى اصيلة (1471) وطنجة (1471) واكادير (1505) والصويرة (1506) وآسفي (1508) وازمور (1513) والجديدة (1514) ، فانهم لم يستطيعوا قط أن يربطوا بين هذه الممتلكات ولا أن يمدوا نفوذهم الى داخل البلاد ، لان رد الفعل عند المغاربة كان قويا ، والفضل في ذلك يرجع الى الروح الدينية الوطنية التي استطاع المؤمنون المخلصون ان ينفخوها في نفوس المسلمين ، فقامت في البلاد حركة صوفية واسعة النطاق واقبل زعماؤها على تنظيمها وتوجيهها نحو مقاومة العدو وشن الغارات على مراكزه واقلاق راحتها . فكانت الحرب طيلة القرنين التاسع والعاشر الهجريين لا تفتر بين المغاربة خصوصا المجاورين منهم للثغور المحتلة وبين البرتغاليين . وتفصيل الكلام عن هذه الوقائع يطول ولكن ينبغي ان نشير الى بعض مراحل هذه المقاومة الطويلة والتي لم تنته بعد ما دام شبر من اراضينا تحت النفوذ الاجنبي ، وانها لمسبة ما بعدها مسبة ان تظل مدن واراض مغربية مفصولة عن الوطن وان كنا نود ان نصل الى تحريرها بالطرق السلمية لاننا في عصر نومن فيه بمبادىء السلام والاخوة البشرية.

لما مر قرن على غزو سبتة كان النفوذ البرتغالي بلغ أقصى مداه في بلادنا مع العلم ان نفس هذه التحركات اخذت تتجه نحو بلاد الخليج العربي انطلاقا من بلاد الهند ، وهكذا نرى امانويل الاول ملك البرتغال يقرر في سنة 1505 م القضاء على سيطرة الدول العربية التجارية ... عن طريق احتلال عدن وهرمز. وفي سنة 1507 وصل القائد البرتغالي الفونسو دي البوكيرك الى قلهات على ساحل عمان ، ومن هذا

---

(1) فاسكو دي كارفالو
Vascocarbalo, la Domination Portuguese au Maroc Lisbonne 1936 P.17

(2) المرجع قبله ص. 13 .

(3) نفس المرجع ص. 15 .

(4) نفس المرجع ص. 19 .

التاريخ والبرتغاليون يشنون الغارات على سواحل الخليج العربي ويحتلون أماكن منه ويضطرهم الوطنيون الى الانسحاب احيانا ثم يرجعون وقد استفحل امرهم في الثلث الاول من القرن السادس عشر حتى أنهم شنوا غارة على البصرة سنة 1529 وصعدوا في نهري دجلة والفرات ثم انقلبوا راجعين لما لاقوه من المقاومة واحرقوا مدينتين في طريق عودتهم ، وكان للاتراك معهم في كل هذه الحقبة حروب توصلوا اثناءها الى الهجوم على مواقعهم بالهند .

هذا في المشرق ، واما في المغرب فبعد احتلال كل تلك الثغور على البحر الابيض المتوسط وعلى المحيط الاطلسي وقع رد فعل قوي وتمكن الوعي الوطني من نفوس المغاربة وبدات تظهر بوادر الانتعاش . فاننا نرى مثلا ان البرتغاليين عندما احتلوا مرسى ازمور عم في البلاد استياء عميق اضطر ملك المغرب الوطاسي ان يقوم بحملة لمحاربة استرجاعها واخذ يوالي الهجمات عليها بعد ان طوقها بحصار جعل الحياة صعبة على البرتغاليين بداخلها . فعند ذلك قرروا ان يوسعوا نفوذهم من جهة الشمال حتى يتاتى لهم احتلال حوض نهر سبو ليفتحوا لهم الطريق نحو مدينة فاس عاصمة الدولة المرينية الوطاسية مقدرين أنهم لا يضمن البقاء والتمكن لسيطرتهم على المغرب الا الاستيلاء على قلبه . فعبؤوا جيشا يتركب من ثمانية آلاف مقاتل وجمعوه في مدينة المعمورة المسماة اليوم المهدية على مصب وادي سبو في المحيط الاطلسي حيث بنوا معقلا ليجعلوه المركز الذي تتوجه منه الحملات نحو فاس. ولكن سرعان ما ثارت ثائرة الوطاسيين وجمعوا جيشا يلتهب حماسا واتجهوا به نحو المهدية وشنوا عليها غارة قوية وحاصروها فخرج البرتغاليون للدفاع الا انهم لم يستطيعوا مجابهة اولئك الابطال الذين جاؤوا بنية الموت أو النصر فقتل في تلك المعركة اربعة آلاف من البرتغاليين ، وعند ذلك امر قائد القلعة قومه ان يركبوا السفن الباقية ن الاسطول الذي كان راسيا هناك ، اذ كان المسلمون قد اغرقوا منه بمدافعهم ثمان قطع — وفر البرتغاليون بارواحهم وكان ذلك في شهر يوليوز سنة 1515 .

ومن هذا التاريخ والمغاربة يجدون في استرجاع المراكز المحتلة على الشواطىء ، وساعد على هذه الحركة المباركة قيام الدولة السعدية بمساندة الحركة الدينية التي اشرنا اليها . وقد جعلت هذه الدولة مهمتها تحرير المغرب من النفوذ المسيحي وتوحيد البلاد . وقد كتب لها النجاح في هذه الرسالة المقدسة . وهكذا نرى السعديين يشنون غارة موفقة على اكادير فحرروها بعد قتال عنيف لم يفلت فيه من البرتغاليين الا من أمكنهم الارتماء الى البحر واللجوء الى السفن وكان ذلك يوم 12 مارس سنة 1541 . وكان لهذا النصر صدى عميق في المغرب ثم تلته انتصارات اخرى حيث اضطر البرتغاليون لاخلاء آسفي وأزمور في اوائل سنة 1542 . وجاء دور تحرير مدينة اصيلا في اواخر سنة 1549 والقصر الصغير في صيف سنة 1550 ، ولم يبق بيد البرتغاليين سوى طنجة وسبتة في الشمال والجديدة في الجنوب .

وقد كان لهذه الانهزامات البرتغالية اثر استياء كبير في الاوساط الاستعمارية بالاشبونة وقامت بها حملة دعاية كبيرة لسياسة التوسع يتزعمها الرهبان والعسكريون وكان يطلق عليهم اسم الفريق الافريقي وقاموا يندّدون بالمسؤولين الذين لم يعرفوا كيف يواجهون الحركة الوطنية المغربية والذين فشلوا سياسيا وعسكريا في المغرب .

وقد وجدت هذه الدعاية المنظمة آذانا صاغية عند الشباب المسيحي البرتغالي فالهبت حماسه وكان من أثرها ان الجنود الذين كانوا يوجهون الى المغرب كانوا اكثر استعدادا للصمود في وجه المسلمين الذين كانوا مستمرين في حركة التحرير بايمان صادق وشجاعة واستماتة . فلما قام السلطان السعدي المولى عبد الله الغالب بالله سنة 1562 بحصار الجديدة لتحريرها من طرف البرتغاليين مقاومة شديدة رغم قواته الهائلة والاسلحة التي كان يتوفر عليها الجيش المغربي في ذلك العهد . فاستمات البرتغاليون في الدفاع عن الجديدة وبعد حصار دام خمسة وثمانين يوما اضطر السعديون لرفع هذا الحصار وانتظار ظروف مواتية اخرى . فكان لهذا الحادث في البلاد المسيحية اثر اكبار حتى أن المؤتمر المسيحي الذي كان منعقدا بمدينة طرانط اشاد به بكيفية علنية رسمية . وقد زادت هذه المواقف في غرور شباب البرتغال كما أنها ضاعفت الحماس في نفوس المغاربة . ومن الملاحظ ان هذا الحماس تجلى كذلك في هذه الحقبة في نشاط البرتغاليين في الخليج العربي حيث كبدوا الاتراك هزائم مريرة .

وكان من الهع شباب الاشبونة امير ولد وربي فى هذا الجو الملتهب ، وكان يسمع فى القصر وفى اوساط رجال الدولة الحديث عن الحروب الافريقية وعن شجاعة الابطال البرتغاليين ، كما يصورها شعراؤهم وعلى راسهم الشاعر الكبير كاموانس الذي يعتبر ابنغ شعرائهم ، وقد كان فى نفس الوقت اكثر الناس تحريضا على قتال المسلمين واحتلال بلادهم. وكان سن هذا الامير ايام حصار السعديين للجديدة سنة 1562 اثنتي عشرة سنة .

فلما طلع على عرش الامبراطورية البرتغالية سنتين بعد ذلك وصار الملك دون سبستيان وجد نفسه على راس اعظم دولة فى ذلك العصر يمتد نفوذها على اراض واسعة فى كل قارات الدنيا . فصار يحلم بامتلاك الدنيا كلها وباحتلال كل اراضي الاسلام والقضاء عليه واستخلاص الاماكن المقدسة المسيحية فى المشرق من يد المسلمين . فبدا اولا بتنفيذ سياسة الفريق الافريقي من امداد المراكز البرتغالية فى المغرب بالرجال والسلاح وفكرة تنظيم حرب صليبية تستولى على فكرة وتتمكن منه لدرجة ان التهيا لها استحوذ على كل مشاعره وصار شغله الشاغل سنين عديدة .

فاخذ يدعو لها واتصل بخاله ملك اسبانيا فيلبي الثاني يدعوه للمشاركة فى هذه الحملة ويظهر له مزاياها اذ بالقضاء على المملكة المغربية يزول الخطر الذي يهدد دائما اسبانيا لان الاندلسيين الذين نزحوا الى المغرب لا زالوا يفكرون فى الرجوع الى وطنهم فاذا ما تقوت الدولة السعدية امكنها بمساندة الدولة العثمانية العتيدة ان تعيد الكرة على الجزيرة الاندلسية الى غير ذلك من الحجج لاقناعه بضرورة القيام بالحملة الصليبية التي يتزعمها ويعمل لها .

وفى هذه الاثناء كانت الاحوال السياسية فى المغرب مضطربة اذ بعد ما توفي الغالب بالله سنة 1574 بويع ابنه محمد ،وكان ابن امة ولقب نفسه المتوكل على الله وان كان لا يذكر عند المؤرخين الا بالمسلوخ ، وكان فظا غليظا ذا شره عظيم مستبدا ظالما فعمد وال ما طلع على العرش الى قتل اثنين من اخوته وامر بسجن آخر فكرهته الرعية وكان عمه

عبد الملك يرى نفسه اولى بالملك منه لماكان عليه من السجايا الحميدة والشجاعة والعلم . ونظرا للتقاليد السعدية التي تجعل الملك يؤول الى اكبر الامراء سنا. وكان له اطلاع واسع على الاحوال السياسية العالمية وكان يتقن عدة لغات اوربية وشرقية اذ كان فى شبابه قضى مدة طويلة باسطنبول . فلما راى ما عليه ابن اخيه من التدهور والاستبداد سعى الى الاستنجاد بالدولة العثمانية ، وقد كان توجه مع والدته الحرة سحابة الرحمانية واخيه مولاي احمد الى الجزائر عند واليها الباشا حسن بن خير الدين فاكرم وفادته واعجب بعقله وشهامته ويقال انه زوجه ابنته ووعده باقناع الخليفة العثماني بمساعدته وهيا له الاسباب للسفر مع والدته الى الاستانة . وكانت الخلافة العثمانية آنذاك تهيىء حملة عظيمة لتخليص تونس من السيطرة الاسبانية . وقد قوبل الامير المغربي بحفاوة كبير من لدن الخليفة العثماني مراد الثالث . ولما راى مولاي عبد الملك الحماس العام السائد اذ ذاك فى البلاد التركية خصوصا بعد الهزيمة البحرية التي كان مني بها العثمانيون فى موقعة ليبانت سنة 1571 وقد صمموا على اخذ الثار من عدوهم واعدوا ما استطاعوا من قوة لنيل النصر فى تونس ، طلب من الخليفة ان يشارك فى هذه الحملة فاذن له . ولما اقلعت السفن من القسطنطينية قاصدة افريقيا كان الامير المغربي من جملة قوادها تحت القيادة العامة لسنان باشا . وقد كتب لهذه الحملة نصر مبين شارك فى فضله مولاي عبد الملك بشجاعته ومقدرته العسكرية وقد طير الخبر لوالدته فكانت اول من ابلغ الخليفة نبا هذا الحادث السار العظيم قبل ان يصله من الطرق الرسمية . وقد كنت فصلت خبر هذه المعركة المعروفة فى التاريخ بموقعة حلق الوادي فى بحث نشرته فى مجلة (آفاق) (5) .

وعند رجوع مولاي عبد الملك الى اسطنبول وجد استعدادا طيبا عند الخليفة العثماني لمساعدته فى اخذ ملك اجداده فامر واليه فى الجزائر علج علي ان يمده بما يحتاج اليه من عساكر ومؤن . فرجع الى افريقيا واخذ يستعد للتوجه الى المغرب ، وتم ذلك فى اوائل سنة 1576 ولم يلاق فى طريقه اية مقاومة لان

---

(5) انظر : محمد الفاسي ، انقاذ تونس من الاسبان فى اواخر القرن العاشر الهجري فى مجلة آفاق العدد الثالث ، الرباط ، يوليه — غشت — شتنبر 1963 ، ص. 7 — 21 .

الشعب كان قد مل حكم محمد المسلوخ . ولما بلغ هذا الاخير خبر وصول عمه الى قريب من فاس خرج فى جماعة من جنوده لملاقاته فوقع تناوش بين العسكرين ولكن سرعان ما انضم جماعة الاندلسيين الى مولاي عبد الملك وخذل المسلوخ أحد وزراء فما وسعه الا ان يفر بنفسه . وهكذا تسنى لمولاي عبد الملك الدخول الى فاس يوم 31 مارس سنة 1576 فتلقاه اهلها وعلماؤها واعيانها بفرح عظيم لانهم كانوا يحبونه ويتيمنون بطالعه ، وقد كانت بلغتهم أخبار بلائه فى موقعة حلق الوادي . اما محمد المسلوخ فقد توجه الى الجنوب فتبعته جيوش مولاي عبد الملك واوقعت به هزيمة على وادي الشراط ولكن استطاع ان يفر مرة أخرى فالتجأ الى مراكش فكلف مولاي عبد الملك اخاه أبا العباس احمد الذي سيلقب بعد موقعة وادي المخازن بالمنصور لذلك يعرف فى التاريخ بهذا اللقب بمطاردة محمد المسلوخ والقبض عليه ، فتوصل الى اخراجه من عاصمة الجنوب ولكنه رجع مع جماعة من الصعاليك وبمداخله من بعض اهل مراكش فاحتلها من جديد. ولكن المنصور استطاع ازاحته عنها مرة أخرى فهرب الى الشمال وطلب من والي مدينة بادس الاسباني أن يسهل عليه الالتجاء اليها فاستشار ملكه فيلبي الثاني فاذن له بشرط ان لا يصحب معه أكثر من عشرة أشخاص من أفراد عائلته .

اما مولاي عبد الملك فانه بعد أن تمهدت له البلاد عين اخاه المنصور خليفة له بفاس واخذ ينظر فى شؤون المغرب الاقتصادية والعسكرية اذ كانت الخزينة فارغة والجيش منعدما ، وكان فى امكانه ان يفرض ضرائب جديدة على الشعب الا انه رأى ان هذه الوسيلة تؤدي الى ضعف الدولة وافتقارها أكثر ما تساعد على تنمية اقتصادها . ولذلك اتجه الى الوسائل البناءة : فرأى فى البحرية اكبر مورد للمال فأمر بتجديد السفن وصنع مراكب جديدة فانتعشت بذلك الصناعات واخذت الحركات التجارية البحرية مع ما يتبعها من الاستيلاء على مراكب الاعداء — لان المغرب كان فى حرب دائمة مع النصارى المجاورين له والمحتلين لبعض مدنه ومراسيه — تدر على الخزينة الموارد الضخمة التي ساعدت ولاي عبد الملك على تجديد معالم الدولة وتأسيس قوات عسكرية منظمة ، وقد اتبع النظام التركي فى أساليبها ولباسها وسلاحها ورواتبها فى القيادة . وكل ذلك فى مدة قصيرة جدا . ولا نستطيع فى هذه العجالة أن نفصل كل الاعمال التي قام بها هذا الملك العظيم فى سائر الميادين ، وانما اردنا أن نعطي نظرة موجزة عن مواهبه فى تسيير الملك وتيسير أسباب الرفاهية والعزة لشعبه .

وينبغي هنا أن ننبه كذلك على ما كان يتمتع به من سمعة طيبة عند الاوربيين ، وقد اجمع مؤرخوهم المعاصرون له والذين جاؤوا بعدهم على الثناء عليه . من ذلك ما ذكره فى تاريخه العام الشاعر الفرنسي أكريبا دوبيني ، وكان معاصرا لهذه الاحداث ، وقد خصص فيه جزءا لتاريخ معركة وادي المخازن . قال : « كان عبد الملك جميل الوجه بل اجمل قومه وكان فكره نيرا طبيعة ، وكان يحسن اللغات الاسبانية والايطالية والارمنية والصقلية (اى الروسية) وكان شاعرا مجيدا فى اللغة العربية ، وباختصار فان معارفه لو كانت عند امير من امرائنا لقلنا ان هذا أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل فاحرى لملك » (6) .

هذا هو البطل الفذ الذي انقذ المغرب من الدمار وبالتالي كل العالم العربي ، اذ مطامع ملك البرتغال دون سبستيان الذي لقي حتفه فى معركة وادي المخازن لم تكن تقف عند حد ، وكانت غايته بالهجوم على المغرب بتلك القوى الهائلة أن يدوخه ويتقدم الى باقي بلاد المغرب العربي حتى يصل منها الى مصر ثم بلاد الشام ليخلص قبر سيدنا عيسى فى زعمه من السيطرة الاسلامية . ولكن هذه المطامع كلها حطمت بأيدي المجاهدين المخلصين وبشجاعة مولاي عبد الملك ودهائه السياسي وايمانه وبمعاضدة القوى الشعبية التي كان يتزعمها شيخ الحركة الشاذلية الجزولية أبو المحاسن يوسف الفاسي ، وقد شارك معه فى المعركة من اصحابه خمسون الفا واستشهد من بينهم جماعة اخذ منهم الشيخ سبعة شهداء ونقل جثتهم الطاهرة الى فاس ودفنهم فى قبة قرب المحل الذي كان خصص لدفنه ويطلق عليهم الى الآن اسم سبعة رجال . وهذه القبة لا تزال قائمة خارج باب الفتوح فى مقابر القبب .

---

(6) انظر : مجموعة « مصادر تاريخ المغرب » لهانري دي كاستر

Hlinry de Castères, Source Indétes de l'Histoire du Maroc.

ومن عجائب المقارنات واعادة التاريخ لنفسه ما حدث فى عصرنا فان خيانة السلطان المزيف محمد ابن عرفة الذي نصبه الفرنسيون هي أشبه شيء بخيانة محمد المسلوخ بالتجائه الى البرتغاليين. وصمود الملك الشرعي والبطل المجاهد محمد الخامس فى وجه الاستعمار الفرنسي هو نفسه صمود الملك الصنديد مولاي عبد الملك فى وجه الاستعمار البرتغالي. وقيام القوى الشعبية المتمثلة فى حزب الاستقلال بقيادة زعيمه علال الفاسي لمناصرة السلطان الشرعي الملك العظيم محمد الخامس وارجاعه الى عرشه وتحقيق استقلال بلاده هو نفس قيام القوى الشعبية المتمثلة فى الحركة الجزولية الشاذلية بقيادة زعيمها الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي جد الزعيم علال الفاسي، للوقوف بجانب مولاي عبد الملك والجهاد معه ضد العدوان البرتغالي.

ومساندة الصوفي ابن عسكر للمسلوخ واسياده البرتغاليين حتى أنه قتل معهم فى معركة وادي المخازن هي نفس مساندة رئيس الطرقيين عبد الحي الكتاني لصنيعة الفرنسيين ابن عرفة حتى أنهما توفيا كلاهما فى دار الغربة.

ان هزيمة البرتغاليين على يد المغاربة يوم الاثنين متم جمادى الثانية سنة 986 هـ، 4 غشت سنة 1578 م على ضفاف وادي المخازن خلصت المغرب من خطر الاستعمار المسيحي البغيض واوقفت حركة التوسع الصليبي ضد الاسلام واراضي المسلمين بكيفية نهائية.

محمد الفاسي

وقعة وادي المخازن بدون رقابة

للدكتور عبد الهادي التازي

قبل ثلاثين سنة فكر الكتاب المغاربة فى الدعوة لاقامة مهرجان وطني بمناسبة ذكرى وقعة وادي المخازن ... تذكيراً بماض لهم مجيد يذكر المواطنين والمحتلين معا بتاريخ الامس ، ولكن صدر « الرقابة » كان يضيق ايضا بمثل تلك الدعوات،وقد رايت ان اعيد هنا فى (دعوة الحق) النص الكامل بدون رقابة لمقال لي صدر بمجلة رسالة المغرب فى عددها ليوم 28 مارس 1949 ولكنه مقال تصرف فيه المقص وعوضت كلمة (رقابة) الجمل المتعلقة بالعظة من الذكرى والدعوة للمهرجان .

د. عبد الهادي التازي

فى منسلخ جمادى الاولى من سنة 986 على قرب من القصر الكبير بمكان يدعى (وادي المخازن) كانت هذه المعركة الحاسمة فى تاريخ المغرب السياسي ..

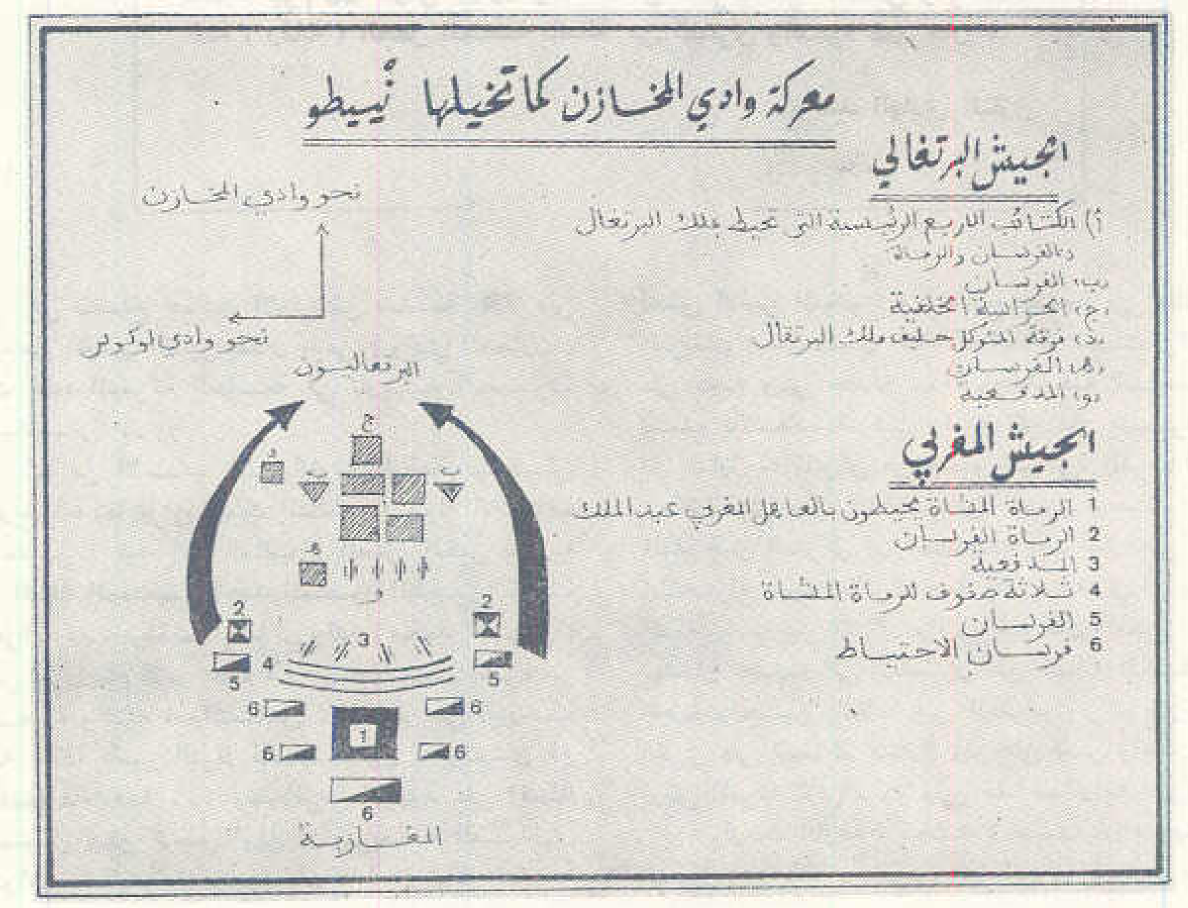
اما عن الاسباب التي اثارت الوقعة فيحكي التاريخ انه لما توفي الملك الثالث من دولة الاشراف السعديين (عبد الله الغالب) اتصل الخبر باخويه عبد الملك المعتصم واحمد المنصور اللذين كانا بالجزائر ... وبلغهما ايضا أن ولده (محمد المتوكل) قبض على زمام الامر بعده ، وكان هذا يتسم بشيء من العسف ، والتيه ، والتساهل ... نعم نمي اليهما شانه فلاذا بامير الترك باسطمبول . وكان ان حالفهما فامدهما ... وتضافرت الجهود على اقصاء (المتوكل) عن كرسي أولى أن يتربعه العدل ، المتواضع ، المتريث ... وكان هذا بلا شك داعية لحنق الامير المخلوع ، فتطارح بطنجة على طاغية البرتغال (سبستيان SEBASTIAN مستنصرا به على عميه وبني جلدته .. ! ووجد فيه استعدادا للتمتع بالاسلاب فأرضى رغبته لكن على شرط ان ان يتنازل له المتوكل عن جميع شواطىء المغرب !!... وهكذا نرى حب الذات يعمي العيون ويصم الآذان فلقد خيل للمتوكل ان استنجاده بالبرتغال على قياس استصراخ عميه بالاتراك وما كان يدري ان بين المقامين ما بين الثرى والثريا ؟؟، فان العمين كانا يهدفان بطلبهما الى الاطمئنان على هذه البلاد من ناحية وتحسين العلاقة بين المغرب وتركيا من ناحية اخرى على انهما لم يتنازلا ولو على شبر واحد من ارض المغرب للاتراك .. واين هذا مما رامه المتوكل ؟ !

وازفت الازفة : فحشد (سبستيان) جيشا كثيفا يناهز مائة وعشرين الفا الى ما يلزم هذا

الجحفل من المعدات الماحقة ! ورأى المخلوع ان من سداد الرأي ان يتعجل برسالة يبعث بها الى أعيان المغرب يخدر فيها أعصابهم ، ويفت في عضدهم ويبعث في نفوسهم الخوف والهلع ، ويتوعدهم مشيرا بما سماه « المسوغات » التي حملته على الالتجاء الى حماية الاجنبي لكن علماء الدين تولوا اجابته في أخرى منددة ودامغة لمبرراته التي كانت أشبه بخطوط العنكبوت ! وعلى اثر هذا الرد نادى المعتصم :

« ان اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله »! ولم يكن عند المسلمين أحلى من الاستشهاد ، فتسارعوا الى تلبية النداء وضمت الساحة نحوا من ثلاثين الف مجاهد ، أي ربع جيش العدو ! ورأى عبد الملك ـ وكان قد زاول دروسه العسكرية والسياسية لما شارك الاتراك في تأديبهم للاسبانيين بتونس ـ رأى ان الواجب يفرض ان يعزل العدو عن اسطوله بالشاطىء فدبر لذلك مكيدة هائلة فكتب الى ملك البرتغال « لقد قطعنا اليك مراحل فهلا تفضلت باجتياز مرحلة واحدة الينا ؟ ونادى الطاغية حتفه فأمر جيوشه بالتقدم الى ساحة وادي المخازن ولما وصلوا وجلوا الجيش المغربي نازلا في جهة تبعد عن الوادي قليلا فأصدر أمره لجنوده مرة أخرى ان اعبروا الوادي ، وبمجرد ما اجتازوا النهر أمر عبد الملك بهدم جسر الوادي ثم أذن للجيوش بالزحف وكان آنئذ يصارع مرضا هاجمه لم يلبث معه أن أخذ ينازع سكرات الموت بنفس الثابت المؤمن وأومأ لحاجبه رضوان ان يكتم موت عبد الملك . . . وأسلم الروح لخالقها في جلبة الحرب وطلقات المدافع وكان الحاجب بصيرا فلم يتجاوز الخبر شفتيه وطفق يستوحي الاوامر من محفة الشهيد .

« ان السلطان يأمر فلانا بالتزام هذا المنفذ وفلانا بالاستطلاع على أحوال العدو وفلانا باعتناق الراية ! وتعالت أصوات المجاهدين بالآية الكريمة : « ان الله اشترى من المومنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » واحتدمت نار المعركة : هؤلاء يطاردون عدوا لدودا حدثته نفسه باكتساح أراضيهم واستئصال بناء مجدهم فهم يرون في الموت أمامه راحة وفي الظفر عليه فوزا . . . وأولئك يقاومون بدافع الطمع الصريح والجور المبين ! وكان حقا على رب العزة أن ينصر عباده المومنين فقذف في قلوب الذين كفروا الرعب . !



وركب المسلمون اكتاف العـدو ... وولـى البرتغاليون الادبار قاصدين القنطرة ! لكن وجدوهـا انقاضا ورميما ! فازدادت الحيرة ! وضعفت الروح المعنوية ! وضاقت بهم الارض ... فأخذوا يلقون بانفسهم في النهر !! مفضلين الغـرق على الطعـن بالخنجر ! لكنهم كانوا يجمعون بين القتلتين !! اذ كان المسلمون يهوون عليهم بسيوفهم فـي القفا وهـم يعبرون الوادي ، فينقعونهم في مريج من الماء والدم !

وكان نصيب « سبستيان » ملك البرتغال مـن هذه المغامرة ان طارت اليه ضربة من مجاهد غيور احكمت منه الصميم فمات اشنع ميتة ! فـلا يزال البرتغال يرثيه الى الآن !

والتفت المجاهدون للبحث عن المتوكل العميل فوجدوه مجدلا يتشحط في دمه فجعلوا منه امثولة ظلت تفزع كل الخونة والمارقين الذين فضلـوا أن يسخروا ضمائرهم وطاقاتهم للمحتل ممن لم ننفك نراهم الى اليوم يداهنون ويواربون ويدسون !

وبعد ، فقد مرت على هذه الوقعة الى اليـوم اثنتان وثمانون وثلاثمائة سنة فهل لا يكون من واجبنا ان نقيم ذكرى تكون في مستوى هذا الحدث العظيم الذي طوى بامبراطورية بكاملها كانت تريد أن تجعل من المملكة المغربية مستعمرة من مستعمراتها ؟ وهل لا يكون من واجبنا ان نشعر العالم أجمع من خلال هذه التظاهرة ان مغرب اليوم هو مغرب الامس وان ابناءه اليوم هم حفدة رجاله في وقعة وادي المخازن ، وان ملوكه اليوم ابناء عم لملوكه منذ أربعة قرون ... ؟ ستظل وقعة وادي المخازن درسا مزدوجـا يلقـن الخونة والعملاء درسا قاسيا على مر الزمن يذكرهم بالمصير المهول الذي ينتظرهم ، كما انها تدق ناقوس الخطر في آذان المحتلين الذين ما تـزال تحدثهـم نفوسهم ان السطو على السيادة المغربية أمـر في متناول اليـد .



وثيقتان جديدتان

عن ذيول موقعة وادي المخازن

للأستاذ محمد المنوني

خلفت موقعة وادي المخازن مجموعة ـ ولو انها محدودة ـ من الوثائق الرسمية : وطنية وأجنبية، غير ان الوثائق الصادرة عن القاعدة لشعبية ـ في هذه المناسبة ـ لا تزال نادرة ، والمعني بالامر ـ هنا ـ قادة الراي العام المغربي في عصر الموقعة ، وهم بعض العلماء الذين ابتعدوا عن الانحياشات الرسمية ، فكانت لهم رؤية مجردة للاحداث ، استطاعوا بها ان يشاهدوا الوقائع على حقيقتها ، فيصدروا ازاءها الاحكام المنطقية .

وممن كان يمثل هذا الموقف آنذاك ، الشيخ رضوان بن عبد الله الجنوي ثم الفاسي ، وقد عاصر ـ اخريات عمره ـ صدر دولة ابي العباس احمد المنصور السعدي ، الى ان توفي العالم الجنوي عام 991 هـ / 1583 م (1) .

وقد كان نموذجا لامعا في معرفة الحديث النبوي ، والتزام السنة ومجانبة البدعة ، شديد الشكيمة على المنحرفين غير مكترث بهم ، ومن نماذج ذلك انه مر ـ يوما ـ بحاكم فاس وهو يقضي بين الناس ، فتقدم اليه وسأله :

اتعرف (مختصر) ابن الحاجب ؟ فقال لا .

اتعرف (مختصر) خليل ؟ فقال لا .

اتعرف الرسالة (القيروانية) ؟ فقال لا .

فقال له المترجم : وباي شيء تحكم بين الناس؟ لا . والله : لا يحل السكوت على هذا ، فصعد للسلطان واخبره بما راى ، فعزل الحاكم (2) .

* * *

وقد كانت صرامة الشيخ رضوان في مقاومة الانحرافات ، هي الحافز له على مخاطبة العاهل السعدي بالوثيقتين التاليتين .

وهو في الرسالة الاولى يثير انتباه المنصور الذهبي الى بلبلة البرتغاليين بعد انهزامهم في معركة القصر الكبير ، ويلح على انتهاز هذه الفرصة لاسترداد المدائن التي يستولي عليها المنهزمون : طنجة واصيلا وسبتة ، حتى يتجاوب الحكم مع تطلعات الرعية التي تترجمها هذه الرسالة الاولى .

اما الرسالة الثانية فينتقد فيها على العاهل ذاته سياسته في قبول الفداء ـ بالمال ـ للاسرى البرتغاليين ، على حين ان المسلمين والمسلمات بايدي الكفار في غاية العذاب والاهانة ، والفرصة مواتية ان لا يبقى في أيدي الاعداء واحد من هؤلاء المومنين الذين فداؤهم على المسلمين ، وفي الحاح بالغ تحض الرسالة على العمل لفك الاسرى بقدر الجهد .

* * *

(1) ترجمته ومراجعها عند الكتاني « سلوة الانفاس » ج 2 ، ص 257 ـ 262 .

(2) « صفوة من انتشر » للافراني ، ط. ف. ص 7 .

وقبل أن نقدم الرسالتيـــن ، نشيـــر الى ان مصدرهما هي الترجمة الموسعة التي الفهـا ــ في التعريف بالمترجم ــ تلميذه ابو العبـاس احمد بن موسى العرابي الاندلسي ثم الفاســـي ، فجاءت في سفر يحمل اسم « تحفة الاخوان . ومواهب الامتنان، في مناقب سيدي رضوان » ومخطوطتها الاصليـــة مبتورة الطرفين يسيرا ، وهي بالخزانة العامة تحت رقم 154 ك ، حيث ترد الرسالة الاولى : ص 423 ــ 424 ، والثانية : ص 427 ــ 429 ، وهذا نص لها :

الرسالـــة الاولـــى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

الحمد لله ، من عبد الله رضوان بن عبد الله ، الى امير المومنين السلطان ابي العباس احمد بـــن موالينا وساداتنا الشرفاء ، سلام عليكم ورحمة الله ــ تعالى ــ وبركاته .

وبعد : أعاننا الله واياكم على رعاية ودائعه ، وحفظ ما اودعنا من شرائعه ، وثبتنا على حسن القيام به كما امر ، آمين ، فالحمد لله ثم الحمـــد لله على نعمـــه الشاملة ، وعلى ما من به من نصر الاسلام واهلـــه ، وخذلان الكفر واهله ، والظفر منهم ، والتمكن مـــن رقابهم ، اذ لا نعمة اعظـــم من اعزاز الديـــن ، وذل اعدائه الكافرين ، زادكم الله في ذلك حرصا وغبطة ، ولعلكم فيه حتى تصير لكم حرفة وخطة ، اذ كانت حرفة جدكم صلى الله عليه وسلم واصحابه الكرام ، فقد قطعوا الاعمار في قتال الكفار ، وانفقوا الاموال وبذلوا النفوس في رضاء محبوبهم ، ولم يزالوا كذلك حتى استقام الدين ــ ومتبعين وسالكين سنة سيد المرسلين ، رضي الله عنهم أجمعين .

وانتم ــ نصركم الله ــ خذوا في ذلك بغايـــة جهدكم ، ولا تتراخوا عن ما ندبكم اليه المولى تبارك وتعالى ، فان للاسلام صولة لا يقوم لها شيء ، فقـــد قال تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مومنين » ، وقال تعالى : « ولا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم »، والمعية من الله تقتضي النصر على الاعداء والظفـــر بالبغية ، وقال تعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المومنون » .

والى هذا فالله ، الله في الحزم وامضاء العزم ، وهو ما ظهر لرعيتكم من انتهاز هذه الفرصة الممكنة في هذا الوقت ، من الحركة لمدائن الكفار التـــي هـــي طنجة واصيلا وسبتة ، فانهم في هذه الساعـــة في دهش وخزي وخذلان بما أمكن الله منهم ، ولا اظـــن ــ نصركم الله ــ مثل هذا يخفى عليكم حتى نحتاج أن نذكركم بـــه .

وقد بلغني عن بعض الناس ممن تخلف عن هذه الغزوة ، انهم أصابهم اسف وحزن عظيم ، وحرقـــة وندم ، على ما فاتهم من الحضور معكم ، فالحمد لله على عز الاسلام وعز اهله ، وعلى اهانة الكفـــر وذل اهلـــه .

فاقبل وصية من يحب لكم الخير ، ويسأل الله ــ تعالى ــ ان ياجرك في مصيبتك بموت أخيك ، تلقاه الله بالمغفرة والرحمة ، آمين ، ونسأله ــ تعالى ــ أن يسعدك وان يسعد المسلمين بك » .

الرسالـــة الثانيـــة :

« الحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنـــا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

من عبد الله رضوان بن عبـــد الله ، الى أميـــر المسلمين أبي العباس أحمد ابن ساداتنا وموالينـــا الشرفاء ، نصره الله ، سلام عليكـــم ورحمـــة الله ــ تعالى ــ وبركاته .

وبعد : اعاننا الله واياكم على رعاية ودائعـــه ، وحفظ ما اودعنا من شرائعه ، وثبتنا على ذلك حتى نلقاه وهو عنا راض .

فاني احمد اليكم اللـــه الـــذي لا الاه الا هو ، ومرادي ــ ان شاء الله ــ أن ابث لكم ما في باطني من الاحتراق ، فقد قال القائل :

فلا بد من شكوى الى ذوي مروءة
يواسيك او يسليك او يتفجـــع

وهي كيف يمشي هؤلاء الكفار كلهم الى بلادهم ، واخواننا ــ المسلمون ــ بأيديهم في غاية العـــذاب والاهانة ؟ ونحن قادرون على أن يبقى واحد منهم في ايديهم ، وفداؤهم فرض علينا من بيت المال وأموال الناس كلهم حتى لا يبقى واحد ، ففتح الله في هذا

الفتح العظيم ، ومن الله ـ تعالى ـ علينا به ، وحصل فى أيدي المسلمين رؤوس الكفر ، الا وهم يمشـون لبلادهم بالشيء التافه الذي لا حاجة للاسلام بـه ، ويبقى اخواننا واخواتنا بأيديهم ، كأن هـذا الامر سهل ، فلا ـ والله ـ ليس الامر بسهـل ، وانمـا يحاسب على ذلك من قدر عليه ولم يفعله ، كالراعـي والرعية ، فان كان هذا حرصا على المال فان المال بالغرب كثير ، وقبل ان كانت هذه الغنيمة اكنتـم محتاجين (3) اليه ؟ بل كنتم ـ والحمد لله ـ اغنيـاء عنـه .

فالله الله فى فك الاسارى بقدر الجهد ، الـم تعلم ان قسيس النصارى يشتري كبار النصـارى بالشيء القليل ، ويحملهم الى بلادهـم والنـاس ساكتون لا يعبأون بذلك ، انا لله وانا اليه راجعون .

وسمعت أن ابن الدك يقدر يفدى به ما لا يحصى، فالله الله ، ثم الله الله فى هذا الامر ، وانت اقـدر الناس عليه ، والامر الاكيد هو فك الاسارى لله عـز وجل ، « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » .

وقد بلغنا ـ والحمد لله ـ اهتمامكم بامـور الدين ، زادكم الله خيرا ، واعانكم عليه .

والله الله فى الفقيه سيدي سعيد السعيدي ، تعينونه وتأمرونه بما طلبنا منكـم . والسلام عليكم ورحمة الله ـ تعالى ـ وبركاته » .

محمد المنوني

---

(3) فى الاصـل : محتاجـون .

من الوثائق النادرة لمعركة وادي المخازن

تقديم : الدكتور عبد الكريم كريم

استقبل المولى احمد المنصور بضواحي فاس خلال شهر شعبان 986 هـ / اكتوبر 1578 م وفدا اسبانيا ـ برتغاليا حمل اليه خطابا من (فيليب الثاني) ملك اسبانيا يتعلق بجثة (دون سباستيان) ملك البرتغال .

وفي اليوم الثاني من رمضان عام 86 هـ أجاب المنصور ملك اسبانيا بالرسالة التالية التي تحدد الملامح الجديدة للعلاقات المغربية ـ الاسبانية غداة معركة وادي المخازن .

وقد تم العثور على هذه الرسالة ضمن المسودة المخطوطة لترجمان الملك الاسباني الخاص (اللونسو القشتالي Allonso del castillo

التي توجد اليوم بالمكتبة الوطنية بمدريد (رقم 257) .

وفيما يلي نصها الكامل :

استيعاب كتاب بعثه امير المسلمين ابي العباس احمد الحسني الشريف الى مقام سلطاننا الملك المعظم السلطان دون فيليب نصره الله جوابا لكتابه العزيز الذي بعثه في تصريح جثة السلطان المرحوم دون سبستيان نصه :

بعد التسمية والتصلية

من عبد الله المتوكل على الله المعتمد في جميع اموره على كبير حوله امير المومنين ابي العباس أحمد المنصور ابن أمير المومنين المفتقر الى عفوه وفضله ابي عبد الله محمد الشيخ الحسني احسن الله اليه وافاض نعمه ظاهرة وباطنة عليه ، الى السلطان المعظم القدر والشان ذي الاصالة العريقة والمناقب الحسان ملك ملة المسيح وكبيرها ومجيل ومجيل قداح سياستها ومدبرها قطب تلك الدائرة والمختص بمزاياها الفاخرة السلطان دون فيليب ابن السلاطين الكبار المعروفين بجلالة المقدار ادام الله لك الخيرات ووجه اليك وفود السعادة وركائب المسرات . اما بعد حمدا لله مستحق الحمد ومستوجبه مولي الفضل

افتتاح كتاب بعثه أمير
المؤمنين أبو العباس أحمد الحسني
الشريف إلى مقام [illegible]
المعظم السلطان [illegible]

[illegible]

271

عن نباهة ذلك المقام السني أدنى ان تعين وعدل
بكلت شرائك انباسر العنبر والعبير وبعض ذلك
توجد بفكر الرغبة في تحريم جنته الاذكار نور
شيطنا [illegible] وانشائنا [illegible] من نفوح الخير
اذ دونك انبائن بنادما ابقاه [illegible] مالي به
حتى ساحة الاشتياق والاسعد [illegible]
الغائر لتمييز [illegible] الاعفاء والاعتاد
ولم تنسخ نصل المقام الملوكي تحت الترحيب والاكرام
واعلم مكم فيه محولة من الاقبال على الغيب والشاد
ولو توجهت فيما هو اكثر العيب وجب القبول [illegible]
الخير والتيسير عن البعض المقلع والتيسير و
فرجح الاقرار على وهو مشيئة الله واراد به من الرابع
وليس لنا ابرهن سبحانه ويفصيص من رابع و كان
المنتقد ان يتعلق البنيان تلك الازمنة وان لا تغرو
عليه فيه عوامل الحلق لبعضهم حين مسبعا بيد

وبتعرف من تحبيب به ما فوحنا أن يكون فوائد والزهر
الجميل وهواهيه اكثر صرمنه امواج البحر محمولا
رحلته جملته من حصي انور مفصولا ويعرض
ربع الناس هاهي على شرعي العوكب جبو وانتهج
عليه من ليل الحسنات [illegible] امن انال الناس حمله و
ابراعه امور مسنوحة ووكلنا من حقوق رغيب و
تقفيه ورفعه اثرا الفعل الى لا اخر الحلوك من الامر
له والشفوع على مرتبة واذ وصل اذ [illegible]
نحو نهضنا بكرم ورغب لا [illegible]
غطا أو تعنت به وصحي المنشورات من حسن
الصبح انعاذا وانعامي ما لا نغيره نحو الصحن
ولعمان على تلك الشمائل بمكنا عن [illegible]
سلبا فيه الاثره وعا تلتا نا مراحة لعلائكم والتفصيل

ومكسبه والصلاة والسلام على نبينا محمد وكافة الرسول والانبياء بدور الهدي وصفوة الخلق فى الارض وفى السماء فانا كتبناه اليكم كتب الله لنا ولكم خيرا يتجدد ، وتوفيقا يشتد ابرامه ويتأكد من محلتنا السعيدة ومناخ رجال عساكرنا العديدة ؛ ولا ناشىء بفضل الله الا التيسير والاقبال والسعد الصافي السربال وانه وصل الينا خطابك الجليل وكتابك المنطوي على كل جميل فتناولنا بيد الاعتناء بوصوله وجبنا ركائبنا للتعليم والاستقصاء على ابوابه وفصوله فالفينا من بدائع المعاني ونفائسها ما عبر عن نباهة ذلك المقام السلطاني اى تعبير وعطر بطيب شذاه انفاس العنبر والعبير وفى ضمن توجيهكم الرغبة فى تصريح جثة السلطان دون سبستيان واقتنائنا بذلك عندكم من صروح الخير ما يفوق كل بنيان فاهلا بها من غرض ما اوسع له عندنا ساعة الاسعاف والاسعاد واسرع العوارض لتتميمه فى طريق الاقصاء والابعاد فلرغبتكم بهذا المقام العلوي محل الرحب والاكرام واغراضكم فيه محمولة من الاهتبال على الغريب والسنام ولو توجهت فيما هو اكثر للقيت وجه القبول مشرق الجبين والتيسير يمد اليها اليد المطلوب باليمين وقد جرت الاقدار على وفق مشيئة الله وارادته بذلك الواقع وليس لما يقدره سبحانه ويقضيه من مدافع وكان المبتغى ان يتخلص الينا من تلك الازمات وان لا تعدو عليه فيها عوادي المحلات ليظهر حسن صنيعنا فيه ويتعرف من تحفينا به ما نرجو ان يطيه بقوادم الذكر الجميل وخوافيه لكن صدمته أمواج الفتنة مجهولا وجدلته حملتها بين حصى الموت مقتولا وبعد حين رفع الينا من طاف على صرعى المعركة خبره وانه اوقع عليه بين تلك الجثاث نظره فأمرنا فى الساعة بحمله وايداعه صون مستودع ووكلنا به من يحبو فى رعيه وحفظه ويضع اخذا بالفضل التي لا تحيد الملوك عن الاخذ به والسعي على مذهبه واذ وصل كتابك فيه فها نحن سرحناه مكرما ورفعنا لأتمام غرضك فيه علما ولو بعثت فيه وهو حي لنشرنا لك من حسن الصنع اسعادا واسعافا ما لا يعتذره بحول الله طي ولعملنا على تلك الشاكلة فككنا عن خديمكم جوان ذي شلبا قيود الاسر وعاملناه مراعاة لمقامكم بالتسهيل واليسر فاذا تمكنت المحبة ليسرت للاغراض كل حجة فلايمنعكم من أغراض بهذا المقام العلوي مانع فنور الاعتناء بها فى أفق التكرمة ساطع والله يديم لكم الخير ويعرفكم اليمن والسعادة فى الثاني من رمضان المعظم عام ستة وثمانين من الهجرة عرفنا الله خيره وخير ما بعده وكتب فى التاريخ للسلطان المعظم القدر والشأن المتبوىء من الاصالة ارفع مكان السلطان دون فلب عرفه الله عوارف الخيرات .

المكتبة الوطنية بمدريد ـ مخطوط رقم 257

انتصار المغرب في وادي المخازن
أنقذه من حرب صليبية عارمة

للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ظهر عنصر جديد في الافق العربي حيث حاول البرتغاليون الاستعماريون سد البحر الاحمر في وجه السفن العربية على مداخله تمهيدا لغزو الخليج العربي وكانوا قد انشأوا عام 1482 م / 887 هـ في ساحل الذهب اول مستعمرة لهم في افريقيا وهنا يبرز دور المغرب في انقاذ الخليج من ضغط الاستعمار البرتغالي ، ففي عام 1540 م / 947 هـ دخل سليمان القانوني الى الخليج العربي من الشمال ونازل البرتغاليين في معركة ميناء « مصوع » على الساحل الافريقي من البحر الاحمر ، حيث اندحر البرتغاليون أمام الاسطول العثماني غير انهم لم يكفوا عن مهاجمة المراكز العربية في الخليج مضاعفين ضغوطهم على المغرب الذي انكفأوا اليه بعد أن قضوا على آخر من تبقى من العرب في الاندلس تقتيلا وتهجيرا ولكن رد فعل المغرب الاقصى كان عنيفا ، ففي عام 986 هـ (1587 م) هاجم البرتغال بقضه وقضيضه شمال المغرب بقيادة ملكه الشاب الدون سبستيان (Don Sebastien) وكانت هجمة صليبية عززت فيها البابوية الزحف المسيحي على العالم الاسلامي شرقا وغربا باستنفار الدول الكاثوليكية وتعبئة شباب الفاتكان وكانت الحملة لاحتلال المغرب منسقة بقيادة البابا اقتصاصا من الوجود العربي بالاندلس وتعويضا للمسيحية عن فقدان (روديس) وجزء من هنغاريا والبابا (الاسكندر السادس) هو الذي اصدر مرسوم تقسيم العالم الى مناطق نفوذ بين اسبانيا والبرتغال عام 1494 غداة الكشف عن امريكا ولكن ابى الله الا ان يهزم هؤلاء الاحزاب وينصر عباده المؤمنين فقتل ملك البرتغال وأسر جيشه وفر اسطوله .

وتم خلال هذه الفترة اجلاء البرتغاليين عن (منطقة البحرين) التي احتلوها قرنا كاملا عام 1032 هـ / 1622 م اى بعد معركة وادي المخازن باربع واربعين سنة ، كما طرد البرتغاليون من مجموع مستعمراتهم على الشط العربي عام 1059 هـ/1649م وبذلك تحرر العالم العربي من هيمنة البرتغال الذين لطخوا تاريخ العروبة والاسلام طوال اربعة قرون .

واذا كان الخليج العربي قد غدا منذ القرن الثالث الهجري المرحلة الرئيسية في تاريخ الملاحة العربية تمر به المراكب في ذهابها وايابها بين اوروبا والشرق الاقصى عبر البحر الابيض المتوسط فان كلا من الخليج والبحر المتوسط كانا عالة الواحد على الآخر واستمر هذا التساوق الى القرن العاشر الهجري عندما اصبح مضيق جبال طارق هو الممر الفاصل بين المحيط الاطلنطكي والمتوسط فكانت مدينة سبتة منطلق المراكب التجارية الى ديار الهند وظلت كذلك حتى بعد سقوط القسطنطينية في يد السلطان العثماني محمد الثاني عام 857 هـ / 1453م وباستئصال شأفة الغزو البرتغالي في الخليج وتقليص ظلهم في سواحل المغرب شمالا وغربا تمكن العرب من الانتصار في الحرب الصليبية الثانية التي اججت اوربا نيرانها ضد العرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر لتنطلق في حلقات

اخرى من هذه الحرب بقيادة الهولنديين والانجليز والفرنسيين في كل من المغرب والخليج العربي .

واذا اردنا ان نتعرف عن كثب على ما جريات الاحداث التي ادت الى هذا التلاحم العربي بين الخليج والمحيط – وجب أن نستعرض شريط هذه الوقائع فقد تمخضت القسمة الصليبية عن وقوع المغرب في منطقة نفوذ البرتغاليين كرد فعل لاحتلال المغاربة طوال ثلاثمائة سنة وحملات القراصنة الذين اتخذوا من بعض المراسي المغربية ملجأ لاساطيلهم وقد كانت الرغبة في فصل النصرين عن العدوة الجنوبية تمهيدا لتغيبهم من بواعث هذا الاحتلال الذي فتح ايضا منافذ اقتصادية للبرتغاليين باستغلال قموح واصواف وخيول مناطق الجنوب الثرية وكانت قلعة (سانطا كروزا) باكادير قاعدة برتغالية في المحيط الاطلنطكي وقد استغرق البرتغاليون نحوا من ثلاثة ارباع قرن في احتلال مراسي الشمال الى نهر سبو وما يقاربها في ضم مراسي الجنوب من مصب أم الربيع الى السوس وبذلك قبضوا على زمام معظم المرافىء المغربية (عدا سلا وبادس) التي استحالت الى حصون تحت ضغط الغارات الوطنية واقيمت اسقفيات كاثوليكية في سبتة وطنجة وآسفي ولكن هذا الهيكل ما لبث ان تضعضع بسبب الانتفاضات الشعبية التي ساندت تطوان والشاون والعرائش والقصر الكبير غير ان تخاذل بعض القبائل في الجنوب فسح المجال موقتا لحماية برتغالية فعلية ونفوذ اقتصادي خطير من السوس الى درعة ومن اسفي الى الرحمانة وارباض مراكش مما عزز ثورة ثورة السعديين منذ عام 915 هـ بانضمام امراء هنتاتة واحتلال مراكش (930 هـ) حيث حاول ابو عبد الله البرتغالي مواصلة تطويق ابي العباس الاعرج في المدينة ولكنه فوجىء بثورة في الشمال فعاد الى فاس وتوفي بها حوالي 932 هـ وولي بعده اخوه ابو حسون الذي ما لبث أن خلفه احمد بن اخيه محمد البرتغالي وتولى الملك ببيعة اهل فاس (932 هـ) وقد عمل ابو العباس على مهادنة كل من البرتغاليين في الهبط والسعديين في الجنوب بعد وقعة انماى قرب مراكش (935 هـ) ولكن الجماهير ظلت في عراك عنيف مع المسيحيين تبلور في وقائع منها الغزوة التي اججها قرب اصيلا القائد عبد الواحد العروسي (940 هـ) وكذلك في الجنوب حيث انبرى الاعرج السعدي من جديد لمجابهة احمد الوطاسي في ابي عقبة بوادي العبيد بعد ان عقد الوطاسيون الصلح مع البرتغاليين لثلاث سنوات في اسفي والجديدة وازمور وقد تمخضت انتفاضة الجماهير في اعقاب السعديين عن انهزام ابي العباس الوطاسي (943 هـ) وتوالت الاحداث فانتزع محمد الشيخ الملك من اخيه الاعرج وزحف نحو الشمال فاحتل مكناسة (955 هـ) ثم فاسا في السنة التالية واعتقل الامير الوطاسي مع فلول من قومه نقلوا الى الجنوب بينما فر ابو حسون الى الجزائر لاجئا عند الاتراك الذين كان نفوذهم قد بدأ يمتد على طول السواحل الشرقية للبحر المتوسط فساعدوه على استرجاع فاس ولكن محمدا السعدي ما فتىء أن استنفر الحشود العارمة في نفس السنة فهاجم المدينة وقتل ابا حسون (961 هـ) فكان موته نهاية سلسلة من المآسي انقرضت بها الدولة المرينية كما انهارت خلالها معالم (الفردوس المفقود) .

وكان لسقوط الاندلس وغزو البرتغاليين والاسبان لسواحل افريقيا الشمالية رد فعل قوي في نفوس الجماهير التي انتفضت في الحواضر والبوادي للجهاد في معركة صليبية عنيفة اتخذت المغرب مسرحا لها وقد اذكى هذا الاعتداء الروح العسكرية وبغض الاجنبي المغير وتبطنت هذه الوجهة الساذجة باتجاه صوفي جديد نما وترعرع ضمن واحدة شعبية شاملة قاد فورتها العلماء والصوفية والاشراف وقد اصبح اقطاب التصوف في هذه الفترة جهابذة العلوم والفنون وستتبلور الزعامة العلمية خلال القرن الحادي عشر في ثلاثة من قادة الصوفية (1) وانضاف الى ازدهار الثقافة الاسلامية اشعاع روحي جعل من الامة الواعية كتلة متراصة في وجه العدو .

وفي هذا الخضم العارم انبرى السعديون لقيادة الثورة تحت شارة الانتساب لآل البيت وكان البرتغاليون قد نفذوا الى السوس حيث انتشرت الفوضى لانشغال الوطاسيين بالجهاد في الشمال

(1) هم حسب صاحب نشر المثاني السادة محمد بن ناصر رئيس زاوية درعة ومحمد بن أبي بكر المجاطي رئيس زاوية الدلاء وعبد القادر الفاسي صاحب زاوية المخفية (راجع كتابنا معطيات الحضارة ج. 1 ص. 156) .

فبايع الناس محمد القائم بتيدسي قرب تارودانت (916 هـ) وتأجج العراك ضد المسيحيين في حاحة والشياظمة وعبدة حيث اصطدم السعديون بيحي بن تافوت حليف البرتغاليين بآسفي فانكسروا أول الامر ولكن تدخل احمد الاعرج انقذ الموقف فلجأ البرتغاليون الى حجورهم بالمساء واستتب نفوذ الامير عقب وفاة والده (923هـ) فشمل مراكش أثر درعة والسوس بعد القضاء على الناصر بن شنتوف عامل المدينة وكان الاعرج قد تولى ولاية العهد (918 هـ) وظل السعديون يواصلون الجهاد الى أن زحف على مراكش فانهزم في التحام شديد بتادلا (942 هـ) واتسعت شبكة المملكة السعدية في الجنوب ، ولكن التاريخ أبى الا أن يعيد نفسه ، فاختلف الاخوان الاعرج ومحمد الشيخ المهدي الوزير المستخلف بالسوس فاستقل هذا بالملك (946 هـ) وزج بأخيه في غياهب السجن ، واكتمل تحرير الثغور الجنوبية باحتلال فونتي (947 هـ) واختطاط مرساها (اكادير) ثم الدخول الى آسفي وازمور (948 هـ) اللتين نزح عنهما البرتغاليون ؛ وكذلك اخضاع مراكش الحيرى التي ظلت متأرجحة بين السعديين والوطاسيين .

وفي هذه الفترة وقعت مهادنة بين الوطاسيين والسعديين (942 — 955 هـ) استغلها هؤلاء لتعزيز تحالفهم مع صنهاجة الدلائيين بالاطلس الاوسط وامراء هنتاتة بالاطلس الكبير ؛ وبعض صوفية الريف الذين خذلهم الوطاسيون في حركة الجهاد ضد البرتغاليين وقد ظهر السعديون بمظهر ابطال الجهاد الاشاوش وذاع صيتهم في طول البلاد وعرضها فاحبهم الناس .

وقد حاول خلفه عبد الله الغالب عند مقتل والده (عام 965 هـ / 1557 م) الزحف ضد البرتغاليين في البريجة (الجديدة او مزغان) في نفس السنة بقيادة ولده المسلوخ فمني الحصار بالفشل وبعد وفاة الغالب تولى ولي عهده محمد المتوكل (981 هـ / 1574 م) .

وقد واجه منذ اعتلائه العرش مشكلة خطيرة هي وجود عمه عبد الملك وأحمد في القسطنطينية لاجئين عند السلطان سليم يستحثانه لامدادهما بالجيش والعتاد لاعتلاء اريكة المغرب الاقصى .

وقد امتاز مولاي عبد الملك باصالة في الراي نتجت عن تقلباته في الخارج واحتكاكه بشتى الحضارات التي كانت تتفاعل اذ ذاك في الامبراطورية العثمانية حيث اجاد الاسبانية والايطالية والتركية .

وبعد مبايعته بفاس اتجه نحو مراكش في جيش جديد تعزز قوامه الفاسي والاندلسي بأتراك وجزائريين (زواوة) وعرب واصطدم الاميران في وادي شراط فانهزم المتوكل وسار الامير أحمد في اعقابه الى مراكش فانحاز الى الاطلس بينما دخل أبو العباس الى المدينة وتبعه ابو مروان لاخذ البيعة (984 هـ) ثم استخلف اخاه بفاس وكلفه بتجهيز العرائش لمواجهة حركة البرتغاليين بأصيلا ، وتعقب ابو مروان المتوكل في سلسلة من الانتصارات الى أن يئس فتوغل في شعاب الاطلس نحو بادس وطنجة لاستصراخ البرتغاليين حيث وصل الى اشبونة فتطارح على ملكها الشاب الدون سبستيان الذي كانت نفسه المطموح تحدثه بغزو المغرب في حملات صليبية جديدة وحسب الامير المغرور الفرصة سانحة فاهتبلها رغم نصح رجال الدولة بالعدول عن هذه المغامرة الزائفة وقد سبق له ان زار سبتة في السنة التي اعتلى المتوكل اريكة دالعرش بدعوى الصيد في الارباض كما خاض معركة في حوز طنجة ضد كتيبة من فرسان السلطان آنذاك واشترط سبستيان مقابل الاعانة امتلاك أصيلا وتبعية المملكة المغربية للبرتغال وتنافس ابو مروان لاحباط مسعى ابن اخيه فاقترح على ما قيل التنازل عن ثغر مغربي يختاره اشبونة مع مقاطعة تبلغ مساحتها ثلاث عشرة مرحلة حول الجديدة وسبتة وغيرهما غير أن الحشود (1) البرتغالية كانت قد تجمعت في طنجة واصيلا (ربيع الثاني عام 986 هـ) وبرر المتوكل هذه الحملة الصليبية على المغرب وفتح أبواب اصيلا للمسيحيين — وكانوا قد جلوا عنها ايام محمد الشيخ—

(1) بلغ عدد الجنود البرتغالية 125.000 حسب نزهة الحادي والمنتقى المقصور ، و 60.000 حسب الذخيرة السنية ، ونحو 200 مدفع ، أما المراجع الاجنبية فانها تتحدث عن 14.000 راجل و 2000 فارس و 36 مدفعا مقابل 50.000 راجل في الجيش المغربي و 22.000 فارس معظمهم أعراب من الخلط وغيرهم و 1.500 من الرماة و 20 مدفعا .

بتقاعس المسلمين عن نصرته فاجابه العلماء والاجناد برسالة حملوه فيها تبعة الفرار من المسؤولية والنزو على العرش الذي عهد محمد الشيخ به للاكبر فالاكبر تبعا لتقاليد الملك المعضود في صدر الاسلام وسار الاجناد البرتغاليون في حركة بطيئة بعرباتهم ومعداتهم الثقيلة فوصلوا الى ارباض (القصر الكبير) في ظروف زهاء عشرة أيام واستنفر ابو مروان في هذه الاثناء جيش فاس بقيادة اخيه لمواجهة هذا الزحف الاجنبي الذي نصح المتوكل تعزيزه باحتلال تطوان والعرائش للاستعانة سلفا بقبائلهما ولكن ابا مروان استعجل سبستيان بالتحدي (2) فعبر وادي المخازن وعسكر قبالته وبادر ابو مروان غب وصوله بنسف قنطرته فانحبس البرتغاليون بين نهرين وتعذر عليهم كل تراجع الى الخلف لانعدام المشارع في الوادي وانتظم الرجالة المسيحيون ضمن مربع قبعت في قلبه قوافل عربات المؤن والذخيرة ووقف الرماة في الطليعة والفرسان ميمنة وميسرة وواجههم المسلمون في نفس النسق في شكل هلال مسرح الاجنحة للانقضاض من الجوانب عند الاقتضاء وبدات المعركة في الهجيرة (متم جمادى الاولى عام 986 هـ ــ 4 غشت 1578 م) واشعة الشمس تبهر عيون العدو ولهيبها يلفح وجههم واسنة الرماح وقذائف الانقاض تهددهم من امام والمياه الزاخرة من خلف وسارع جيش ابي العباس الى الهجوم فانقضت ميمنة على مؤخرة العدو بينما اتجهت الميسرة ضد الرماة فتهالك المسيحيون صرعى من جراء هذه الصدمة العارمة وانحازت الفلول الفارة فغرقت في اليم وفي ضمنها سبستيان والمتوكل ولفظ أبو مروان نفسه الاخيرة بعد استعصاء مرضه فسلخت جثة المتوكل وحشيت تبنا وطيف بها في المدن وسلمت أشلاء الامير البرتغالي من طرف الامير ابي العباس الى ذويه ونقل وفات ابي مروان الشهيد الى مقبرة الاسرة بمراكش وبويع احمد خليفة فخف للقبض على زمام الامر بعد استتباب النصر واعلان موت السلطان بينما تسارعت الفلول المهزومة لاجئة لاصيلا حيث بقي الاسطول رابطا .

واذا كانت هذه المعركة الفاصلة فترة عارضة في تاريخ الصراع بين المسيحيين والاسلام ــ كما يقول طيراس ــ فانها كانت انتفاضة شعبية ضد الصليبية المعتدية انزلت الضربة الاخيرة بالطموح البرتغالي وفككت أوصال دولة البرتغال لان (الدون سبستيان) مات بدون وارث فخلفه عمه فيليب الثاني ملك اسبانيا التي اندمجت فيها البرتغال أزيد من ستين سنة ولكن الاساطير انبثقت لتحيط هذا الجانب أو ذاك بهالة من القداسة ربما كان الكثير منها بعيدا كل البعد عن الواقع الذي لم يكن اكثر من معركة قضت على الوجود البرتغالي بالمغرب كما قضت (وقعة طريف) البسيطة العادية على الوجود المريني في الاندلس ولكن صدمتها كانت من مظاهر عناية الله بالدولة الناشئة التي خطبت ودها الدول العظمى لان هزيمة دولة استعمارية كالدولة البرتغالية لم يكن بالشيء الهين ولا بالشبح الذي يمر دون أن يثير اعجاب العالم مهما تكن حقيقة الاوضاع والملابسات واشع هذا الانتصار ففتح عهدا جديدا في علائق النصرانية والاسلام .

الرباط : عبد العزيز بنعبد الله

---

(2) تقول النزهة بأن ابا مروان كتب رسالة الى الامير البرتغالي يستفز نخوته للمجيء الى وادي المخازن وكانت مكيدة من الخليفة السعدي .

السباستانية
موطنا ومذهبا

للدكتور عبد الله العمراني

استجابة لدعوة معالي وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية ، للاسهام في العدد الخاص من مجلة (دعوة الحق) الغراء ، الذي تصدره الوزارة بمناسبة مرور اربعة قرون على معركة وادي المخازن « التي وقعت في عهد الدولة السعدية ، وكانت ضربة قاصمة للاطماع الصليبية المتربصة ببلادنا المتطلعة الى تخطي المغرب الى القارة الافريقية لتنصيرها واحتلالها » ، اسارع بتلبية الدعوة لا استجابة لحافز منهي او خلقي او وطني فحسب ، بل استجابة لرغبة عزيزة على كل مغربي في وجوب الاحتفاء بامجادنا التاريخية ، وهي رغبة سبق ان عربت عنها في احدى المقالات التي حررتها عن (معركة القصر الكبير) ، ونشرتها لي (دعوة الحق) (1) ذاتها !

وبما ان الدعوة موجهة الى كتاب واساتذة آخرين سيسهمون هم بدورهم في تحبير صحائف هذا العدد الخاص ، وسيصوبون شبوات اقلامهم الحادة، لقتل موضوعاته بحثا وتمحيصا ، احياء للذكرى المجيدة ، رايت ان اطرق الموضوع الجديد : **السباستيانية** Sebastianismo ، تفاديا لما عسى ان يطرا من توارد خواطر ، او توافق اقلام ، او تطابق عناوين او افكار ؛ وتجنبا لتكرار ما سبق ان قلناه ، فلا نقع تحت طائلة قول شاعرنا الجاهلي الحكيم : زهير (2) بن ابي سلمى المزني منذ أزيد من اربعة عشر قرنا :

ما ارانا نقول الا معادا
او معارا من لفظنا مكرورا!

ويرتكز الموضوع – كما يبدو من العنوان – على اساسين :

احدهما – وهو اشبه ما يكون بالواقع او الحافز – يتمثل فيما كان يجري في بلاد البرتغال (3) من احداث جسام ، وفيما عاناه البرتغاليون طيلة قرون من جهود التحرر والتقدم والرقي ونشر السلطان في ارجاء الكون ، مما دفع بالملك الشاب Dom Sebastian ان يحذو حذوهم ، ويفعل مثل ما فعلوا تحقيقا لما خالج ضميره من احلام ، وساور نفسه من آمال .

والآخر – وهو اشبه ما يكون بالثمر او الاثر – يتجلى فيما ترتب على تلك المغامرة ، من نتائج وتطورات خطيرة في حياة الامة البرتغالية ، ومستقبلها السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

---

(1) العدد الثاني من السنة الثامنة ، الصادر في فاتح دیسمبر 1964 .

(2) في العقد الفريد لابن عبد ربه ، ان هذا البيت هو للشاعر المخضرم كعب بن زهير بن ابي سلمى صاحب قصيدة « بانت سعاد » الشهيرة ، لا لابيه .

(3) البرتغال او البرتقال : ماخوذة من : Purtus Cale (أوبورتو Oporto الحالية) وهو الميناء البرتغالي الواقع عند مصب نهر دويره Douro (بالاسبانية : Duero) . ودولة البرتغال الآن ذات نظام جمهوري . وقد كانت ملكية منذ نشأتها حتى خامس اكتوبر 1910 .

ولكي نعالج الاساس الاول ، وعوامل تكوين شخصية الملك سباستيان واحلامه ، لا بد لنا من الرجوع الى الوراء قليلا ، لنتعرف على البيئة التي نشأت وترعرت وبرزت فيها تلك الشخصية ، ولنعرف الارضية التي نبتت ونمت فيها تلك الاحلام والآمال .

تقع البرتغال حاليا فى اقصى جنوب غرب أوربا بين خطي العرض الشمالي 55 36 8 42 وبين خطي الطول الغربي 15 6 30 9 بالغة فى امتدادها من الشمال الى الجنوب زهاء 593 كيلمتر ، وفى متوسط عرضها من الشرق الى الغرب حوالي 161 كيلومتر . ويحدها المحيط الاطلسي من الغرب والجنوب ، والمملكة الاسبانية من الشمال والشرق . اما مساحتها فتبلغ 91.530 كم م. فى حين ان سكانها يزيدون على عشرة ملايين نسمة . واللغة البرتغالية ـ مثل اية لهجة رومانشية Romance متفرعة عن اللاتينية ـ دخلتها عناصر عربية اثناء الحكم الاسلامي ، وذلك الى جانب خصائص اللهجات الفرنكية والسلتية .

يسكن البرتغال شعب خليط تسري فى عروقه دماء الشعوب التي سبق ان حكمت بلاده . ففي مقاطعتي الجنوب : الغرب Algarve والنتيجو Alemtejo يسود العنصر العربي ذو البشرة السمراء ، والعيون العسلية الدكناء ، والقامة الطويلة ، والجسم الاهيف والشكل اللطيف النشيط ، بينما سكان معظم جهات الشمال يتحلون ببشرة اكثر بياضا ، وملامح اقل انتظاما او استواء ؛ وهم ذوو عيون صغيرة ، وقامات قصيرة ، وبنيات سميكة ؛ ومع ذلك يمكن القول بان سكان البرتغال عموما هم من بقايا العناصر المختلفة التي تواردت على شبه جزيرة ايبريا فى عهود متتالية .

تكاد البرتغال تكون نشأت من عدم ، فهي لم تكن تعدو ـ فى العهدين القرطاجي والروماني ـ مجرد ولاية او جزء ولاية من ولايات شبه الجزيرة ؛ وكانت تعرف باسم لوسيتانيا Lusitania . وفى عهد القيصر اغسطس (63 ق. م. ـ 14 م) كانت ايبريا مقسمة الى ثلاثة اقاليم يرأس كلا منها حاكم يطلق عليه لقب Praetor ، وكان الاقليم الغربي من الثلاثة يشمل جمهورية البرتغال الحالية ، مع اجزاء من مقاطعتي ليون Leon واسترمادورة Extremadura الاسبانيتين .

وتظهر البرتغال على خشبة المسرح الدولي فى فترة الصراع المرير الذي كان يخوضه ملوك الطوائف ضد قوات المسيحيين المتزايدة ببلاد الاندلس ، اي بعد سقوط طليطلة سنة 1085 م فى يد الفونسو السادس الذي زوج ابنته غير الشرعية تيريزا Teresa ـ وكان نسلها من خليلته كمينا توتيز ـ من الامير هنري دي لورينا Enrique de Lorena من اسرة بروكونيا Borgona ، وقدم لها شوارا ولاية البرتغال ليحكمها هو وخلفه من بعده . وكانت هذه الولاية : Condado ـ التي كان يحكمها فى العادة امير او قومس او كونـدي Conde ـ تمتد حينئذ من نهر مينهو Mino فى الشمال الى نهر تاجه Tagus او Tejo الذي يصب عند أشبونة (4) . وتعتبر السلطات البرتغالية ان استقلال بلادهم يرجع الى هذا التاريخ .

وجاء بعد هنري ، ابنه الفونسو هنريكيز Alfonso Henriques سنة 1128 م ، فاستطاع ، بعد انتصاره على المسلمين فى معركة دارت سنة 1139 م فى سهل أوريكة Ourique بمقاطعة النتيجو ، ان يكسب لقب « الملك » الذي منحه اياه جنده فى الميدان ، وثبته عليه بابا رومة انوسنت الثاني ، نظرا لصموده فى وجه الزحف الاسلامي ؛ وصادق الكورتيس (البرلمان البرتغالي) المنعقد فى لاميكو Lamego سنة 1143 م باجماع الآراء ، على منح اللقب الجديد ، وعلى التحرر من ربقة التبعية لعاهل قشتالة Castilla ، وهذه الموقعة لا تذكرها المصادر التاريخية العربية .

وتتابع اسرة بوركونيا حكمها للبرتغال ، فيقدم بعض ملوكها خدمات جلى لبلادهم فى مجال التجارة

---

(4) اشبونة (عند العرب ، وعند البرتغال : Lisboa وعند الانكليز : Lisbon وعند الفرنسيين Lisbonne) يقال : ان الفنيقيين هم الذين اسسوها . كان سكان لوسيتانيا يطلقون عليها فى القديم اسم Olisipo او Ulisippo احتلها العرب سنة 712 م واستعادها منهم الفونسو الاول (الفونسو هنريكيز) سنة 1147 م . توجد بقبيلة بني كميل من اقليم الحسيمة فرقة بني اشبون وواضح ان سكانها متأصلون من مهاجري الاندلس اثناء حروب الاسترداد .

الخارجية ، والمجد البحري . وبعد الفونس الثالث الذي احتل مقاطعة « الغرب » في جنوب البرتغال ، فأتم بذلك حرب الاسترداد La Reconquista جاء سنة 1279 م الملك دينيز Diniz فشجع الآداب والفنون الصناعية ، وقام بالاصلاح الازراعي فوزع اراضي الكنيسة على فقراء الفلاحين . وفي المجال التجاري ابرم اول معاهدة تجارية مع انكلترا سنة 1294 م ؛ كما شجع التعليم فأنشأ جامعة اشبونة التي نقلت سنة 1308 الى حاضرة البلاد الجديد قلمرية Coimbra

كان الملك دينيز شاعرا ، ويعتبره البرتغاليون اقدم شعرائهم . كان ديوان شعره مفقودا ، ولكنهم عثروا عليه مخطوطا في مكتبة الفاتيكان . فنشروه في باريس واشبونة سنة 1847 باسم : كتاب الاغاني لمؤلفه الملك ضوم دينيز El Cancioneiro del Rei Dom Diniz . وقد ظل البلاط الملكي البرتغالي في الواقع مركزا للشعر والآداب والفن خلال القرنين 14 و 15 م تماما كما كان في عهد الملك دينيز .

وخلف دينيز على العرش سنة 1325 م ابنه للفونس الرابع الملقب بالشجاع . كان شغله الشاغل محاربة جيرانه القشتاليين من جهة ، والمسلمين من جهة ثانية . وينهي حكم اسرة بوركونيا هذه ، حفيد لالفونس الرابع ، يدعى فرناندو الاول ، وذلك سنة 1383 م .

بعد فترة اضطراب ، جاءت الى الحكم اسرة ابيس Maestre de Avis حينما استطاع — الاخ غير الشرعي للملك السابق فرناندو الاول — ان يقاوم ملك قشتالة ويتغلب عليه سنة 1385 في معركة الخوباروتا Aljubarrota ، وبذلك قضى على احلام القشتاليين في احتلال البرتغال ، وضمها الى مملكتهم . حينئذ اعلنه الكورتيس ملكا على البلاد . وتسمى يوحنا الاول Joam I

ولم يكن عهد يوحنا الاول حافلا بالاحداث السياسية والاصلاحات الداخلية فحسب ، ولكنه اسهم بقسط وافر في الاستكشافات الجغرافية الاولى وفي المشاريع التجارية والاقتصادية والاستعمارية الكبرى التي بواسطتها اصبحت البرتغال في هذا العهد ، وما تلاه من عهود ، أعظم قوة بحرية اوربية . فبمساعدة هذا الملك تمكن ابنه الامير هنري (1395 — 1460) الذي لقب فيما بعد بالملاح el Navegante من أن ينظم الرحلات البحرية الاستكشافية المتعددة ، وأن يفتح عهدا جديدا للاستعمار الذي بلغ اوجه اثناء حكم الملك الفونس الخامس (38 — 1481) الملقب بالافريقي ، وخلال حكم الملك يوحنا الثاني (81 — 1495) .

وقد استطاع البرتغاليون في عهد اسرة ابيس هذه ، أن يحتلوا — كرد فعل عنيف ضد المغرب — بعض مدنه الساحلية اثناء الفترات التاريخية التالية :
سبتة (1415 — 1640) طنجة (1471 — 1661)
اصيلة (1471 — 1550) آزمور (1513 — 1542)
آسفي (1504 — 1541) .

واحتلوا ايضا في المحيط الاطلسي جزر ماديرة Madeira المصاقبة للساحل المغربي ، وذلك سنتي 18 — 1419 ؛ ثم جزر آزور Azores سنة 1427 ، وما زالت هذه الجزر الاطلسية تابعة للبرتغال حتى الآن . وفي عام 1434 دار Eannes حول راس بوجدور ، كما تعرف Nuno Tristani على مصب نهر سنغال . وفي العام التالي اكتشف دينيز دياث الراس الاخضر . وفي عام 1471 افتتح فرناو كوميس ، معملا في ساو جورج دي مينا ، واخذ يزاول التجارة والنخاسة مع اهالي غينيا .

ويبدو من حركة التسلط على شواطىء المغرب — وهذا أمر طبيعي — انها كانت بداية او وسيلة للوصول الى سواحل افريقية ، والى استعمارها واستغلال خيراتها . ويجدر بالملاحظة ان الامير هنري الملاح كان قد اكتسب صداقة احد العلماء المغاربة الذي يعرف الشيء الكثير عن مجاهيل افريقية ، فاستعان بخبراته ، وانتفع بمعلوماته ، واعتمد عليها في رحلاته البحرية .

وبعد موت الامير هنري ، وفي سنة 1484 بالذات ، تمكن برطلوميو دياث Bartolomeo Diaz من اكتشاف ما سماه — بداة بدء — براس العواصف Cabo das Tormentas ، وسماه غيره فيما بعد « راس الرجاء الصالح » تفاديا لما قد تثيره التسمية الاولى من مخاوف لدى البحارة والملاحين . والحقيقة ان التسمية الاولى واقعية الى حد كبير ، ذلك ان المنطقة البحرية بأقصى جنوب قارتنا السمراء، تمتاز بشدة عصف الرياح ، وكثرة هبوب الزوابع .

واثر سقوط غرناطة في ايدي الملكين

1 ـ فيليب الثاني ملك اسبانيا : ابن كارلوس الاول (الخامس بالنسبة لالمانيا) وايسابل البرتغالية ابنة الملك البرتغالي مانويل المحظوظ ، فهو اذن خال الملك الراحل .

2 ـ دوقة براغانثا Duquesa de Braganza

3 ـ دوق سابويا Duque de Saboya

4 ـ رئيس دير كراتو Crato وهذا ينتمي الى أسرة أبيس المالكة ، ولعله كان أحق بالعرش البرتغالي لو لم يكن دعيا فى تلك الاسرة ، أى انه كان ولدا غير شرعي .

ويعلو حق فيليب الثاني حقوق غيره ، وتنتصر جيوشه على خصومه ، فيفلح فى اقتناص العرش لنفسه ، وفى ادماج دولة البرتغال ومستعمراتها فى دولته ، ويعترف له مجمع الكورتيس المنعقد فى Thomar سنة 1581 ؛ وبذلك يصبح فيليب الثاني بصفة رسمية ، امبراطورا لا تغيب عن مملكاته شمس الطبيعة ، أما شمس اللوسيتانيين فانها غربت ، ولن تبزغ مرة ثانية الا بعد مرور تسعين عاما كاملة على موت ملكهم الشاب الجريء . وهي فترة سوداء خسر فيها البرتغاليون انفسهم واستقلالهم ومستعمراتهم وحتى لغتهم ، فقد كان جيرانهم المتسلطون عليهم يفرضون عليهم لغتهم القشتالية .
وصدق قول الشاعر العربي :

.... ومعظم النار من مستصغر الشرر

د. عبد الله العمراني



وثيقتان هامتان عن معركة وادي المخازن

للأستاذ محمد بن تاويت

الوثيقتان صدرتا عن رجلين كانا ضمن الرجال الذين شاهدوا الموقعة الحاسمة ، التي وضعت حدا لغرور البرتغال الذي اندفع بهم نحو الثغور المغربية ، وصاروا بذلك يحاصرون المغرب في داخلــه ، ولا يدعون له متنفسا نحو البلاد الواقعة خلف البحـار لدرجة ان سمحت لهم وقاحتهم ، بالاعتـراض على الدول التي كانت تقترب من ثغورنا ، او تحـاول أن تتعامل مع الدولة الوطاسية أولا ثم الدولة السعدية ، عند تأسيسها ، كما كنا نشرنا في هذا عدة وثائق ، تحت عنوان : « من زوايا التاريخ المغربي » .

وواقعة وادي المخازن ، لم تكن في الواقــع ، أول وقيعة انتصر فيها المغاربــة على البرتغـال ، وسحقوهم شر سحقة ، بل كانت ثانية الظفر بهـم والاكتساح لكيان عدوانهم .

فقد حدث اولا ، ان فكر اولئك الغاصبون ، بعد ما ثبتوا ارجلهم الاثيمة على سبتة ، ان يستمروا في احتلال باقي الثغور الاخرى ، فتطلعوا الى طنجــة ، واتوا في اتجاهها برا ، وتحت امرة ابنيــن ، كـان والدهما الملك البرتغالي ، قد أعدهما لهذه المهمــة الغادرة ، والقرصنة الفاتكة لاحواز البلاد وموانيها ، وكان غرورهم قد سول لهم ان يسلكوا في طريقهــم نحو طنجة الطرق الداخلية ، فما توسطوا الطريق ، نحو طنجة وكان ذلك ، بنحو خمسة عشر كيلومترات ، من موقع تطوان (التي لم تكن آنذاك قد بنيت) حتى كان مجاهدة القبائل الحوزية ، وغيرها ، تحيط بأولئك المتمردين احاطة تامة ، وتوقع فيهم شرو قيعــة ، اضاعوا فيها رشدهم ، وهاموا على أوجههم ، فتلقتهم الصفاح تقطف رؤوسهم ، وتستأصل شأفتهم ، وتمكن الاغلال من رقابهم ، التي كانت منها رقبـة الاميـر الخطير « ضون فرنـنـدو » Don Fernando الذي حمل الى معتقله ، اولا في مدينة « اصيـلا » ومنها نقل الى العاصمة فاس ، التي حضر رجال منها – كما يظهر – متطوعون في تلك الموقعـة ، ولـم يحضرها الملك ، ولا اضفى على هؤلاء المجاهدين حلة رسمية ، تجعلهم يحققون له النصر العسكري ، بـل كانوا من عدة قبائب ، في مقدمتها قبيلة انجـرة ، وقبيلة وادراس والحوز وبني يدر .

لقد عض البرتغال على انامل الندامة ، وصاروا يفاوضون الدولة المغربية في اطلاق سراح « الامير السجين » فوجدت الدولة المغربية هذه الفرصــة سانحة ، لتطالبهم بالنزوح عن سبتة . وبعد مفاوضات، بين الدولتين ، وانعقاد اجتماعات لنواب البرتغال ، استقر الامر على الرضوخ الى هذا المطلب ، مقابل فك رقبة ذلك الاسير . وكانت سبتة بذلك ، سيفك اسرها ، وتعود الى حصن الوطن حرة طليقة ، لولا ما اعترض هذه المحاولة ، من عارض لم يكن متوقعـا للناس ، توفي الامير « فرنندو » في محبسه ، وافلت زمام الانقاذ من يدنا . ولم تمض سنوات ، حتى كان البرتغال ، يعاودون الكرة ، تلو الكرة على ثغورنـا . فاحتلت طنجة ، كما احتل القصر الصغيـر ، على الزقاق الذي خرجوا منه ، نافذين الى السواحـل الاطلسية ، منحدرين نحو الجنوب ، متوغلين فيه حتى المياه السوسية .

هنا كانت سوس تتحرك ، وكانت تلتف حـول السعديين الناشئين ، فاستطاعوا ان يحرزوا بعض الانتصارات ، على البرتغال ، وأن يلقوا بهم عـرض البحر المحيط ، في بعض المواقـع من البـلاد . ووجدوا بعد ان اطاحوا بالدولة الوطاسية ، ميلا نحو الاستفادة من عدوة الاسبان والبرتغال ، آنذاك ، اعني الخلافة العثمانية ، فاستفادوا من بعض رجالها ، على الرغم مما كلفهم ذلك من تضحيات تلتها كارثة الاغتيال، التي تعرض لها محمد الشيخ ، من رجالهم المنخرطين في سلك الجيش المغربي . وكان هؤلاء من الانكشارية الفرقة التي كانت تعني الجيش الحديث ، او صاحب الشارة الجديدة (اذ كلمة « يكي » بنطق الكاف نونا ، تعني الجديد ، وصفا هنا للشارة بعده ، هكـذا في النطق « يني شاري ») .

كان للنظام العسكري التركي ، أثره في النظام الحربي للمغرب ، هذا النظام الذي توج بالاستراتيجية الحربية ، التي استدرجت الملك الشاب الاهـوج « ضون سيبستيـان » Don Sabastian الـى مصرعه ، ومصرع مملكته ، على العموم . فالمفروغ منه ، ما كان عليه عبد الملك السعدي من مهارة حربية وقيادة منظمة ، صاحبته مع اولئك الجيوش الاتراك ، الذين أتى بهم لانتزاع الملك ، من ابن اخيـه محمد المتوكل ابن عبد الله الغالب ...

وبالجملة ، فقد تضافرت الشجاعة المغربيـة ، مع النظم الحربية التركية ، وتحققت بذلك الانتصارات الباهرة ، التي ولدت المغرب من جديد ، مغربا قويا في نفسه ، محترما لدى غيره ، منفتحا على العالـم الخارجي رشيدا في ديبلوماسيته ، لدرجة ان اصبحت الملكة اليزابث عاهلة بريطانيا تعـرض على الملـك المنصور السعدي ، اشتراك الجيش المغربي مـع الجيش البريطاني ، في الاستيلاء على اميريكا من بعد ما عرضت عليه هذه المشاركة في غزو اسبانيا نفسها وهو ما نشرنا حوله وثائق أخرى عديـدة ، تحـت العنوان المذكـور .

لقد تميزت هذه المعركة ، بأنها لم تكـن في الواقع تواجه الجيوش البرتغالية وحدها ، بل كانت تواجه حربا صليبية شارك فيها العالم الكاثوليكي ، بصفة خاصة ، والمسيحي بصفة عامة ، اذا كان فيها حتى المسيحيون غير الكاثوليك كما نجد في وثيقة لصاحبها الانجليزي « وليم بلين » نشرناها كذلـك تحت العنوان السـالف ، ومنهم احد الرجلين اللذين سنأتي لهما بالوثيقتين الآتيتين . وبهذا اختلفت هذه المعركة عن المعركة السابقة ، كما اختلفت من جانب آخر ، بكونها كانت الدولة نفسها ، وعلى راسها ملكها تدبر دولب الحرب فيها ، بخلاف السابقة ، فلم يكن هناك ملك ، بل كان الشعب وحده من قبل المجاهدين المغاربة ، وكان امير او اميران من قبل البرتغال ومن هنا سميت المعركة ، بمعركة الملوك . نعم الملـوك الثلاثة ، الملك البرتغالي ، والملكـان السعديـان ، وجميعهم لقوا نحبهم فيها »».

فخرج المغرب منها بانتصار جديد ، وبملـك جديد ، وخرجت البرتغال ، بهزيمة صاعقة، وبخسـران ملك ، ومملكة فيما بعد ، لم تعد اليها سيادتها وعزتها الى الابـد .

وبعد فهذه احدى الوثيقتين ، تمثل الجانـب المغربي ، وقد صدرت عن الطبيب اليهودي الخاص للملك السعدي ، وهي عبارة عن رسالة وجه بها هذا الطبيب الى اخيه ، بالاسبانية ، هذه ترجمتها :

« فاس 16 اغسطس سنة 1578

سيـــدي

بعد أن ابتعدنا عن « الكيرا » ـ وادي القاهرة ، التي كانت تتجمع فيها جيـوش مـراكش وسوس آنذاك ـ خرجنا من هناك في الغد متجهيـن الـى « شيشوة » ـ على بعد نحو 50 كيلومتر من مراكش ـ تحفزنا انباء وردت على الملك ، من مولاي احمد حفظه الله ، وفي اليوم الثالث ، اقمنا معسكرنا ، على مقربة من نهر « تنسفت » ـ قريبا من مـراكش ببضعـة كيلو مترات ـ ودخل الملك مراكش ، فقضينا بهـا ليلتين ، ثم جعلنا نسير من تينسفت ، فقطعنا مراحل، حتى وصلنا الى « ما وراء » ـ وربما يكون المقصـود مدينة عمبر ، البعيدة عن أزمور ، ببضعة كيلو مترات كذلك ـ في « تامسنا » ، فامر الملك باقامة خيمته ، داخل القصبة ، مصطحبا بعضا منا معـه ، وكـان تنفيذ العمل يتطلب انهاء بناء القصبة واسكان الناس حولها ، واقامة التحصينات بها ، ولذلك امـر بأن يؤتي من مراكش بجميع المعلميـن ، من البنائيـن بالطوب والحجر ، والنجارين والحدادين ، مسلمين ونصـارى .

ولما كان الله يريد شيئا آخر ، ليس للناس به حسبان ، فقد حدث فى اليوم الثالث من وصولنا ، أن طعم الملك شيئا من السمك ، وشرب وشرب الماء كثيرا ، كما تناول قليلا من البطيخ ، فاتخمه ذلك وغلبه القيء الذي أعقبته حمى ومغص معوي . وكان هذا الوعك يعاوده من حين لآخر ، فيما قبل ، مما شغل بالنا كثيرا ، واستفحل امر المرض الذي كان يعتريه .. ومع هذا فقد تابعنا المسير ، وانتهينا الى مدينة « سلا » وهناك تحسنت صحة الملك ، ولما غادرناها بعد ثلاثة ايام ، جعلنا نسير طول اليوم ، الى ان انتهينا الى المعمورة ، وفى هذه الاثناء كنا قد التقينا مع مولاي احمد بجوار سلا ، وفى ذلك اليوم امتطى الملك صهوة جواده وجاء الاهالي للقائه ، وكان سكان الغرب فى صحبة اخيه ، وهم مسرورون مستبشرون جدا ، وقد اطلق الجمعان بارودا كثيرا — مرحبين — ثلاث مرات ، فكان المشهد عظيما جدا ، فيه اجتمع فرسان كثيرون لم يشاهد مثلهم ، فيما قبل ، بهذه المملكة ، حتى ان عددهم قد بلغ قرابة سبعة آلاف فارس ، وفيهم رجال المكاحل .

ثم اتجهنا الى المبيت ، فلما وصل اليه الملك ، احس بحمى صاحبها قيء شديد ، فتأسفت لذلك كثيرا ، وكان قد تسبب فى هذا شدة الحرارة التي تعرض لها ، واكثاره من شرب الماء بها ، مع ما كان يجهد نفسه به من انطلاقه بفرسه ، ولم تكن صحته تسمح له بذلك . ثم رأى من الانسب أن يشرب الماء البارد ، ويولج أصابعه فى جوفه ، ليتقيأ ، ويمتنع عن الاكل بعد هذا ، وكنت ابكي واصيح أمامه — لاصرفه عن هذا العمل — حتى صرت كالمجنون ، ولكن ذلك لم يغدني شيئا فيما قصدته .

وفى اليوم الثالث أصيب الملك بفواق شديد، ثم بارتعاش فى يديه ، وخاصة فى اليمنى منها ، مع ثقل فى اللسان ، جعلني أفهم فى الحين ، المصيبة التي ستنزل به ، فقابلت المولى احمد واخبرته بحقيقة ما حدث ، فامرني ان اكتم الخبر . وجعل منذ ذلك الحين ، يهتم اهتماما خاصا بتدبير شؤون المملكة ، ثم اشتد العطش على الملك ، لدرجة أن صار لا يطفيء ظمأه ماء ، حتى ولو سقي أنهار الدنيا كلها ، لما كانت ترويه . ولم يكن لي ولا للقائد علي ، ولا للمعلم « غيبرمون» — كيوم بيرد احد الوكلاء الفرنسيين المتجولين — شغل ، الا ان نحميه من شرب الماء الكثير ، وسرنا على هذا النحو الى أن كان اليوم السابع ، حيث شاء الله ، بفضل « وصفتين » جعلتهما له ، أن ذهب ذلك العطش ، وعادت اليه شهية الاكل ، وفتح عينيه ، وخف لسانه ، وانتظم قوله ، كما خفت عنه تلك الرعشة شيئا .

فلما كان اليوم التالي ، فاتح أغسطس ، جاءنا خبر بشروع ملك البرتغال فى المسير نحونا ، خارجا من مدينة « أصيلا » فرفعنا معسكرنا واقمناه الى جانب القصر ، الذي توجهنا اليه فى اليوم الثالث منه ، فجاءتنا اخبار مفادها أن العدو يريد اجتيازا للقنطرة التي كانت مقامة على النهر ، المسمى بواد المخازن ، فتقدم المولى احمد ، وظل الملك فى الساقة ، الى ان ضرب المعسكر ، وكان يظن أن العدو سيقدم على القتال ، بنفسه فى مساء ذلك اليوم ، فأمر بتنظيم رماة المكاحل ، وطلب — سامحه الله — الفرس ، وهو يكاد يلفظ نفسه ، فامتطى صهوته ، ضد ارادتي ، وتقدم فترك خلفه جميع الفرسان ، الذين قدموا معه ، ليشرف بنفسه على تنظيم الرماة، ولاحظت لما كان راكبا على فرسه ، أن قد أصابه اغماء ، فاقتربت منه متوسلا اليه ، أن ينزل الى فراشه ، حيث يمكنه ان يستمر فى اصدار أوامره ، فلم يكتف بالامتناع من ذلك ، بل أخرج سيفه وجعل يلوح به فوق رؤوس اصحابه ، ليتركوه وشأنه .

وفى هذا الوقت ، جاء رسول من مولاي أحمد يخبر ، بأن الاعداء قد استقروا فى موقعهم ، ويمكن صاحب الجلالة ان يذهب الى مخدعه ليستريح فى فى المعسكر ، ويتناول طعامه ، فنزل عن فرسه ، واستلقى على فراشه ، واتجهوا ونحن معهم الى الخيام .

اما مولاي أحمد فقد ظل فى الميدان ، ولم يغادره ، فى كوكبة من الفرسان الذين كانوا نحو مائة فقط ، وهم على مقربة من الاعداء ، وكان على جانب آخر من بني مليك ، وبني سفيان ، وبعض العرب من الجبل ، — يعني جبالة — فلما اجتمع رجالنا فى ذلك المساء ، أرسل اخا القائد عبد النور Abdenu ومولاي المنصور لانتلي ، وولد السيد أحمد بن داودي وبعض القواد ، نحوهم .

وشرع الاعداء فى ذلك المساء يرفعون معسكرهم ، متظاهرين بالمسيرة نحونا ، فخرج الملك حينئذ من مخدعه ، وامتد على محفته ، وجعلنا نسير خارج الخيام ، ثم عاد النصارى الى الاستكانة من

جديد ، فتجمعنا بخيامنا ، وتكفل مولاي احمد في تلك الليلة بأن يقوم بالحراسة ، مع فئة من رجال الغرب .

وفي اليوم التالي ، أي الخميس صباحا ، ــ بل كان يوم الاثنين صباحا ــ رابع اغسطس استيقظ الملك ، على حالة جيدة فطلب مني قبل الشروق أن اناوله فطوره ، فافطر ، وشرب مرقا به فتاة الخبز ، مع ثلاثة فصوص من البيض الطري ، ثم حضر مولاي احمد ليتفاوض معه في أمر المعركة ، وبعد ذلك ودعه بارتياح عظيم . وحينما حلت الساعة العاشرة ، طلب الملك الاكل ، فامرت بأن ياتوه بدجاجة مشوية ، واخرى مطبوخة ، وبطعام وخبز سميد ، فاكل قليلا من كل ، وشرب شيئا من ماء القرفة ، قبل الشروع في الاكل .

وبعد انتهائه منه جاءت الاخبار بان البرتغاليين، قد شرعوا في المسير نحونا ، فطلب الملك لباسه الحربي المزركش ، ووضع على هامته عمامة صغيرة ، فوقها وسام به ثلاثة أحجار كريمة ــ على نمط ملوك الترك آنذاك ــ وتمنطق بسيفه الذي كان هدية قيمة من الترك ، وبخنجر من نفس النوع ، كان كذلك مرصعا باليواقيت والاحجار الكريمة .

وهكذا تحلى الملك بما كان يتحلى به ايام الاعياد ووضع في اصابعه خواتمه الكبيرة ، المرصعة بالجواهر القيمة ، وامتطى صهوة فرسه ، على الرغم من ارادتي ، وتوجهنا معه جميعا الى ميدان القتال .

وكان رجالنا على أتم نظام ، وكان النصارى راجلين ، قد قدموا من أبعد الاماكن ، وكان مولاي أحمد في فرسان الغرب على اليمين ، مع آلاف من رماة فاس ، وكان على يسارنا قواد مراكش ، واولاد مطــا Ulendeta والرحامنة ، واناس آخرون كثيرون ، كانوا حسب عادتهم وموطنهم لا يتمكنون من التحرك بسرعة .

ثم تقابل الفئتان في سهم هائل مهيب ، لم أر له مثيلا ، اذ لم تكن هناك حجرة ولا شجرة ولا حائل ماء، فلما كانا على طلقة مكحلة ، امر الملك باطلاق نار المدافع التي كانت عدتها اربعة وعشرين قطعة جيدة . ولما اطلقت المدافع طلقاتها مرتين ، الحقت بالنصارى اضرارا ، كما ظهر لي ، وكما علمنا فيما بعد ، فأجاب عليها النصارى بمدافعهم ، قتل بها فرسان ورجل من حاملي علم الملك ، ولم يستغلوا هذا ، كما كان الناس يتوقعون منهم .

وفي هذه الاثناء اقترب الجمعان من بعضهما . واحتدم القتال من الجانبين ، وجعل فرساننا الذين هم رجال الشرف يهجمون على النصارى المدرعين ، وتقدمت بعض الفيالق من النصارى عن يميننا وشمالنا واشتد هجومهم علينا بشراسة ، لدرجة أن تراجع بعض رجالنا من المشاة والفرسان ، وصاروا وراء علم الملك ، يبحثون عن النجاة في ذلك المكان ، الذي كنا به ، واعتقدت أننا كنا سوف نهلك ، لولا أن مشيئة الله كانت غير ذلك .

واعود الى مقصودنا فاقول . ان الملك لما رأى رجاله ينهزمون ، صوب نظراته هنا وهناك ، فوجد نفسه وحيدا لا وجود للفرسان من خلفه ، لكونهم تفرقوا عنه خوفا من الرماح ، فغضب غضبا شديدا ، واستوى على مهامز فرسه ، وامتشق سيفه ، ثم ارتعش بعد ذلك ارتعاشا شديدا ، اصطكت له اسنانه، ففقد حينئذ الوعي فالحياة ، في نفس الوقت . وكان ذلك المنظر جديرا بالاعتبار ، ونزل امر الله، فاسرعت اليه في الحين ، فوجدته قد لفظ الحياة ، فوضعته على محفة أعدت على عجل ، وتظاهرت بأنه قد اغمي عليه ، فصرت أسقيه الماء ــ متظاهرا ــ ثم غطيت وجهه ، حتى لا يحس الناس بتلك الكارثة العظمى، وفي هذا الوقت ، كان عن يميننا مولاي احمد ، مجده الله ، كما سبق ان ذكرت ، فحمل حملة قوية على النصارى انزل بهم خسائر فادحة ، وفعل ذلك مرتين او ثلاث مرات ، عندما كانوا يهاجمون فيتراجعون بحملاته الموفقة . وبذلك ضيق عليهم الخناق ، واشتدت قبضته عليهم ، وكان بالشجاعة التي جعلته ينفرد عن رجاله في نضاله ، فرأيته وحده مرتين ليس معه الا بضعة رجال .

ثم عاد القائد الى وعيه ــ لعله القائد ابراهيم السفياني الذي كان معه ــ لما راى رماتنا بالبنادق منقسمين ، وخاصة علم « برثبنين » ــ هكذا في في النص Bezenin وفي الترجمة الانجليزية Bessanine ــ الذي جاء في ذلك اليوم مع القائد محمد زرقون من العرائش ، فحمل على النصارى حملة قوية ، شارك فيها الفرسان الذين تقصعت رماحهم ، فاستؤنفت المعركة بعد ذلك ، وطوق فيها الفرسان النصارى ، من كل جانب ، ولم يتركوهم الا بعد ان افنوهم وسحقوهم .

والشي الذي ساعد على هذا الانتصار ، ان موت الملك لم يعلم به أحد ، وقد سرنا كانا معه ، والاعلام تتقدمنا ، والحراس والخفراء وغيرهم من خلفنـا ، ونحن وحدنا الذين كنا على علم بوفاته ، أي انا وولد محمد زرقون ومسلم . وكنا نسير في الامام لنشعرهم بأن ذلك بأمر من الملك ، ثم اني كنت انزل عن فرسي كل لحظة ، متظاهرا بالتكلم معه ، بحيث ان الجند كانوا ياتون بالنصارى الاسرى ، رجالا ونساء الى حيث كان الملك ، فكنا نقول لهم ، انه نائم وننهاهم عـن أن يوقظـوه .

ولما شاهد النصارى هزيمتهم ، جعلوا يقيمون الحواجز ، مستخدمين فيها العربات التي اتوا بها ، فقاتلوا خلفها حتى قتلوا ، أو وقعوا في الاسر ، وكان عددهم ثلاثين الفا ، لم ينج منهم الا عشـرون ، أو خمسة وعشرون ، من فرسان طنجة ، الذين ولـوا الادبار نحو أصيلا ، وكذلـك كـان مـولاي محمد ــ المسلوخ ــ قد فر مع شرة من الفرسان لما شاهد الهزيمة ، وكان من بينهم أولاد أبي تودة وحمو بـن معيزة وغيرهم ، فارادوا اجتياز النهر ، وكان الوقت وقت المد فيه ، فغرق مولاي محمد واقلت فرسه ، ومات ملك البرتغال متاثرا بجرحين أصيب بهما ، في راسه ، وآخر في ذراعه ، فنقل جثته في صندوق وضع فيه جير ، وحمل الى القصر الكبير .

وكان سر الله عظيما ، فقد هلـك في ظـرف ساعة ، ثلاثة ملوك ، كان اثنان منهم عظيمين ، وكانت المعجزة الكبرى في ان ملكا ميتا ، غلب ملك البرتغال في لحظة قصيرة ، حتى ليظن أن ذلك الامر كان من فعـل السحـر ...

ان سادة البرتغال ، من ابن دوق « براكنـزا » Bragança ــ ورد ذكر هذا في تقرير وليم بلين المذكور ، كرجل من الشخصيات التي عينت لتكون في معية الملك ــ الى حامل الترس ، قد قتلوا جميعـا أو وقعوا أسرى ، وهو امر لم يره احـد من الناس ، ولا سمع به ، وبمعجزة منه قبض الله ملك البرتغال وسلمه الى رجال ملك المغرب ، بعد ما فارق الحياة .

اما عدد القتلى حسبما شاهدت بنفسي فيمكن ان يبلغ ، خمسة عشر الفا . واما الاسرى فلا استطيع ان اقدر عددهم ، لكنه ما كان عربي واحد ، لم يـات باسير نصراني او اكثر . والعملة المسلمون لم يعـد لهم شغل يكسبون منه المال ، فان مدينـة فـاس ــ مثلا ــ كانت مليئة بالخدم ، من أسرى البرتغال ، ولم يكن هناك رجل بالدولة ، ليس له أسيران او ثلاثة في خدمته من النصارى ، كما ان الفلاحين ، وجدوا في هؤلاء الاسرى ، من يكفيهم مهمة القيام على حقولهم . وكان ثمن الواحد منهم ، يتراوح بين ثلاثين الى مائة، او مائة وخمسين موزونة ، ــ نحو ثلاثين درهمـا ــ اما قيمة الافتكاك ، فكانت تتراوح بين ثلاثة مائـة ، وبين خمس مائة موزونة ، وكان الملك مولاي أحمد يستخدم من يجده من هؤلاء الاسرى ...

وكان عرب احواز اصيلا وتطوان والشـاون ، ياتون بعد الى فاس ، مصحوبين بأسراهم النصارى ، ــ حيث كانت فاس اهم سوق لبيعهم ــ فأصبحـت هذه المملكة غنية بالذهب والفضة ، والاسلحة المختلفة الانواع ، والبغال والخيول والثيران ــ مما غنم مـن البرتغال ــ بحيث لم يعد من الرماة من يريد ان يخدم غيره ــ استغناء عنهم بما لديه ــ ولا اصبح عبد اقل ثراء من سادته في هـذا .

ولا استطيع ان اقدر لك ، يا سيدي ، مقـدار ذلك ، من الاسارى والغنيمة ، لان من لم يـره ، لا يستطيع أن يصدقه .

ولما انتهت المعركة ، جاء مولاي احمد لياخذ الاعلام ، وقد علم بان الملك قد مات ، فنبهني الى عدم افشاء ذلك الى احد . ثم توجهنا نحو مخدعنا ، وبقينا طيلة ساعتين ، قبل ان تغيب الشمس ، حيث حملنا الملك الميت الى الخيام ، وكان القائد بوجمعة قـد جاء هناك ، فنادى علي في الناس ، وامرني بالذهاب، لارى اذا ما كان اخوه ــ الملك ــ قادرا على التحدث معه ، فدخلت وبقيت برهة ثم عدت اليه فقلت : ان الملك قد أكل فنام ، وكان سيدي محمد بن عيسى ــ بفتح الميم ، كان كاتبا لمولاي عبد المالك ، كما في نزهة الحادي وغيره ــ في هذا الوقت يكتب البيعـة لمولاي احمد ، فلما انهى كتابتها ، وجه مولاي أحمد في طلب الشرفاء ، وقواد الفرسان والرماة جميعا ، وخطب فيهم بنفسه ، قائلا لهم ، ان اخاه قد مـات ميتة القائد المغوار ، وانهم يعلمون انه كان في حياته قد حارب عدوه مولاي محمد ، وانهم ان بايعوه ، واصبح ملكا عليهم ، فانه سيسير حسبما يشيرون بصوابه ، فرد جميعهم بالاصفاق « نصرك الله » . ثم قبلوا يده واقسموا يمين البيعة ، بانه ملك عليهم ، فامتطى صهوة فرسه ، وجاب المنادي ، ينادي في الميدان ، ويصيح: رحم الله مولاي عبد الملك ، ونصر مولاي أحمد .

ولما انتهى من هذا ، توجه الى مخدعه ، فاصدر الاوامر ، بدفن اخيه ، فكان ذلك على هذا الشكل : انه دفن بلباسه ونعليه ، – شهيدا – بعد ان حمل جنازته كبار فقهاء فاس ، وسيدي محمد بن عيسى ، كما حملها قضاة فاس الكبار ، وجميع الشرفاء .

وكان القوم يقرعون الطبول ويزمرون بالمزامير ، تتقدمهم ثلاثة اعلام ملكية ، ومائة من الحراس الرماة، الممتطين افراسهم ، ومعهم عبيد القصر الغلمان . وقد خرجوا فى تلك الليلة الى فاس ، حيث دفنوه الى جنب اخيه مولاي محمد الحران – الذي كان قد سقط قتيلا ايام والده، فى دفاعه مع الاتراك عن تلمسان – ووضعوه فى القبر على فراشه ، وأعلامه عند راسه ، وقد تاثر الناس لوفاته ، وعدوه قديسا .

اما مولاي احمد ، نصره الله ، فقد دخل مدينة فاس يوم سادس عشر من اغسطس ، وقد اخذ ينظم شؤون مملكته ، جعلها الله على ما يرومه . واظن انه سيبقى هنا – بفاس – الى ان يحل رمضان ، وقد استدعى مولاي داود – بن المامون اخيه – ليجعله عاملا على مكناس . اما ولده محمد الشيخ فسيتركه – واليا – على فاس ، ويؤكد انه سيبقى معه ولد القائد علي بن شقرة . وقد اعطى قصر فاس البالي للقائد علي كنوس .

هذا ما فعل لحد الساعة ، وساعلمك بما قد يتجدد من الامور بعد .

وقد نسيت أن اقول لك ، ان اهل فاس ، قد فروا جميعا ، ولم يثبتوا حتى انتهوا اليها – فاس – بمجرد ما وقعت الصدمة الاولى ، كما فر معهم ، من العرب الذين مروا بخيامنا ، وهم ينهبون ويقولون : اننا هزمنا ، نحو ثلاثة آلاف او أربعة آلاف منهم ، وحصل بسبب ذلك ان قام معظم الناس ، ففروا متوجهين الى فاس ، ونجا بعضهم من النهب فى طريقه ، ولكن آخرين نهب منهم ما كانوا يمتلكونه .

اما مولاي الناصر ، ولد مولاي عبد الله ، فقد فر – من جيش عمه – فى الليلة التالية ، ليوم المعركة ، واتى الى أصيلا ، مع أربعة من الفرسان حاملا خبر الهزيمة . وقد ارادوا – البرتغال – طرده، متسائلين عما قصده بهذا . لانه لم يبق فى ا لبرتغال ملك ، ياويه ، فياتيه بالموت ، كما فعل اخوه ، مع « ضون سيبستيان » الصريع – وسوف يلجا هذا الناصر الى ملك اسبانيا فيليبي الثاني ، وسوف يوجهه هذا الى الريف ، فى رجال معه ، ليثور هناك على المنصور ، فيوجه هذا ابنه محمد الشيخ المامون، ليقضي عليه ، ولكنه يهم بالخروج على والده بعد ، آخر حياته – وقد جاء بهذا النبأ « بالما » PALMA الذي قابلنا فى اليوم الثالث للعركة ، حاملا وسائل قبطان الجيش ، وحاكم أصيلا ، ليعلم مصير الموتى والاحياء الاسرى ، وقد عاد فى الحال مستصحبا ، مراقب القصر الملكي ، الذي كان قد وقع فى الاسر كذلك ، وارسله السادة الاسرى من علية البرتغال واشرافه – الى ذويهم – .

وان رؤية آباء وابناء واخوة القتلى والاسرى ، لتثير الشفقة فى النفوس عليهم . وقد كان ذلك بسبب المحرمات التي اقترفها البرتغال ، فادوا ثمنها حقا .

انتهت الوثيقة ، وما بين العارضتين ، ليس منها، بل تعليقا أو توضيحا منا .

فهذه تيقة من هذا الطبيب اليهودي ، الذي كان – كما يبدو – من الموريسكيين المهاجرين الى المغرب ، كتبها باللغة الاسبانية ، التي كان عبد الملك السعدي يحسنها ، الى جانب غيرها ، وهي تمثل الجانب المغربي .

اما الجانب الآخر ، فكان فى اخرى ، كتبها انجليزي ، كان – كما يبدو مراسلا – فى الحملة البرتغالية وربما كان قاطنا بالمغرب ، وهي فيما يلي :

– اولا – وصف النظم والعادات ببلاد المغرب .

المغرب بلد يقع فى افريقيا ، يسكنونه قوم من البربر الذين يدينون بدين محمد ، وقد تمكن من اغلبهم الضلال والاعتقادات الفاسدة العديدة . وفى هذا البلد كثير من اليهود يسكنونه ، وبيدهم مقاليد اعظم التجارة التي تصدر عن هذه البلاد . وهم وحدهم تجار السكر والدبس وسلع اخرى غنية ، تنتجها هذه البلاد ، ويؤدون عليها مبالغ مالية باهضة للملك .

والآن ، لقد حدثت حادثة مؤلمة ، لاعظم معركة دامية ، خيضت فى المغرب ، يوم رابع اغسطس من سنة 1578 م فقد كان هناك على البلاد المغربية ، ملك يسمى مولاي محمد الشيخ ، الذي كان له أولاد عديدون ، من ازواج عديدات ومحظيات غيرهن ، لانه

هنالك ببلاد المغرب ، يمكن الجمع بين أزواج ، حسبما يريدون .

لقد حدث ذات يوم أن الملك كان ذاهبا الى مراكش ، عاصمة دولته ، يريد قطرا آخر ، يسمى سوس ، فلما كان فى اثناء الطريق ، بما كان يسمى « ببون » — Bibon — على الجادة بين مراكش وتارودانت ، فاغتيل بوساطة رجال — يريد الاتراك الانكشارية من جيشه — حينئذ اعلنوا البيعة لاحد ابنائه ، كان يسمى مولاي عبد الله ، وقد أمر هذا احد نبلاء البلاد ، يدعى القائد علي — بن بوبكر الازقي الحاحي ، كان حاجبا لمحمد الشيخ وحاكما لمراكش — بأن يتولى قتل أحد عشر من اخوة هذا الملك ، — فقتلوا — الا ان اثنين منهم فرا ناجيين بأنفسهما الى تركيا — وهما عبد الملك وعبد المومن — فتمرنا هناك على الاعمال الحربية ، يخوضان المعارك والحروب .

اما اخوه المولى احمد فقد بقي بالمغرب ، ولم يؤبه له ، لما كان عليه من خمول ، ولم تكن له شوكة تخشى ، وكان محبوبا جدا من اخيه ، الملك الشرير ، ولهذا ترعرع فى بحبوحة وترف من العيش ، وكان فى معظم ايامه مقصودا من جميع البلاد .

وحيث ان القاتل القاسي ، ماكان ليفلت ، فنال حتما جزاءه فى يوم من الايام ، فقد كان هذا القائد الوزير الوحيد للملك الذي اشار عليه بالتدبير الخبيث ، قد جرى عليه ما جرى من قبل ، فى اخوة هذا الملك — الناشىء من القتل — . وقد كان الملك القاسي مولاي عبد الله ، له الى جانب اخريات عديدات من النساء ، زوجة سوداء من الاماء — اسمها الخيزران او الجوهرة ، كما فى نزهة الحادي — فكان له منها ابن يدعى مولاي الشريف — الذي لقب بالمسلوخ فيما بعد — وكان بسبب ما كانت عليه أمه من سواد ، يدعى غالبا بالملك الاسود ، فعهد اليه أبوه عبد الله بالملك، بعد وفاته ، اذ جعله ولي عهده ، وكان وارثه الوحيد — آنذاك والا فانه كان له أخ تقدم اسمه بالناصر ، فى الوثيقة الاولى — .

اما مولاي احمد فانه بعد وفاة أخيه مولاي عبد عبدالله فر خوفا من طغيان ابن أخيه ، الاسود الذي خلفه ، لا يلوي على شيء ، مستصحبا معه كل ثروته ومتاعه ، الى الجزائر ، البلاد التابعة لتركيا ، حيث بقي بها فى احسن حال وامان — انظر النزهة والجيش والاستقصا — .

وبينما كان مولاي الشريف ، يضع على هامته التاج،متمتعا بالهدوء والطمانينة،اذ به يصبح ملكا طاغيا قاسيا ، مما جعل شعبه يكرهه ويتذمر من قساوته وشدته ، ثم فى النهاية لجوا فى وجهه بصريح القول، معلنين : ان الابن من غير أم حرة لا يمكن أن يحكمهم . وطيلة هذه المدة ، كان عمه مولاي احمد مقيما فى الجزائر ، موفقا فى استمالة الشعب ، بوساطة التدابير الدعائية التي كانت تسود أنحاء المملكة ، وقد ارسل الى اخيه مولاي عبد الملك ، الذي ظل — مقيما فى تركيا يعمل — يعمل — مع الاتراك ، يرغبه فى أن ياتي على رأس تعبئة عسكرية ، ليقود الحملة بكل ما يستطيع ، حينما يعود الى الغرب ، حيث انه متاكد من كونه سيجد به انصارا له واعوانا ، يمكنونه من انتزاع التاج لنفسه فى سهولة ويسر .

وعلى هذا الامل الحسن ، فان عبد الملك ، استطاع أن يحصل من عاهل الترك على جيش قوامه عشرة آلاف رجل من الاتراك ، مكافاة له على خدماته الجليلة التي قدمها له — وكانت هذه الفرقة من الجيش المرابط بالجزائر — فدخل بهم المغرب ، واستقبل من اتباعه ومواليه ، بكل اغتباط وانشراح ، وبكل نجدة وحمية ، وسرعان ما تمكن من سطوته بفضل تلك الثروة التي كانت لاخيه مولاي أحمد ، ولم يدخر وسعا لاسعافه بها ، ونصرة مسعاه الذي دعاه اليه .

وهكذا ، فان مولاي الشريف ، ابن اخيه الاسود، ادرك ان عمه قاصد اليه ، فبقي بين قواته العظيمة لتعبئة مقاومة ضده . غير أنه ، وان كان حتى ذلك الحين يتمتع بقوتها التي قهر بها عدة أعداء له ، وكان متوفرا على جيش عظيم قوامه عشرة اضعاف ما لعمه من جيش ، لم تسعفه شجاعته تجاه — عمه مولاي — عبد الملك ، كما كان يدرك أن ارادة الشعب العامة ، منصرفة عنه الى عمه — .

وبالجملة ، فقد قام مولاي عبد الملك بمهمة التحريض عليه ، فاثار الناس على الشريف المذكور ، وتمكن منه بأن هزمه الى اعالي الجبال ، من البلاد ، وانتهى الى ان ظفر بتاج الملك ، فاستمر طيلة المدة، قابضا على زمام الحكم والسلطان ، بفضل حب الشعب اياه جدا . اذ كان رجلا فى منتهى النشاط ، هائلا فى سرعة الحركة ، ماهرا فى خوض الحروب ، وكان منذ يفاعته دائما فى تجول مستمر واتصال بالناس ، كما انه اقام العدالة بالبلاد ، واقر الامن بها ، وكان

سموحا جدا مع المسيحيين ، وعلى الخصوص مع شعبنا الانجليزي .

وحينما انهزم الملك الاسود الى شواهق الجبال وكان قد حمل معه جل ذخائر البلاد ، كان يوميا يقلق الامن الذي اصبحت تتمتع به البلاد ، تحت حكم عمه مولاي عبد الملك ، ذلك الملك الذي لم يكن ينام عن تحقيق غايته ، والوصول الى المدى الاقصى منها متدرعا بجميع الوسائل ، متيقظا حذرا ، مما عسى ان يقع من ابن اخيه ، الملك الاسود ، من ضرر او اذى ، ـ فلم يعرف مطاردته الى ان استطاع اخيرا أن يهزمه الى اقاصي البلاد ، وتخوم المملكة . فاصبح ـ عندئذ ـ مضطرا الى طلب العون من ملك البرتغال ، الذي كان له بعض المراكز في تلك البلاد ـ المغربية ـ . وبما ان ملك البرتغال، كان شابا يافعا شهما ، في نحو الثلاث والعشرين من العمر ، ربما كان قد اندفع بدافع الطمع والرغبة ، في الكسب الخادع واثقا من النصر ، غير مراع ولا مراقب لما يحل به من تهلكة ، فقد وعد الشريف المذكور بتحقيق ما أمله فيه ـ ونصرته الى النهاية ـ .

وعلى هذا فقد عبأ رجالا ، بلغ تعدادهم اربعين الفا ، فيهم من المشاة ستة آلاف برتغالي ، واربعة آلاف من فرسانهم ، وعشرة آلاف من مشاة الاسبان، ونبلاء الالمان والطليان ، ثم عشرة آلاف اخرى من الوصفاء والخدم وأصحاب العلوفة ونحوهم ، ممن كانوا في صحبة الجيش من الاتباع ـ انظر في هذا ما نقله « دوكستر » في الجزء الاول من السلسلة الانجليزية ص. 293 ـ 294 ، عن « بربوسا متشادو » ـ .

وبهذه القوات ، عسكر الملك بين جماعة من نبلائه عديدين ، فأقلع معهم من بلاده ، في اليوم الرابع عشر من شهر يليه سنة 1578 وعرج باسطوله الكامل العدة على البلاد الاسبانية ، حيث رسا بمدينة قادس، واستراح بها ثمانية ايام بتمامها ، ليتزود عسكره منها بكل ما يحتاج (كما يظن بعضهم) وربما كان في حاجة الى انجاز بعض مآربه المزعومة .

وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر يليه المذكور ، جمع رجاله كلهم ، وفصل مقلعا عن قادس بجميع تعبئته ، متجها نحو مدينة اخرى واقعة على الساحل المغربي المقابل تدعى « طنجة » ، حيث تقابل مع الملك الاسود ، الذي كان في صحبته خمس مائة من رجاله المغاربة الفرسان .

وبعد ما اقام بطنجة مدة وجيزة ، انتقل منها الى أصيلا ، التي هي بعض ما كان لملك البرتغال من المدن المغربية هناك . وفي اليوم الاول الذي كان التاسع والعشرين من شهر يليه ، غادرها ملك البرتغال متقدما نحو الامام ، مع جميع قواته ، فقطع بهم فرسخا آخر ، وهو ثلاثة اميال ، من اميالنا الانجليزية ، ثم اقام خيامه عند مكان يدعى : « لواد الحلو » .

ثم في اليوم التالي تقدم فرسخا آخر ، فعسكر هناك يومين كاملين ، اكتشف فيهما عند قمة ربوة عالية جدا ، وجود فرقة من فرسان المغرب كان قوامها اربعمائة شخص ، لا أكثر . وكان سبب اتيانها، كما ظن تماما ، لمجرد معاينة معسكر ملك البرتغال ، فيكون ملكهم مطلعا على القوة التي يتوفر عليها ، هذا ـ الملك ـ في الواقع . وكانت ماثلة في عظمة مدهشة ، لا يمكن أن يتصورها العقل ، ثم عادوا أدراجهم ، بعد ظهورهم ، في سرعة فائقة ، بدون أن يقوموا بمناوشة معهم ، أو القيام بأي قتال لهم البتة .

وفي اليوم الثالث ، تقدم ملك البرتغال ، فسار ثلاثة فراسخ نحو الامام ، بدون أن يصادف أية مقاومة ، فأقام حينئذ معسكره في امن امان ، قريبا من نهر ، يدعى واد الريصانة ـ ورد اسمه محرفا في الاصل كويكسينا ـ فبقي هناك طيلة الليلة .

وفي اليوم الرابع ، تقدم فراسخ أخرى الى الامام ، فوصل الى مدينة مغربية ، تدعى « القصر الكبير » ، حاجزا بينهما النهر الكبير ، وادي المخازن. وكان جسره آنذاك في قوة ومناعة ، محروسا بالفي مغربي ، فادرك الملك البرتغالي ، انه مستحيل ان يسلك هذا السبيل بدون بذل اعظم مخاطرة ، وكان عليه أن يحتفظ برجاله الى الفرصة التالية ، التي يمكن ان تكون في صالحه وفي تحقيق مسعاه الحالي. وعلى ذلك تابع سيره محاذيا الشاطىء ، باحثا عن مسلك آخر له ، يكون أكثر ملاءمة لقصده ، وفي النهاية وصل الى جدول صغير ، حيث عسكر هناك بجميع قواته ومدفعيته ، ومؤونته بدون أن يستهدف اي خطر او صعوبة مطلقا ، فقضوا هناك جميع اليوم، منهمكين في العمل الذي استغرق تلك الليلة كلها .

وفي اليوم التالي استدعى ملك البرتغال جميع حصفائه ، وقواده المحنكين بقصد الاستشارة معهم ،

واستنصاحهم ، فيما اذا كان الاحسن له أن يتجه ، بجميع قواته نحو العرائش ، حيث هي مدينة صامتة، وان كان بها نحو سبعة آلاف بيت ، فانها مع هـــذا ضعيفة غير قادرة على مواجهة اي قتال ، ولن تكون قادرة على الصمود الطويل فى المقاومة ، او بالاحرى عليه أن يتقدم نحو الامام ، فى طريقه الى القصـــر الكبير المذكور ، فكان هذا موضوع حـــوار طويــــل بينهم ، كل رجل ينحاز الى رغبته وهواه .

وبعد ما عبر كل بخصوصه عن وجهة نظره فى هذا حيث كان البعض يرى هذا المسلك ، وآخرى يرىغيره انتهت المفاوضة بالمصادقة على الاحتفاظ بالطريق نحو القصر الكبير ، فكان العمل على ما اتفق عليـــه عمومـــا .

ولكنه لم يسر غير قليل ، حتى اكتشف مجيء مولاي عبد الملك بحشده ، زاحفا نحوه ، بقوة عظيمة من الرجال ، كانت تقدر بنحو سبعين الفـــا ، مـــن الفرسان ، واربعين الفا من المشاة ، وكان منهم نحو عشرين الفا من الرماة الفرسان ، وعشرة آلاف مـــن مشاة المدفعية ، الى جانب التابعين الآخرين للعسكر، لم اسمع بعددهم ، ولا يمكن أن يقدم عنهم تقريـــر حقيقي . ولكن بسبب أن اليوم قضي فى هدوء بين القوتين ، فانهما ما استطاعتا الاتيان بأي عمل ، وقد اقتربت كلتا الفرقتين من الاخرى ، وعسكرتا هنـــاك تلك الليلة ، على مرأى كل منهما للاخرى .

وفى اليوم التالي ، وكان رابع اغسطس ، لسنة 1578 ، قسم ملك البرتغال جيشه الى اربعة كراديس، وعين للقائد « ضون دويرطـــي دى منـــيسيس » Don Duert de Mennesses وكان للقائد الاعلى للقوات ، قيادة المقدمة Vantgard اما الكردوس الثاني فان ملك البرتغال ، تولى بنفسه قيادته ، وكان على الميمنة الشريف الاسود ، مع فرسانه ، وكان على الميسرة « دوق فيـــرو » Duke De Verou الابن البكر لدوق بركنسي ــ السابق ذكره ــ مـــع اربعـــة فياصـــل .

وقد قام الملك ، مولاي عبد الملـــك بنفـــس الترتيب فى عسكره ، فكان قد أعد كل شيء هكذا ، فى كلا الفريقين ، وكان كلا الملكين قد جعلا انفسهما، موضع المخاطرة بها ، فيما عسى أن يقع من احداث، وقد تجردا للقتال ، فوجه الملك مولاي عبد الملـــك اولا هجوما عنيفا على فرسان البرتغـــال المقاتلـــة ، ولكنهم دافعوا عن انفسهم بشجاعة ، وانتهوا اخيـــرا الى اضطرار رجال مولاي عبد الملك الى التأخـــر بعد فقدان كثير منهم . ولكن مولاي « ملوك » مع هذا لم يهن ابدا ، وقذف برجاله ثانية فى أحسن ترتيب، لخوض المعركة من جديد ، هاجما بعنف وشـــدة على فرسان ملك البرتغال ، فجعلهم ينهزمون الى قلـــب الميدان . ثم ان فرسان البرتغال ، وهم غير قادرين على جمع شتاتهم مرة اخرى ، فى نظام أحسن ، هجموا على المسلمين نفس الهجوم العنيف ، بحيث انهـــم قتلوا عددا عظيما منهم ، فأعاد هؤلاء الكرة على فرسان البرتغال ، ولم يهنوا ، واكرهوهـــم على الاختـــلاط بمشاتهم . ثم هجم الفرسان البرتغال على المغاربة من جديد ، ولكن كانوا قد قتل احسن رجالهم من قبل ، ولم يكن لهم غوث جديد ، ليسدوا به خلتهم . ولهذا فقد فروا عن زملائهم مرتاعين هلعين ، ضاربيـــن فى بلاد غريبة عليهم ، وهم بين أعدائهم يقتلونهم ، وقوتهم تفوقهم . فما استطاعوا أن يفعلوا احسن من هـــذا الفرار ، مطلقا ، وظل اولئك المغاربة على ثباتهم فى مراكزهم ، كاسرين لقوى أعدائهم ، مبددين لنظـــام الفرسان البرتغال ، مشتتين شملهـــم ، قاهريـــن لصناديدهم ، يقتلونهم ويأسرونهم ، فى جمـــع مـــن قوتهم . فلم ينج من ذلك الا نحو ثمانين أو مائة رجل على الاكثر ، استطاعوا الفرار والنجاة بانفسهم ، الى الاسطول . وقتل فى جميع رجال المعركة ، ثلاثـــة آلاف الماني ، وسبعمائة طلياني ، والفان من الاسبان، كان منهم « ضون النسو داكيلير »
Don Alonso Dagolar
فارس قرطبـــة .

ويظن أن الملوك الثلاثة قد قتلوا ، فى هـــذه المعركة الاخيرة ، وفيهم الشريف الملك الاسود .

وقد اخبر ان رأس ملك البرتغال ، قد بقي في القصر الكبير ، بصدد تسليمه ، على فدية يطلبها المغاربة ، بمدينتي سبتة — بالاصل فاس وهو خطأ ، ولا يمكن أن تكون طنجة التي سبق له ذكرها — واصيلا المذكـــورة .

وعرض لفداء ابن « ضون بوكانسا » عشـــرة آلاف دوكة ، ولكن رفض ذلك .

وقد فقد ملك البرتغال في هـــذه المعركـــة ، اثنين وعشرين قطعة من المدفعية ، وسبع مائـــة مركبة ، ببغالها وثيرانها الى جانب أشيـــاء اخـــرى قيمتها عظيمـــة .

وقتل من المغاربة ، نحو اربعين الفا ، او خمسين الفا ، مع آخرين يقال ان الملك من بينهم .

وقد اختار البرتغال ملكا عليهم القسيس الذي هو عم للملك المقتـــول .

محمد بن تاويت

مما جاء في (درة السلوك) لاحمد ابن القاضي وهو معاصر

(مخطوط بدار الوثائق بالرباط . د 1428 . ص 14)

وابن اخيه بالنصارى اعتصمـــا	وصار يستنجدهم لمن سمـــا
أجابـــه اللعيـــن بستيـــان	بجيشـــه ومعـــه الاوثـــان
وعدد الجيوش الذي قد جمعـــا	ينيف عن مائـــة الـــف سمعـــا
فقيض الله لـــه المنصـــورا	ملكا شجاعا أســـدا هصـــورا
فخلص الاسلام من يد اللعيـــن	بصبره على لقـــاء المشركيـــن
ما منهـــم الا قتيـــل وأسيـــر	في ساعة من الزمان ذا شهيـــر
مـــات بها بستيـــان اللعيـــن	فما لـــه على الـــردى معيـــن
ثـــم محمد الـــذي أتـــى بـــه	مات غريقـــا يومـــه فانتبـــه
لحكمـــة الله العظيـــم القاهـــر	افادهـــم وزيـــن المنابـــر
بذكـــر عمـــه أبـــي العبـــاس	الحازم الراي شديـــد البـــأس
نجل الرسول المصطفى المختـــار	به زها المغـــرب على الاقطـــار

أحمد المنصور الذهبي كرجل دولة

للدكتور ابراهيم حركات

ايهما كان بطل معركة وادي المخازن ومخططها الرئيسي ، هل هو أبو مروان عبد الملك المعتصم ؟ ام اخوه احمد المنصور ؟

اما المراحل التي سبقت التخطيط للمعركة ، فقد اشترك فيها الاخوان معا منذ البداية ، واما خلال ظروف المواجهة نفسها ، فقد كان المعتصم مريضا ، بل توفي والمواجهة لما تتم ، واذا ، فأحمد المنصور احق ان يكون البطل الاول للمعركة ، بالنسبة للطرف المغربي . وهناك شخصية ثانية لعبت دورا تقنيا وعسكريا ذا اهمية استثنائية ، وهو القائد التركي رضوان ، لا سيما فى تنظيم المدفعية التي كانت لها الكلمة الاولى والاخيرة فى المعركة ، ومع هذا لا يمكن ان يغمط حق عدد آخر من القادة النظاميين كابراهيم السفياني ، والشعبيين كابي المحاسن الفاسي الذي كان دوره على الخصوص شحذ الطاقة الروحية النضالية فى نفوس الفئات المتطوعة .

وحيث ان معركة وادي المخازن لا تهم هذا الموضوع بالذات ، فلا مجال هنا لمعالجتها ، وانما الذي ينبغي تسجيله هنا ان هذه المعركة من المواجهات العالمية الحاسمة بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي ، لان هذا النوع من الصدام العالمي قليل جدا فى فترات التاريخ ، حيث تمر اجيال عديدة بل ربما بضعة قرون قبل تكرره بشكل او بآخر ، لان نتائج الصدامات العالمية الحاسمة يستمر مفعولها وقتا طويلا ، كما تتأثر به رقعة جغرافية لا حد لها .

عصر المنصور الذهبي :

عاصر أحمد المنصور ، الاحداث العالمية التي طرات خلال النصف الثاني من القرن السادس عشرم. الذي يعادل النصف الاخير من القرن العاشر الهجري

واذا كان القرن الماضي (9 – 15 م) يتميز بـ حدثين بارزين فى تاريخ اروبا والبحر المتوسط ، وهما :

1 – استيلاء العثمانيين على القسطنطينية .

2 – نهاية حركة الاسترداد فى الاندلس وبدء طرد المسلمين ، فان القرن الموالي ، اي السادس عشر م . يتميز ايضا بحدثين بارزين لهما بعد عميق فى التطور السياسي والعلاقات الدولية :

1 – توسع نشاط الكشوف الاستعمارية واستفادة الخزينة الاوروبية منها .

2 – بداية الصراع الواسع المدى ، بين الاتراك والدول الاوروبية فى عرض البحر المتوسط ، وما نشا عن هذا الصراع من انتشار حركة القرصنة الاوربية والحركة الموازية لها والمناهضة ، والتي هي حركة الجهاد البحري ، والتي خاض غمارها على الخصوص افراد وفئات شعبية من بلدان المغرب الكبير ، وتركيا والاندلسيين المطرودين من اسبانيا .

وعاصر احمد المنصور الذهبي حركة الاصلاح الديني وشطرا كبيرا من الاحداث التي تخللت الحروب الدينية فى أوروبا بين الكاثوليك والبرتستان

وغيرهم . بل ان المغرب قد استقبل فى عهده عددا كبيرا من اللاجئين السياسيين من هولندا بعد أن شهد هذا البلد من تعسف الحكام الاسبان فى هذه الفترة ما لا حاجة الى بسطه .

اما فى الميدان الفكري الاوروبي فان من اهم الظواهر الطبيعية التي رافقت النهضة الاوروبية العزوف عن فنون الادب التقليدية المعروفة فى العصور الوسطى والميل الى تقليد الآداب الاغريقية والرومانية (1) ، ولا يخفى أن هذه الفترة بالنسبة للفكر الاسلامي ما هي الا امتداد لفترة الانحطاط التي شملت معظم العالم الاسلامي خارج المغرب الكبير قبل عدة قرون . واذا ، فعصر المنصور بالنسبة لاوروبا هو عصر تحولات فكرية هامة حيث بدات تروج فكرة العقد الاجتماعي بين الامة من جهة ، والسلطتين الزمنية والروحية من جهة اخرى (2) ، ولكن ، لا زالت فكرة الملكيات المطلقة سائدة على الرغم من رواج نظرية العقد الاجتماعي لدى المفكرين . وبكل تأكيد ، كان احمد المنصور الذهبي يتتبع كل التطورات العالمية ويضعها فى حسابه . فقد كان بين جارين قويين لهما وزن دولي بالغ الاهمية ، وهما الاتراك والاسبان . وما يروج فى اوربا والامبراطورية العثمانية ينعكس بصورة أو باخرى على الاوضاع الاقليمية او الوطنية ، سيما من حيث الستراتيجية العسكرية والاقتصادية .

اما فى تركيا فهناك حركة توسعية فى الفتوحات العثمانية أذهلت الاوروبيين فقد اخضع سليمان القانوني مجموع الاراضي التي تكون ما بين النهرين واخضع القسم الاكبر من المجر ، وهدد النمسا فى عقر دارها وطرد ابنه سليم الثاني البرتغال من شواطىء اليمن وافتتح قسما كبيرا من قبرص وواجهت جيوشه بقوة ، استحكامات الاسبان فى تونس حيث مني هؤلاء بهزيمة ساحقة فى حلق الوادي ووقعت قلعة تونس الحصينة فى يد سنان باشا بعد حصار دام ثلاثة وأربعين يوما وقد تطلب بناؤها من الاسبان ثلاثا وأربعين سنة كما تقول الرواية الاسلامية (3) .

وكانت افريقيا قد اصبحت هدفا للمطامع الاستعمارية منذ أن انفسح المجال امامها فى المغرب بفتح سبتة سنة 1415 ، وبعد فترة وجيزة اصبحت شواطىء المغرب وباقي الشمال الافريقي موزعة بين الاسبان والبرتغال ، واغلق هؤلاء الطريق التجاري البحري امام المغاربة الذين لم يعودوا على اية حال وسطاء تجاريين بين اوروبا وافريقيا السوداء ، اذ ان التغلغل البرتغالي وقوة الاسطول البرتغالي مكنته من تنشيط حركة التبادل مع افريقيا مباشرة . ولذلك لا يعد استيلاء البرتغال على الشواطىء المغربية من قبيل رد الفعل الديني فحسب ، بل هو ايضا عملية اقتصادية واسعة المدى تضع حدا للنفوذ الاقتصادي داخل التراب المغربي من جهة ، وبالنسبة لعلاقته مع افريقيا السوداء من جهة اخرى .

ومهما يكن من شيء ، فان البرتغال لم يستقروا وحدهم فى مراكز الساحل الاطلسي من افريقيا ، بل صار هناك منافسون آخرون من أوروبا بينهم مغامرون انجليز وهولنديون وفرنسيون . وكل هؤلاء نشطوا فى أسواق النخاسة (4) فضلا عن احتكار التجارة وانشاء مراكز استقرار قبل الاستيطان الحكومي الواسع المدى والذي اصبح من مميزات القرن التاسع عشر م .

ومن الواضح أن كل هذه الاحداث التي كانت تقع على عتبة المغرب شمالا وجنوبا وشرقا ، تجد صدى فى البلاط السعدي الذي يراقبها باهتمام بالغ ، فهناك مئات من الاوروبيين من مختلف الاجناس والمنتمين الى أوساط متباينة يتعايشون مع المغاربة او يستقبلهم القصر الملكي كمبعوثين رسميين ويتعرف عن طريقهم الى ما يجري من احداث فى الخارج . واهم من ذلك ، فان المنصور الذهبي يتفوق على جميع اسلافه فى الحرص على تتبع الاخبار وتفاصيلها بدقة . وهو اول ملك مغربي وسع علاقاته الدبلوماسية بشكل مستمر مع عدد من الدول الاوروبية العظمى كانجلترا وهولندا ، فضلا عن حساسيته الدبلوماسية النادرة تجاه الدولة العثمانية التي لم يوفق معظم الملوك السعديين قبله الى

(2) De l'Andelyn, Histoire Universelle, p. 341

(1) Histoire de l'humanité, p. 494

(3) احمد بن زيني دحلان الفتوحات الاسلامية ، ج 2 ، ص 203 .

(4) Ch. A. Julien, Histoire de l'Afrique, pp. 83-85

تحسين علاقاتهم بها كما فعل . وبكلمة مختصرة ، التطور العالمي ، بل لا جدال في ان احمد المنصور فان احمد المنصور كان يعيش عصره بالقياس الى كان يتفوق كرجل دولة ، على معظم معاصريه اذا لم يفقهم جميعا فيما ضمته شخصيته من مميزات تكاد لا تتوفر مجتمعة في شخصية ملك او رئيس دولة الا نادرا .

ومن صدف القدر ، ان المجتمع المغربي كان يعيش احدى الفترات الفريدة في تاريخه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ؛ فان الاحتلال الاسباني والبرتغالي اذكى حماسا شعبيا عظيما لدى السكان ، على الرغم من ان احمد المنصور هادن البرتغال والاسبان عوض ان يواصل تحرير الجيوب الباقية بين ايديهم ، لان طموحه كان يهدف الى مهاجمتهم في عقر دارهم . ثم امتدت حركة التعليم الى جهات نائية بفضل الاسهام الواسع لاوساط المجتمع نفسها . وهناك وعي سياسي نلمسه في كتابات المؤرخين والقصائد الشعرية ، كما ان المشاركة الشعبية التلقائية في حرب وادي المخازن ما هي الا تعبير عن هذا الوعي الوطني الذي كان ينتظر مثل هذه الفرصة ليتفجر ضد الهجوم الخطير الذي أعده البرتغال وحلفاؤهم .

ولاول مرة في تاريخ المغرب الاسلامي شهدت مراكز عديدة توسعا بالغ الاهمية في نشاطها الاقتصادي لم تشهده قط من قبل ، مثل أزمور وآسفي وتارودانت وتوات وشيشاوة ومراكز أخرى عديدة بالداخل وفي الصحراء الجنوبية والشرقية . واحاط المنصور الذهبي نفسه بجملة من القادة والمثقفين ورجال السياسة المحنكين ، فكان المجتمع المغربي ينظر اليه كمثال للعاهل المصلح ويتجاوب في مجموعه مع حركته الاصلاحية التي شملت العديد من الميادين .

طور الدراسة :

ولد أحمد المنصور بفاس سنة 956 هـ/1549م وقضى شطرا من طفولته بقرية امسكرود بسوس .

وحصل أحمد المنصور في طور الدراسة على معارف جمة يبدو أنه تلقاها في اكثر من مركز علمي ، ولا سيما بتارودانت ومراكش وفاس ، وكلها تنقل بينها مع والده ؛ باشراف اسرته . وشملت دراسته علوم اللغة والادب والتاريخ والتراجم والفقه والحديث والمنطق والبلاغة والفلك والرياضيات والمنطق والاصول والتفسير (5) ، ومن ابرز اساتذته ، أبو العباس احمد بن علي المنجور المعروف بثقافته الموسوعية وعنه تلقى المنصور المنطق وعلم الكلام والنحو والبلاغة ؛ وشقرون بن هبة الله الوهراني نزيل مراكش الذي درس عليه المنصور الفقه والتفسير وغيرهما ؛ وبفاس استكمل تكوينه على يد شخصيات علمية ذات مكانة ، خصوصا ابا زكرياء يحيى السراج (6) . ومن بين معلميه الاولين : محمد ابن يوسف الدرعي وسليمان بن ابراهيم وموسى الروداني (7) .

وتولى بنفسه دراسة الهندسة مباشرة من كتاب اقليدس (8) . ومع تعدد التزاماته وضخامتها كملك ، فقد شارك في التاليف والكتابة ايضا ، ومن بين مؤلفاته :

1 — المعارف ، في كل ما تحتاج الخلائف ، وهو كتاب في تدبير سياسة الدولة ، وصفه المقري بأنه لا نظير له (9) . ويتناول على الخصوص ، الطرق التقنية والعلمية لصناعة الاسلحة والقنابل والمتفجرات وبناء التحصينات الى جانب الستراتيجية العسكرية (10) . وبالنظر لسرية الموضوع ، فمن المراجع ان هذا التاليف لم يكن متداولا .

2 — مؤلف في معالجة الحديث النبوي : نحن معاشر الانبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة . علق عليه

---

(5) مقري ، روضة الآس ، العطرة الانفاس ، ص 34 . الافرني ، نزهة الحادي ، ترجمة هوداس، ص 216
(6) نزهة 216 — 217 . مقري ، روضة ، ص 34
(7) نزهة ، ص 216
(8) روضة ، ص 35 ، نزهة ، ص 217
(9) مقري ، روضة ، ص 57
(10) نفس المصدر

بعض من اطلع عليه بأنه أزاح اشكالات المثالة كلها(11)
3 — انتاج أدبي شعري يتميز بالرقة أحيانـــ وبالمحسنات البديعية اخرى (12) .

وقد تناولت عدة مصادر معاصرة ولاحقـــة ، ترجمة المنصور الذهبي ولكنها على العموم تتنـــاول شخصية هذا العاهل بعرض تقليدي لا يتجاوز بعض المبرات والمنجزات المعمارية وتعداد الانتصـــارات العسكرية من غير عمـــق ولا استيفـــاء ولا مجـــرد الالتفات الى نقط أساسية كالسياســـة الخارجيـــة والاقتصادية (14 .

الخبرات السياسية قبل الملك :

كان لمحمد المهدي الشيخ عدة أولاد ، أشهرهم عبد الله الغالب ، وعبد الملك المعتصـــم ، واحمـــد المنصور ، وكلهم تولوا الملك على التوالي . وعندما توفى محمد المهدي الشيخ سنة 964 هـ / 1557 م وخلفه نجله عبد الله الغالب ، كان احمد المنصور لا يتجاوز عمره الثامنة . ويبدو ان أقرب الناس اليه من أسرته واكثرهم ارتباطا به منذ هذا التاريخ ، همـــا والدته مسعودة الوزكيتية البربرية ، والمعروفة لدى الاوساط الشعبية بلالا عودة . وقد عرفت بمبراتهـــا الوقفية بمراكش خاصة ، ثم أخوه عبد الملك وهو أكبر منه ، وامه عربية من الرحامنة . فالى أن شب عود احمد واستكمل أكبر شطر من دراسته الاساسية، ظل على اتصال مستمر بوالدته واخيه عبد الملك ، يتتبع معهما ما يجري من تطورات سياسية بعيدا عن القصر الملكي بمراكش . ولكن هناك فترة معينـــة قضاها المنصور فى الجزائر مع اخيه عبد الملك ، واخ آخر اسمه عبد المومن ، وذلك بمجرد اغتيال محمد الشيخ واعلان بيعة عبد الله الغالب (15) ، فقد التجا الثلاثة الى الجزائر ، واحمد لا يزال صبيـــا . وبينما تم اغتيال عبد المومن بجامع تلمسان (16) ، انتظر عبد الملك الفرصة للاتصال بالخليفة العثماني فى القسطنطينية . أما احمد ، فقد عاد فى ظروف غامضة لمواصلة دراسته ، لاننا نراه يتلقى عن هبة الله الوهراني وهو من العلماء المهاجرين فى عهد عبد الله الغالـــب .

كذلك لا نعرف متى عاد احمد المنصور ليستقر لمدة طويلة هذه المرة بالجزائر مع اخيه ، فما بيـــن تولية الغالب ووفاته قد استغرق سبع عشرة سنـــة وشح خلالها محمد المتوكل ابن عبد الملك الغالـــب لولاية العهد حيث استقر بفاس ، وكـــان من عـــادة الملوك السعديين أن يعينوا ولي العهد نائبا بفـــاس ، تقديرا لمكانتها التاريخية والاجتماعية ؛ وهناك يتاح لولي العهد أن يتلقى تجارب كافيـــة فى ممارســـة السلطة . وكيفما كان الامر ، فان ترشيح المتوكل هو اقصاء رسمي لعبد الملك عن ولاية العهد (17) . ولا شك أن هذا الاجراء الذي لا تحـــدد المصـــادر المتوفرة تاريخا له ، جعل من التحاق احمد بأخيـــه عبد الملك أمرا لا مناص منه .

ومن الواضح أن عبد الملك كان على اتصـــال مستمر بالولاة الاتراك فى الجزائر يراودهم من أجل مساعدته على اقصاء الغالب دون جدوى . ومـــن الواضح أيضا ، أن احمد المنصور كأخيـــه ، قـــد استفاد من مقامه الطويل بالمغرب الاوسط ، فيمـــا يرجع الى التعرف على التنظيمات الادارية والعسكرية التركية . وما كاد النبأ يصل الى الاخوين عن وفـــاة عبد الله الغالب سنة 981 هـ / 1575 م حتى هبـــا الى القسطنطينية يحاولان اقناع السلطـــان سليـــم بأحقيتهما فى قيادة عرش المغرب تباعا . ورافقتهما أم المنصور ، مسعودة الوزكيتية . وحيث لم يحصلا

(11) الفشتالي ، مناهل الصفا ، تحقيق كنون ، ص 215 — 216
(12) روضـــة ، ص 57
(13) انظر : م. س. ص 36 — 57
(14) من بين هذه المراجع : المنتقى المقصور ، لابن القاضي ، مناهل الصفا للفشتالي ، روضة الآس للمقري ، نزهة الحادي للافراني ، لمحة فى تاريخ دولة الشرفاء لابي زيد الفاسي وهـــو لا يـــزال مخطوطا . تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي . الاستقصا للناصري .الترجمان المعرب للزياني. الاعلام لعباس بن ابراهيم المراكشي ، ج 2 ، طبعة اولى ، ص 46 — 69 .
(15) نزهـــة ، ص 105 .
(16) Cour, Etablissement de la dynastie des Chérifs, p. 102
(17) Decastries, sourceinédites, France, 1448

على طائل ، واكتفى السلطان العثماني باحالتهما على حاكم الجزائر ، فقد طلبا منه ان يسمح لهما بالمشاركة فى الدفاع عن تونس التي هاجمها الاسبان سنة 1574 ، فوافق على رغبتهما ، ثم شهدا معركة حلق الوادي التي تم فيها سحق الاسطول الاسباني ، فاسرعا يبشران قبل غيرهما ، الخليفة العثماني بهذا الانتصار ، فوجدا خلفه مراد الثالث (1574 ـ 1595) قد تولى مكانه بعد وفاة سليم (18) ، فابتهج للنبا ، والحا عليه فى مساعدتهما على اقصاء المتوكل ابن اخيهما ، وتدخلت سحابة الرحمانية ام عبد الملك ، التي اقنعت الخليفة مراد بالنتائج الايجابية المنتظرة للتدخل العثماني . وفعلا ، تم الاتفاق على ان تتوجه النجدات التركية من الجزائر ، على ان يتولى الاميران المغربيان تعويضهما ماديا بمجرد تحقيق انتصارات أولية .

وعند وصولهما الى الجزائر ، أجرى عبد الملك اتصالات سرية عن طريق المراسلة (19) مع قائد الفرقة الاندلسية العاملة فى جيش المتوكل ، حتى تنضم بصورة مفاجئة الى جيشه عند ما يتم الصدام بين الطرفين . وفعلا تم انسحاب الفرقة الاندلسية بقيادة سعيد بن فرج الدغالي ، وانهزم المتوكل ، كما تم للمعتصم والمنصور دخول فاس منتصرين بفضل المعونة التركية . ثم انسحبت الفرقة التركية بعد اداء تعويضها من أموال الخواص بفاس . وتولى عبد الملك العرش سنة 983 هـ / 1575 م ، وبقي أحمد المنصور ملازما له فى تعقب المتوكل ، ثم فى مجابهة خليفه سباستيان . وقبل ايام قليلة من هذه المجابهة ، مرض عبد الملك بالكوليرا على يحتمل (20) وهي مرض وبائي تسلط على المغرب وبلدان اخرى خلال القرنين 16 ـ 17 م . وكان أحمد المنصور يعمل فى هذه الاثناء بتعاون مع القائد رضوان التركي الذي رافق عبد الملك من تركيا وقد اتخذه حاجبا له ومستشارا عسكريا . وكان المنصور لشدة حساسيته يلاحظ بكامل هدوئه واتزانه ما يبدو من مظاهر النفوذ الشخصي البالغ الذي كان يفرضه هذا القائد على الجيش . بل ان هناك رواية تشير الى انه هو الذي سم عبد الملك (21) . وعلى اية حال ، فقد كان رضوان بعد نهاية معركة وادي المخازن يبدي استياءه علانية امام الحاشية الملكية ، من كون أحمد المنصور لا يهتم بمكافاته . وهذا ما جعل المنصور يعدمه (22)

وقد بويع العاهل السعدي الجديد اثر اعلان انتصار الطرف المغربي فى معركة وادي المخازن ، وموت الملك السابق عبد الملك فى 30 جمادى الاولى 986 هـ موافق 4 غشت 1578 ؛ ثم جددت بيعته بفاس التي كان احمد المنصور احرص الملوك السعديين على ولائها .

وبدت حنكة المنصور الذهبي فى هذا التدبير الناجح ، مثلما بدت فى اشعاره لعدد من الملوك ، بانتصار الطرف الاسلامي فى معركة وادي المخازن ، بمجرد ان تحقق هذا الانتصار الذي سرعان ما توافدت البعثات الرسمية من القسطنطينية والجزائر وتونس وفرنسا واسبانيا لتهنئه به (23) ، وعوض ان يعجل السير الى مراكش فضل ان يتريث بفاس التي بها تلقى تهاني الدول ، بعد ان تمت بيعته بها ايضا حيث حرض احمد المنصور على ان يكتب نص البيعة علماء هذه المدينة الذين سرعان ما التحق بهم اخوانهم المراكشيون الذين استدعوا الى فاس .

التنظيم السياسي والاداري :

عمل احمد المنصور الذهبي على انشاء جهاز اداري وسياسي قوي ، وهكذا كانت الحكومة التي انشاها تضم وزراء من مستوى ثقافي عال ، كابي فارس عبد العزيز الفشتالي وعبد العزيز المزوار . ولهم كتاب يدانونهم ثقافة وسعة افق ، ومنهم ابو عبد الله بن عيسى ومحمد بن عمر الشاوي وعلي بن احمد الشاوي ، وقيمة هذه الشخصيات الى جانب اطلاعها العميق على احوال السكان وسلوك السلطة الاقليمية والمعرفة بسير الاحوال خارج المغرب ، ولا سيما بالنسبة للدول التي لها ارتباط وثيق

---

(18) مؤلف مجهول : مختصر فى التاريخ ، مخطوط ، ص 265 . الافرني ، نزهة ، ص 105 .

(19) مؤلف مجهول ، ن. م. ص 267 .

(20) De Castries, Op. Cit. 537

(21) ابو زيد عبد الرحمن الفاسي ، لمحة فى تاريخ دولة الشرفاء ، ص 111 .

(22) المعسكري ، الخبر المعرب ، ص 361 .

(23) نزهة الحادي . مناهل الصفا

بالسياسة المغربية ، تكمن فى مقدرتها الفائقة فى ميدان تحرير الخطابات الملكية والمنشورات التي تهم البلطات الاقليمية والمحلية . غير ان احمد المنصور لم يدخل تعديلا يذكر على شكل الجهاز الحكومي ، بل لا يوجد تمييز دقيق بين مهام وزير وكاتب من مستوى عال . ومع ذلك ، فعناية احمد المنصور بضبط اعمال مساعديه تفوق عناية اسلافه من ملوك الدولة السعدية . فكان يحاسبهم على عدم المحافظة على اوقات العمل الرسمية ، والتأخر فى الرد على المراسلات الادارية والسياسية . ومن اعماله احداث حروف شيفرة لكتابة المراسلات السرية حتى لا يعرف فحواها اذا وقعت فى يد عدو. وكان اذا غادر احد ابنائه أو مساعديه الخلص ، العاصمة ، سلم اليه نسخة منها حتى يمكنه ان يفك بها رموز الخاطبات الملكية (24) .

واذا كانت الامبراطورية السعدية قد بلغت اقصى امتدادها فى عهد هذا العاهل فان ذلك كلف الخزينة اموالا طائلة بسبب احداث عدد كبير من العمالات والمناصب الادارية والقضائية ، فضلا عن الزيادة فى عدد القوات النظامية والمكلفة بحماية الامن الداخلي وما يتطلب ذلك من تسليحها ورواتبها وغير ذلك .

وباستثناء بعض الجهات التي كانت تدين بالولاء للسلطان السعدي وتحتفظ باستقلالها الذاتي فى اماكن نائية ن الامبراطورية ، فان جميع الجهات الاخرى زودت بأجهزة ادارية يعين المسؤولون عنها فى الغالب من المناطق الجنوبية القريبة نسبيا الى العاصمة ، كبعض العناصر السوسية والدرعية والفيلالية . وعلى العموم فقد تميز عهد المنصور الذهبي بتقسيم جديد للمناطق الادارية التي تتميز بضخامة رقعتها . واستمر هذا التقسيم من سنة 1585 الى 1670 ، اي الى حين انهيار الدولة السعدية وقيام العلويين ، بقطع النظر عما وقع من تمزق فى السلطة وتوزعها بين عدد من الاشخاص والحركات الثائرة . وهكذا كان التقسيم المذكور (25):

1 – مراكش ويدخل معها حاحا ودكالة ودمنات واجزاء اخرى .
2 – سوس .
3– تادلا .
4 – تامسنا ، وقد اطلق على القسم الشمالي منها اسم الشاوية منذ العصر الوطاسي (26) .
5 – فاس ، وتشمل مناطق الحوز والريف والهبط ، وكرت (بفتح الكاف المعقودة والراء) ، وهي تضم ناحيتي الناضور والحسيمة والصحراء الشرقية .
6 – درعة .
7– تافيلالت .
8 – كوورارا .

وبالنسبة لاقاليم السودان بافريقيا الغربية كان القواد العسكريون مسؤولين اداريين ، لكن الامراء والزعماء المحليين ظلوا يمارسون سلطتهم المباشرة بتعاون مع هؤلاء ، وذلك على الرغم من أن سلطة الامراء المحليين كانت رمزية أكثر منها واقعية .

اما الحدود الشرقية فلم يتم تحديدها قط مع الحكام الاتراك فى العهد السعدي بالرغم من محاولات الباب العالي لتخطيطها فى عهد محمد المهدي الشيخ (27) .

وتميزت فاس كما سبق ، بتعيين نائب عن السلطان السعدي بها ، وهو محمد المامون الذي تم ترشيحه لولاية العهد بعد قليل من تنصيب المنصور، وعلى اثر مرض خشي العاهل عواقبه (28) . ويحمل ولي العهد لقب خليفة السلطان ، وهو يحظى بنفس الامتيازات التي للملك تقريبا ، فله حاجبه ووزيره وكتابه وحرسه الخاص وقائد مشور وجهاز قضائي وجيش مسلح وتبادل سياسي مع الخارج .

ومن مبتكرات المنصور الذهبي فى طرق البيعة لولي العهد ، ان يؤدي المبايعون يمين البيعة امام كتاب الله وصحيحي البخاري ومسلم (29) . وبذلك يكون استعمال الصحيحين او احدهما ليمين البيعة ، سابقا

(24) فشتالي ، مناهل ، ص 161 (تحقيق كنون). **افرني ، نزهة ، ص 202 – 203 .**
(25) Massignon, Le Maroc dans les premières années du 16ᵉ siècles, p. 171
(26) R. Ricard, Le Makhzen et le Maroc, p. 129
(27) افرني ، نزهة ، ص 78 .
(28) فشتالي ، مناهل ، ص 26 .
(29) نزهة ، ص 174 . وانظر ترتيبات البيعة فى المناهل ، ص 32 – 53 .

لعهد السلطان مولاي اسماعيل بما يناهز قرنا ، فقد اشتهر ان الجيش الافريقي الذي نظمه السلطان العلوي كان يؤدي اليمين على صحيح البخاري وبذلك سموا عبيد البخاري .

ومن المناصب العليا في بلاط المنصور الذهبي منصب المزوار أو الحاجب ومن ابرز الذين تولوا في عهده عزوز بن سعيد الوزكيتي (30) . وعلى العموم ، كان مقام الحاجب في الدولة السعدية دونه لدى دول مغربية اخرى سابقة ، كما كان الامر عند الحفصيين او المرينيين أو الامويين او ملوك الطوائف بالاندلس .

ومن المناصب العليا ايضا ، منصب امين المال وقهرمان القصر ، وقد تولاه محمود باشا القائد العسكري الذي اسندت اليه فيما بعد قيادة الجيش الموجه لفتح السودان .

واذا كان القضاء المغربي قد تمتع بسمعة رفيعة عبر التاريخ الاسلامي فان قضاة الدولة السعدية والقضاء في العهد السعدي عرف اجمل حقبة له ايام المنصور الذهبي بالذات (31) . وهكذا كانت مسؤوليات القضاة محترمة لاتتدخل فيها السلطة التنفيذية . وكان في المستوى الاعلى لهذه المستويات ، قضاء المظالم الذي كان يمارسه العاهل السعدي نفسه مع وجود ديوان للمظالم كانت مهامه تقنية ادارية اكثر منها قضائية . وقد قارن مؤرخ فرنسي كبير من رجالات القرن الماضي بين القضاء الاوروبي والقضاء المغربي في القرنين 16 — 17 م (11 — 12 هـ) فقال : (32) « في الوقت الذي كانت اوروبا في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وخدمهم بحق الحكم في عدد من القضايا ، فان الملوك السعديين لا ينظرون الا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة . وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم ».

واحتفظت الدولة السعدية بنفس الهياكل القضائية المعروفة من قبل في الاندلس ودول المغرب الكبير : قاضي الجماعة بالعاصمة وبعض المدن الكبرى ، نائب القاضي ، المحتسب ، ناظر الاوقاف . ولكن لامراء في أن المنصور الذهبي كان احرص ملوك الدولة السعدية على النظر في المظالم ، حيث يراس مجلس المظالم في مقصورة جامع القصبة بمراكش ، بجوار قصره ، أو بضريح السعديين بنفس المكان . وما كان يتخلف عن هذه المهمة حتى ايام اجتماع الديوان الذي سياتي ايضاح دوره . واذا انتقل الى فاس حضر مجلس المظالم الذي تساهم فيه شخصيات قضائية او فقهية على مستوى عال من المعرفة بأحكام الفقه والقضاء كمحمد القصار وابي القاسم بن ابي نعيم (33) . ومع هذا لم يكتف المنصور بالنظر في المظالم ، بل أنشأ لجنة للمراقبة تتولى النظر بصفة دورية في مجرى القضاء بالاقاليم واوضاع الفئات الشعبية بوجه عام (34) وكان المنصور يدرس تقاريرهم بعناية حتى يتتبع سير الاحكام والادارة بمملكته .

ومن أبرز قضاة الجماعة في عهد المنصور الذهبي ، ابو القاسم علي بن مسعود الشطيبي وعيسى ابن عبد الرحمن السكتاني وكلاهما بمراكش ؛ والاول جمع بين الخطابة والتدريس والقضاء (35) ؛ وابو مالك عبد الواحد الحامدي بفاس ، وكان يرجع الى آرائه في الفقه المالكي ، وهو من شيوخ ابي المحاسن الفاسي وابن أبي نعيم (36) ، واتهمه ابن القاضي في تعليق له على نسخة من جذوة الاقتباس التي هو مؤلفها انه كان يفتي بما تمليه عليه شهوته ، وأنه كان مع هذا يحفظ الفقه المالكي عن ظهر قلب (37) .

---

(30) مناهل ، ص 25 .

(31) من بين المراجع التي اهتمت بتراجم قضاة العهد السعدي : ابن القاضي ، درة الحجال . افرني، صفوة من انتشر . نزهة الحادي . وهناك مؤلفات محدثة منها : عباس المراكشي ، الاعلام . ابن علي الدكالي : اتحاف أشراف الملا . محمد داود ، تاريخ تطوان .

(32) Lavisse, Histoire générale, 4, 141

(33) مراكشي ، اعلام ، ج 4 ، ص 265 طبعة اولى

(34) ابن القاضي ، المنتقى المقصور . مخطوط ،خ. ع. الرباط ، و. 62 .

(35) افرني ، صفوة من انتشر ، و. 50 . ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 1338 . قادري ، نشر المثاني ، ج 1 ، ص 24 .

(36) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس . الافرني ، صفوة . و. 48 . الكتاني ، سلوة الانفاس ج 2 ، ص 60

(37) افرني . م. س .

واحدث المنصور الذهبي لاول مرة فى العهد السعدي منصبا لقاضي القضاة خصصه للسودان نظرا لبعد المسافة بينها وبين العاصمة ، ويستقر هذا القاضي السامي بتومبوكتو ، واول من عين به ابو جعفر العاقل الصنهاجي الذي هو مواطن سوداني. وكان تحت نظره سائر قضاة السودان (38) .

على أن اهم تجديد سياسي ادخله أحمد المنصور الذهبي ، هو بدون شك ، احداث مجلس استشاري له تنظيمات قارة واختصاصات محددة ، وقد سماه بالديوان أو مجلس الملأ ؛ وكانت اختصاصاته سياسية قضائية عسكرية ، وهو معين غير منتخب ، ولكنه يتميز بكونه يمثل مختلف الفئات الاجتماعية على وجه التقريب ، ففيه قادة عسكريون ووزراء وقضاة وفقهاء وزعماء شعبيون وغيرهم . وهو مستمد من الديوان التركي الذي كان موجودا بكل من الجزائر وتونس ، وكانت مهمته الاساسية مراقبة نشاط الباشا اى الوالي العام . وتزويد الباب العالي بكل المعلومات الضرورية عن سير الامور فى «الايالة» وكان الديوان التركي الى ذلك ، اعلى هيئة قضائية ، حيث ترد اليه أحكام القضاة ، فضلا عن اهتمامه بالمسائل الادارية والسياسية والخارجية (39) . وكان المنصور يعتبره أعلى مرجع قانوني للبلاد ، ويتنازل لاحكام قضاته ولو كانت لغير صالحة (40) . وعندما يقتضي الامر استشارات على نطاق شعبي واسع ، يضاف الى الديوان عناصر تمثيلية من مختلف المدن والمراكز القروية الكبرى (41) .

ونوه المؤرخ لافيس بمزايا هذا الديوان المغربي فى وقت كان « ما يزال فى أوروبا عصر الملكية المطلقة . فبالرغم من انشاء مجالس ملكية لمساعدة الملك فى مهامه ، يظل القول الفصل للعاهل (42) ».

تنظيم الجيش :

شهد الجيش المغربي أكثر من تغيير فى هياكله وعناصره حتى وفاة المنصور الذهبي . وهذا بالنسبة للدولة السعدية . وآخر تغيير جذري شهده الجيش هو ما تم فى عهد عبد الملك المعتصم الذي اطلق عليه ايضا لقب الغازي . وقد ضم هذا الجيش عناصر من مرتزقة الاتراك والعلوج بالاضافة الى وحدات اندلسية وعناصر وطنية من البربر والقبائل العربية (43) .

وجعل احمد المنصور من الاتراك وحدة مستقلة بعد أن كانوا ايام سلفه ضمن فرقة تجمع صعاليك واعلاجا من اجناس مختلفة . وهكذا أدمج المنصور الوحدات الاندلسية والعلوج وهم على العموم مسيحيون من أوروبا يدخلون غالبا فى دين الاسلام ، فى فريق واحد مع سائر الوحدات الوطنية التي تساهم فى العمليات الحربية . ويزودنا أبو فارس الفشتالي بمعلومات دقيقة عن الحرس الخاص الذي كونه المنصور من الاتراك (44) ، ولذلك يمكن الرجوع اليه فى هذا المضمار .

وحظي الجيش المغربي فى عهد أحمد المنصور بقادة ذوي كفاءة عسكرية عالية . ومن بين القادة الوطنيين ، ابراهيم بن محمد السفياني ، وهو الذي قاد الجبهة الامامية فى حرب وادي المخازن ، كما قام بدور كبير فى ردع القبائل الثائرة وقطاع الطرق والعناصر المناهضة للنظام السعدي (45) . ومن القادة البارزين فى حملة توات وتيكورارين احمد بن

---

(38) نزهة ، ص 279 .

(39) Mercier, l'Afrique septentrionale, 3,134

(40) مناهل ، ص 142 — 144 .

(41) ابن القاضي ، لقط الفرائد . مخطوط ، خ. ع. ص 178 .

(42) Lavisse, Op. Cit. p. 140

(43) الزياني ، ترجمان معرب . مخطوط خ. ع. الرباط ، ص 350 وما بعدها . وانظر :
De Castries, Sources inédites, France, 1,452 — 453
Champion, Le Maroc et ses villes d'art p. 109
Dziubinsky, Hespérius, V. 18
Deverdun, Marrakech, 1,144

(44) فشتالي ، م. س. ص 162 — 163 .

(45) ابن العياشي ، زهر البستان ، ص 92 ، 99 ، 104 .

بركة واحمد الحداد الغمري المعقلـــي (46) ، وفي معركة وادي المخازن : محمد ابو طيبة واحمد بـــن موسى ومحمد بن موسى وأبو علي القوري .

ومن كبار القادة العلوج : محمود باشا واخوه جؤذر باشا وعلوج قائد فرقة العلوج ، كما ان مـــن ابرز الضباط الاتراك : بختيار وبقا .

وتمثل حملة السودان اوج التنظيمات العسكرية التي كلفت الدولة ثلاث سنوات من الاستعدادات . ولم يكن مجموع عناصر الحملة يتجاوز 22 الفا (47) هلك قسم كبير منهم أثناء تنقلاتهم عبر الصحاري(48) وبلغ عدد البحارة ورجال المدفعية فى نطاق العدد المذكور الفين (49) ...

ويصحب الجيش فى الحملات الكبرى عدد من التقنين المتخصصين فى ميادين معينة ، كالنجـارة والحدادة والبناء . وهناك وحدات طبية حقيقيـة تتألف من جراحين وحلاقين بأوعيتهم وادويتهم من مراهم وضمانات وخيـام لاستقبـال الجرحـى والمرضى (50) .

اما الاسلحة فأهمها البنـادق « المكاحـل » والمدافع والمتفجرات . وقد بدأ استعمال البنادق فى وقت مبكر من العهد الوطاسي (قرن 15/9) كما استخدمت المدفعية فى هذا العهد ايضا ، كذلك نرى السعديين يستخدمون المدفعية فى حصار آسفـي سنة 941 هـ / 1534 م وفى طرد البرتغال من أكادير واذا كانت المدافع تجلب من الخارج او يحصل عليها من بين الاسلحة التي تخلى عنها البرتغال فى الاماكن التي انجلوا عنها فقد شعر السعديون بضرورة صنع مدافع وطنية ، وبدأ انجاز المشرع فعلا سنة 946هـ/ 1539 بعد اكتشاف معدن هام للنحاس فى الاطلس الكبير (51) . وهكذا انشئت ترسانـة للمدفعيـة بمراكش على يد موريسكي من مدريد ، بينما كانـت صناعة البارود موجودة بنفس المكان من أوائل أيام الدولة . وقام محمد المهدي بعمل مماثل فى فـاس وتارودانت .

واهتم المنصور بصناعة المدافع التي وصـف الفشتالي ترساناتها وصفا دقيقـا (52) وسماهـا « دار العـدة » .

وبلغ الاسطول اوجه فى عهد المنصور بعد ان شهد اهتماما بالغا من لدن المهـدي الذي راقـب سواحل الشمال باستمرار .

اما احمد المنصور فقام بانشاء اسطول بكل من العرائش وسلا التي استخدمـت بهـا الترسانـة الموحدية (53) . وبلغت قطع الاسطول 40 فى عهد السلطانين : الغالب والمعتصم . واغلب الظن أن هذا العدد قد ارتفع كثيرا فى عهـد احمد المنصـور . وساهمت وحدات الاسطول الخفيفة فى العمليـات العسكرية فى الجزر الصغيرة المنبثة بنهر النيجير والذي طالما اعتبره الرحالة والجغرافيون القدامـى امتدادا لنهر النيل (54) . وقد تم صنع القطع المعدة لهذا الغرض فى عين المكان بفضل التقنيين والمواد والآلات التي رافقتهم (55) .

وفى نطاق الاستحكامات الدفاعيـة ومراكـز المراقبة ، تمت الاستفادة قبـل كـل شيء مـن التحصينات التي تركها البرتغال فى آسفي وأصيـلا ومراكز اخرى كثيرة ، بالاضافة الى مجموعة كبيـرة من القصبات تم انشاؤها منذ عهد محمد المهـدي الشيخ (56) . كما استخدمت التحصينات والقصبات السليمة البناء مما يعود الى عهود سابقـة . ومـن الواضح ان استخدام اسلحة ثقيلة كالمدافع والمهاريز تطلب تحويرا جذريا فى هندسة الحصـون التـي

(46) نزهـة ، ص 154 .
(47) الزياني . ترجمان ، ص 354 .
(48) باذل دافيدسن ، افريقيا تحت اضواء جديدة، ص 180 .
(49) الزيانـي ، ن. م. وص .
(50) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعديـة التاكمدارتية ، ص 51 . وانظر Dziubinski, Op. Cit.
(51) Ibid.
(52) مناهـل ، ص 246 .
(653) م. م. تاريخ الدولة السعدية ص 53 . زياني ، ترجمان ، ص 364 .
(54) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 858 .
(55) الفشتالي ، مناهل ، ص 83 .
(56) ترجمان ، ص 364 . Dziubinski, Op. Cit. 364

تستعمل بها هذه الاسلحة ، كما اصبحت هذه الحصون تتوفر على اهراء للذخائر .

وفي عهد احمد المنصور تم بناء برجين بفاس ولا يزالان قائمين ؛ احدهما بباب عجيسة (الجيسة) والثاني خارج باب ابي الفتوح وسمي برج النور وقد بني على شكل نجمة رباعية ، وله نظير بالعرائش بني سنة 1582 م (57) ولكنه خضع لتعديلات بعد السعديين (58) . اما برج النور بفاس فقد وقع ترميمه كليا قبل سنوات ، وحول الى متحف للفنون التقليدية ، خاصة الاسلحة . ويحتوي كل من البرجين السعديين بفاس على منزل القائد الحامية التي تسكن في عين المكان ايضا ، وبهما آبار ومستودع للسلاح ومدافع نصبت على سطوحهما (59) .

وشيدت بتازا قلعة قبل نهاية القرن 10 / 16 عند الجنوب الشرقي للمدينة . وكان الفرض منها مراقبة التحركات المعادية المحتملة والتي تنطلق من الجزائر . وهي مربعة الشكل ، وتشتمل على صور مضبوغة تمثل مراكب اوروبية وجهادية (60) .

اقرار الامن ، والعمل العسكري :

ان اعادة تنظيم الجيش وانشاء جهاز لمراقبة تصرفات الولاة والقضاء وتتبع احوال الامن في البلاد بصورة دقيقة ، لم يمنع من حدوث اضطرابات شعبية محلية او ثورات واسعة المدى تمالات فيها جهات معينة مع امراء سعديين مناهضين لسلطة احمد المنصور . واهم هذه الاضطرابات والثورات :

1 ـ ثورة داود بن عبد المومن بن محمد المهدي الشيخ سنة 987 / 1579 ، وقد اندلعت مباشرة بعد اعلان بيعة محمد المامون وليا للعهد . ولا جرم ان اكبر خطا سياسي داخلي ارتكبه النظام السعدي في مجموعه ، هو اسناد ولاية العهد لهذا الامير الطائش ، والذي افسد في سنوات ، ما بنته الدولة طيلة قرون . واذا كان احمد المنصور قد حرص على ضمان الاستقرار للنظام السعدي بترشيح ولي للعهد بعد سنة واحدة من توليته ، فان اختيار محمد المامون بالذات لم يكن مصيبا على الرغم من ان الاقتراح جاء بمبادرة من بعض الوزراء والمستشارين (61) . وقد ساندت ثورة داود قبائل سكسيوة وهوزالة . لكن تم اخضاعها بفضل القائد محمد بن ابراهيم الذي تعقب الامير الثائر حتى التجا الى بني معقل حيث توفي سنة 988 هـ .

2 ـ ثورة قبيلة الخلط التي رفضت المساهمة في حروب الصحراء الجنوبية الشرقية وقد تم تجريد هذه القبيلة من الخيل والسلاح ، وهي من القبائل التي وجدت جميع الانظمة الحاكمة بالمغرب منذ العصر الموحدي مشقة كبيرة في ضمان ولائها للسلطة باستمرار . وكان غزو الصحراء المذكورة سنة 991 هـ / 1583 م .

3 ـ ثورة غمارة بزعامة الحاج قرقوش . وبالنظر لعزلتها الجغرافية ووضعيتها الاقتصادية ، فقد شهدت هذه المنطقة اضطرابات تتجدد عبر عصور التاريخ من ايام الاحتلال الروماني . وقد تم قتل هذا الثائر في ظروف غامضة (62) فيما بين سنتي : 993 ـ 996 هـ / 1588 .

4 ـ ثورة الناصر بن عبد الله الغالب سنة 1003 هـ / 1594 م ، وكان من الامراء اللاجئين الى اسبانيا بعد معركة وادي الخازن . وفي محاولة من الاسبان لعرقلة تحركات المنصور وسياسته في افريقيا الغربية شجعوا ثورة الناصر هذا ضد عمه احمد المنصور ، وايدته قبائل الريف وسكان تازا ومكناس . على أن الناصر تم سحق ثورته بقيادة محمد المامون ، واعدم سنة 1005 هـ / 1596 م .

---

(57) Benoit, l'Afrique Méditerranéenne, p. 68

(58) G. Marçais, Manuel d'art musulman, p. 730

(59) مناهل ، ص 183 . وتحدث الفشتالي عن حصن العرائش الذي سمي حصن الفتح؛ص 34 و184

(60) انظر بشأن هذه القلعة :

— Henri Basset, Architecture berbère, 3,109
— Benoit, Op. Cit. p. 69.
— Marçais, Manuel, 2,728, Architecture musulmane, pp. 405-406

(61) مناهل ، ص 28 .

(62) ن. م. ص 46 .

ومن الواضح ان اندلاع الثورة في الشمال على نطاق واسع ، كانت وراءه اليد الاسبانية مثلما تم اكثر من مرة قبل هذا التاريخ وبعده .

5 ـ ثورة ولي العهد محمد المامون سنة 1001 هـ / 1592 م وكانت له رغبة في اقصاء والده من العرش ليتولى مكانه قبل الاوان . وقد انطلقت هذه الثورة من فاس نفسها حيث اقر المامون خليفة لوالده سنة 992 هـ / 1584 م . وبعد محاولات متوالية من المنصور لاقناع نجله بالتخلي عن مغامراته السياسية واللا اخلاقية (63) ، حيث كان معروفا بتهتكه ومظالمه في الاوساط الاجتماعية ، جرد المنصور حملة لاخضاعه تم اعتقله بمكناس ، ومنها نقل الى مراكش بعد وفاة والد (64) . على ان خطورة تصرفات المامون وعواقبها السيئة تجلت بعد وفاة المنصور مباشرة سنة 1012 هـ / 1603 م عندما اطلق ابو فارس سراح اخيه هذا رغبة منه في مساعدته على اعتلاء العرش مكان زيدان احد الاخوة الثلاثة الذين واجه بعضهم بعضا في حروب سالت فيها دماء الآلاف من الضحايا ، وانتهبت اموال الخزينة ، وانهدم كليا ، ذلك العمل الشامخ الذي رفع دعائمه احمد المنصور واسلافه .

وفي كل هذه الثورات برهن الجيش الوطني بقيادة ضباطه الاكفاء عن روح انضباط عالية وكفاءة في ممارسة مهماته العسكرية . وكان احمد المنصور يعمل على تلافي كل اصطدام مع السلطات التركية المجاورة . غير انه فكر في اخضاع مناطق توات وتيكورارين (كورارا) للسلطة المغربية ، وكانت هذه المناطق فيما سبق تتمتع بحكم ذاتي ، ولكنها تدين بالولاء للملوك المغاربة . وعلى الرغم من اننا لا نعرف على وجه الدقة الظروف التي ادت الى تدخل القوات المغربية مباشرة في هذه المناطق . فان لدينا فقرة بالغة الاهمية ، من خطاب الاشعار بالتدخل الذي وجهه المنصور الى زعماء الجهات المذكورة ، سنة 991 هـ / 1583 ، وهذه الفقرة تقول :

« ... والذي اوجبه اليكم اكرمكم الله بتقواه ، ووفقكم لما يحبه ويرضاه، اعلامكم انه لما كانت تلكم البلاد من اجل ممالكنا التي لها عندنا الخطر والبال ، ونتوجه اليها بوجه الايثار والاهتبال ، ونحمي حماها من طوارق البغي والفساد باستئصال شوكة اهل البغي والعناد ، وحسم ادواء الاشرار عن العباد ، وبسط العدل الذي يشمل ان شاء الله كل حاضر وباد ... »

فهذه الفقرة تبين :

1 ـ ان المنطقة كانت تعاني من ظلم طبقة مستبدة .

2 ـ ان هذه المنطقة كانت تضم « اهل الغي والعناد » اى متمردين على النظام السعدي . اذ هناك فقرة اخرى تقول : « ... وقدمنا اليكم هذا الخطاب الكريم ، تعريفا لكم، واعلاما ان كل من اوى اليكم من اهل الفساد ، ورجع عن غيه وبغيه وحاد » الخ ...

الا ان عبد العزيز الفشتالي يقدم الينا حول الموضوع جملة من التفاصيل التي تلقي مزيدا من الضوء على التدخل السعدي في الصحراء ، وان كانت بحاجة الى استيفاء فيما يرجع الى الوضع الداخل لتوات وتيكورارين . وهكذا يعود الفشتالي بحق ، الى احداث ابعد من عهد المنصور ، حيث يشير الى لجوء احمد الاعرج الى المنطقة (تيكورارين) التي يستقر بها عرب معقل ، او عرب اليمن كما يسميهم الفشتالي وهؤلاء طاردوا احمد الاعرج ، بايعاز من اخيه محمد المهدي الذي لم يعمل مع ذلك على بسط نفوذه المباشر على المنطقة ، كما لم يفعل الغالب ايضا ، وهكذا تم ارسال جيش من مراكش بقيادة احمد بن الحداد الغمري (67) ومساعدة القائد بن بركة سنة 991 هـ وآخر من فاس بقيادة الوالي عامل

---

(63) انظر في الاستقصا 5 ، ص 170 وما بعدها مراسلة من احمد المنصور الى نجله محمد المامون في نصحه وتوجيهه ، ثم خطابا آخر الى ابي فارس نجل المنصور ايضا ، وخليفته بمراكش وهو يخبره بما حققه من ظفر على المامون .

(64) زياني ، ترجمان ، ص 365 .

(65) مجموعة « الوثائق » عدد 1 . مديرية الوثائق الملكية ، ، الرباط . ص 355 ، نقلا عن : « رسائل سعدية » للاستاذ ع. كنون .

(66) مناهل ، مطبوعات وزارة الاوقاف ، الرباط ، تحقيق د. كريم ، ص 74 .

(67) ن. م. ص 75 .

مكناس (68) . والتقى الجيشان بسجلماسة حيث توجها على التوالي الى تينميمون قاعدة تيكورارين ، ثم تمنطيط قاعدة توات . ويؤكد الفشتالي ان انقياد تينميمون ادى الى انقياد سائر تيكورارين ، أما توات، فتم اخضاعها بمساعدة عمر بن محمد اخي امير وارغلة لامه ؛ اي من غير عمليات عسكرية . ويبدو أن اكتساح المنطقة تطلب بعض الوقت ، نظرا لبعد المسافة وانتظار نتائج الخطابات الملكية الموجهة الى الزعماء المحليين ، حيث لم تتنه اجراءات انضمام الجهات المذكورة الا سنة 992 هـ / 1584 م (69). وجل المنطقة تم اخضاعه من غير حرب .

وبالنسبة لشنقيط ، فقد تم فتحها سنة 1544م فى عهد المهدي حيث وصل الجيش المغربي الى ادرار ، وكان المهدي يفكر فى توجيه حملة نحو غينيا ولكن استعدادات الطرف السوداني جعلته يعدل عن الفكرة (70) .

ان الطموح المتناهي الذي كان يذكي حماس كل من المهدي الشيخ وأحمد المنصور لمهاجمة اسبانيا والبرتغال وخوض غمار حرب حاسمة ضدهما كان من الاسباب الرئيسية التي حملتهما على الاتجاه جنوبا لضمان موارد لتمويل هذه الحرب المزمعة . ولذلك راينا محمد المهدي الشيخ يضع يده على ممالح تغازى التي هي أقرب الى المغرب منها الا الاراضي السودانية . وسنرى كيف ستتطور قضية هذه الممالح بين الطرف المغربي والطرف السوداني . وقد ظل المغرب يعتبر هذه الممالح داخلة فى نطاق سيادته (71) . أما اعادة فتح توات وتيكورارين ، فاعتبارا لان المنطقتين كانتا من قديم تحت السيادة المغربية ، وبالذات من القرن الخامس (11 م) ؛ وخروجهما لفترة قصيرة عن هذه السيادة لصالح حكم محلي غير مستقر ، ولا سيما منذ قيام السعديين الى ظهور أحمد المنصور الذهبي لم يمنع هذا العاهل من اعتبارهما داخلتين فى نطاق السيادة المغربية كما اتضح من الفقرة السابق ذكرها .

ومهما يكن من أمر ، فان عدم حل مشكل ممالح تغازى أدى الى حرب دامية مع جيرانه الذين يرتبط معهم قوميا بحكم أن القسم الاكبر منهم من عناصر صنهاجية أو مغربية .

وحيث ان المغرب مفتاح لافريقيا الغربية ، فان استيلاء البرتغال على سبتة سنة 1415 م ، جراهم على فتح الموانىء والمراكز الشاطئية على المحيط الاطلسي المغرب تباعا ، بل ان البرتغال ما لبثوا أن اتخذوا مباشرة بعد فتح سبتة ، خطة موازية لفتح مواقع هامة من افريقيا :

— جزر مادر سنة 1419 م
— الرأس الاخضر 1456 م
— سير اليوني 1460 م .

واستولت اسبانيا بدورها على جزر الخالدات سنة 1492 م . وهكذا بدات العناصر الاوروبية تتقاطر على سواحل افريقيا الغربية بحثا عن الذهب والرقيق ، حتى انشأ الفرنسيون والبريطانيون قبل نهاية القرن 15 م لهذا الغرض ، بعض المراكز قرب داكار الحالية (72) ، وفى افريقيا الغربية ، تجرا المغامرون الاوروبيون على التوغل فى مناطق تبعد بما يناهز 800 كم. عن الساحل (73) ، وانشاوا سلسلة ضخمة من الحصون والمصانع والمحطات على ساحل الذهب (74) ، كما انشأوا مراكز ببنين .

وكان الاوروبيون يستعملون كل الوسائل للاستلاء على الثروات والرقيق : التوسط ببعض زعماء القبائل ، وشراء ضمائرهم ، واستخدام القوة المسلحة بشكل بشع .

وقد اطلق الجغرافيون القدامى مصطلح السودان على مجموع أراضي افريقيا الغربية الواقعة جنوب صحراء المغرب الى النيجير . وقد تكونت بهذه الرقعة الواسعة ممالك شتى عبر التاريخ .

---

(68) ن. م. وص .
(69) الزياني ، الجواهر المختارة . م. خ. ع. الرباط ، ص 181 .
(70) Pianel, Hespéris, 1953, Rabat — 70
(71) مجموعة الوثائق ، 1 ، وثيقة 119 .
(72) دونالد ويدنر ، تاريخ افريقيا جنوب الصحراء ، ص 80 .
(73) ن. م. ص 81 .
(74) ن. م. وص ، وانظر فى الصفحة الموالية ، جملة المراكز التي انشاها الهولنديون والبريطانيون وغيرهم .

وخلال القرن 10 / 16 تكونت مجموعة من الممالـــك التي تنتمي الى شعب البامبارا أهمها مملكة شغـــاي التي اتخذت من (جني) عاصمة لها . وكان جـــد ملوك سنغاي ممادو توري الذي تلقب باسكية ، وتوفي سنة 1528 أي انه عاصر قيام الدولة السعديـــة . وتعد تومبوكتو اهم مركز ثقافي بالمملكة ، وكان اغلب سكانها من أصل سجلماســـي او فاســـي (75) أو صنهاجي ، علما بأن ممادو توري هو ايضا صنهاجي ، ولكن الازدهار الذي عرفته سنغاي فى عهده لم يدم طويلا ، فقد دب النزاع الى العرش بين اعقابه الذين كان التوغل الاوربي يهددهم على مقربة من حـــدود مملكتهم جنوبا وغربا ، دون أن يهتموا بتنظيم انفسهم لدرء الخطر ، وهذا فضلا عن التدخل السعدي الذي كان نتيجة لعدم حل مشكل تغازى كما تقدم .

واذا نستطيع ان نستنتج من منطق الاحداث ان التدخل السعدي راجع الى العوامـــل والظروف التاليـــة :

1 ـ أن المنصور الذهبي كان يبحث عن موارد مالية لتنظيم حرب مقدسة ضد اعدائه ، وانه راى ان يستغل موارد ممالح تغازى لهذا الغرض ، وان كانت هذه الموارد لا تغطي الا قسما محدودا من النفقات المنتظـــرة .

2 ـ ان التوغل الاوروبي فى افريقيا الغربية لم يحده الا مخاوف المغامـــرات الاوروبيين مـــن الاصطدام باطراف تحول بينهم وبين الاستيلاء على سنغاي وكانم والجهات الاخرى التي لم تسقط فى ايديهم مما يلي الصحراء المغربية ، ومن الاكيد انـــه لولا التدخل السعدي لوضع الاوروبيون هذه الجهات تحت سلطتهم من أوائل القرن 17 م .

3 ـ أن المنصور الذهبي ادخل فى حسابـــه كل الامكانيات العسكرية التي يتوفر عليها المغرب من جهة ، والاطراف التي يمكن أن تقاوم تدخله من جهة أخرى . ولما كان المنصور الذهبي ينظر الى اهداف الفتح نفسهـــا بالنسبة لما ستيسره حسب خطته من استعداد لحرب يعلنها ضد اسبانيا والبرتغال ، فهو لا يتخوف من المخاطرة التي سيتعرض لها الجيش بقدر ما يضع قضية التفوق العسكري لهذا الجيش موضـــع اعتبـــار .

وانطلق التدخل السعدي على مراحل :

1 ـ كان محمد المهدي الشيخ قد طلب مـــن سكية المذكور ان يتنازل عن ممالح تغازى الواقعـــة فيما بين توات ونهر النيجير ، فكان رده أن بعـــث ب 2000 من الطوارق لنهب سوق بني صبيـــح فى اقصى جنوب ناحية درعة (76) . وقـــد استولـــى المهدي على هذه الممالح بعد ذلك سيما وهي بعيدة جدا مناطق الســـودان . غير أن المخزن السعدي ما لبث ان تنازل عن جزء من دخل الممالـــح لخزينـــة سنغاي (77) ، وبعد موت المهدي تخلى المغرب عن الممالح لسنغاي الى أن أثارها احمد المنصور سنة 990 هـ / 1582 م فكتب بشأنها الى اسكية ، اسحق ابن داود (78) قصد استغلال دخلها للتجهيز العسكري ضد العدو المشترك . واثناء ذلك لجأ احد الامـــراء المعارضين لاسحـــق بن داود الى المغـــرب (79) ، فوضعه العاهل السعدي تحت حمايته واخبر بذلـــك اسكية اسحق فى خطاب لاحق ، (80) فكان رد الامير الســـوداني عنيفا حيث وجه بنعلين من الحديـــد الى المنصور كرمز لاشهار الحرب ضده (81) .

2 ـ فى سنة 990 هـ / 1582 م استنجـــد ملك بورما بالمنصور لاخضاع بعض القبائل الثائـــرة عليه، بعد ان يئس من مساعدة الاتراك، فاشترط عليه المنصور الدخول فى بيعته ، فقبل (82) . ووجـــه المنصور وفدا للقيام بجولة استطلاعية فى عين المكان واصحبه نص البيعة .

---

(75) أبو راس المعسكري ، زهر الشماريخ ، ص 216 .

(76) Mission Scientifique, Villes et tribus du Maroc. Tribus berbères, 1,46

(77) مناهل ، تحقيق عبد الله كنون ، ص 55 ، وانظر مجموعة الوثائق ، ص 368 .

(78) مجموعة الوثائق ، 1 . وثيقة 120 .

(79) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ الســـودان ، ص 27 .

(80) مجموعة الوثائق ، 1 ، رقم 119 .

(81) عبد الرحمن السعدي ، م. س. ص 137 .

(82) مجموعة الوثائق ، 1 ـ وثيقة 118 . وانظر مقدمتها للاستاذ عبد الوهاب بنمنصور .

وعندما توفي اسكية بن داود سنة 992 هـ / 1582 م وجه المنصور بخطاب جديد الى ابنه وخلفه الحاج محمد ، وكلف الوفد المبعوث اليه بالقيام بمهمة استطلاعية في التكرور (83) .

3 ـ اعلان الحرب في ثلاث مراحل :

اولا : جرد المنصور حملة من عشرين الف مقاتل بقيادة محمد بن سالم وعبد المولى بن عيسى. لكن الجيش هلك قسم كبير منه جوعا وعطشا قبل الوصول الى وادان (84) ، فانسحب الفرق الى الشمال، وكانت هناك محاولات كثيرة لفض النزاع سلميا حول المصالح دون جدوى (85) . وعارض العلماء في « الديوان » فكرة المجابهة العسكرية . وكانت الحملة الاولى او محاولتها سنة 992 هـ / 1583 م.

ثانيا : بدأ الاستعداد لحملة جديد مجهزة بكل التقنيات والمؤن والذخائر والآلات والمواد الضرورية، وتم استعراض الوحدات في الايام الاخيرة من سنة 998 هـ / 1590 م ، بينما انطلقت المسيرة في فجر 999 بقيادة جؤذر باشا . ولا الفشتالي او الافريقي يزودنا بتفصيل عن وحدات هذه الملة ، ولكن الزياني (86) يذكر ان مجموع أفراد الجيش بلغ 22 الفا منهم الفان من البرية ، ومع هذا الاستعداد العسكري راى المنصور ان يكاتب قاضي تومبوكتو الحاج عمر بن محمود اقيت بشأن استعمال نفوذه لدى السكان حتى يبايعوا العاهل السعدي وهو على راسهم (87) .

وسار الجيش في خط يقع كله في قلب الصحراء : درعة ـ تندوف ـ تغازى ـ تاودني ـ كارابارا ـ تومبوكتو . والهدف النهائي هو كاغو .

اما الجيش السوداني فقوامه 80 الى 100 الف مقاتل مسلحين بالمزاريق والاسنة والسيوف ، وتم اللقاء قرب كاغوا شمال توندبي سنة 999 هـ/1591م حيث انتهى بهزيمة الجيش السوداني . وهنا فقط ، عرض اسحق السلم ومبايعة العاهل السعدي ، ووافق جؤذر مبدئيا ، ولكن المنصور رفض العرض بعد سنوات طويلة مرت في المفاوضات دون جدوى .

ثالثا : في سنة 1000 هـ / 1591 م أعفي جؤذر من قيادة الحملة السعدية ، وعوض باخيه محمود باشا ، وتجددت المواجهة حول كاغو ، ثم عين جؤذر من جديد مساعدا لاخيه محمود . ولما لم يكن باستطاعة العاهل السوداني ان يصمد بما لديه من وسائل محدودة ، للتدخل السعدي ، فقد تخلى عنه انصاره حتى اغتيل تائها على يد أحد رعاياه (88) . ومن غير شك ، فان مسؤولية ملوك سنغاي تعد ايضا اساسية في بلوغ هذه النهاية التي لم يكن أي من الطرفين يريدها على كل حال . وبعد هذا التاريخ استقر الجيش السعدي نهائيا بالسودان . وتم القاء القبض على مجموعة من اعيان تومبوكتو وكاغو ، ومن بينهم العالم الكبير احمد بابا الصنهاجي الذي نفي الى مراكش . وقد اتهموا بالتمرد ضد السلطة الجديدة. ولكن الجيش المغربي تمكن بعد فترة طويلة ، من التجاوب مع السكان وانصهر فيهم تدريجيا عن طريق الصهر .

ونلاحظ ان احمد المنصور بدا يتجه بعد انهاء فتح السودان الى العمل على التحالف مع بريطانيا من اجل القيام بغزو مشترك لاسبانيا . وتعددت الخطابات بهذا الشأن زمنا ، بين اليزابيت واحمد المنصور .

وقد احتفظ الامراء السودانيون بوضعيتهم كما سبقت الاشارة الى ذلك ، من غير أن يكون لهم نفوذ كبير . وابتداء من سنة 1023 هـ اي بعد وفاة المنصور بقليل ، بدا الجيش يعين قادته في عين المكان مع كونه يدين بالولاء للسلطة الشرعية .

ووضع السعديون يدهم على ثلاثة مناجم للذهب بنوا حول كل منها حصنا (89) لحمايتها ، وبذلك

---

(83) G. Pianel, La conquête du Soudan, in Hespéris, 1953, p. 188

(84) Pianel, Op Cit. p. 188

(85) مناهل ، ص 64 ـ 65 ، نزهة ، ص 159ـ162

(86) ترجمان ، ص 362 .

(87) الوثائق ، 1 ، رقم 122 . مناهل ، ص 67 . ونزهة ، ص 164 .

(88) مناهل ، ص 85 .

(89) ترجمان ، ص 364 .

قطعوا الطريق على الاطماع الاوروبية لفترة طويلة بالمنطقة ، حيث زحزح اعقاب الجيش المغربي بالسودان في سنة 1770 .

وفقدت تومبوكتو مركزها العظيم كمنار للاشعاع الثقافي ، ولكن ما حصل بها بعد موت أحمد المنصور هو نفس ما حصل بعدد كبير من مراكز الاشعاع الثقافي او النشاط الاقتصادي بالمغرب من تدهور ، بالنظر للحروب الاهلية الطاحنة التي زعزعت كيان العرش السعدي وغيرت عمليا من اتجاه تاريخ المغرب بأسره .

وهكذا يتضح في النهاية :

1 ـ ان مسؤولية عدد من امراء السودان في تدهور العلاقات بين الطرفين بينة .

2 ـ ان تحقيق وحدة السودان مع المغرب لم يكن هدفا في حد ذاته بالنسبة لسياسة المنصور الذهبي ، بل كان من ورائه تحقيق تعاون بين اقطار افريقيا الغربية المسلمة ، ضد اسبانيا والبرتغال(90)

الاقتصاد :

ليست هناك سياسة اقتصادية مغربية في عهد احمد المنصور تعد مستقلة تماما عن السياسة المتبعة في عهد أسلافه ، الا ان كثيرا من مظاهر النشاط الاقتصادي، انطبعت ببصمات بارزةمن هذا العهد (91). وهكذا حول أحمد المنصور الضرائب العينية المعروفة من ايام والده محمد المهدي،الى ضرائب نقدية (92). وكان من موارد الدولة في عهده : الخراج وأرباح بيع السكر الى الخارج وموارد السودان، بالاضافة الى الحقوق الجمركية .

واسندت امانة الخزينة العمومية (بيت المال) الى مسؤولين معروفين بنزاهتهم ومقدرتهم ، ومنهم عبد العزيز اللدمناتي وسليمان التاملي (93) . وبدا سك عملة ذهبية بكثرة ، اثر موقعة وادي المخازن التي درت على الخزينة اموالا طائلة من الفدية ، ومن ثم أطلق لقب الذهبي على احمد المنصور ، ومنذ ان تولى محمد المهدي تامين طرق القوافل التي تتاجر بسبائك ذهب السودان لصالح الطرفين المغربي والسوداني كانت سبائك الذهب متداولة في عدة اسواق وطنية . وبلغ من قيمة العملة الذهبية أن التجار الاوروبيين كانوا يعملون على تهريبها الى الخارج (94) .

وكان الاسطول التجاري ينطلق من العرائش وسلا وآسفي وموانيء اخرى وهو يقوم بعملية التبادل بين المغرب والخارج ، بالاضافة الى الاساطيل الاجنبية التي تتولى نفس المهمة .

واذا كانت زراعة القمح والشعير والذرة تلعب دورا كبيرا في الاقتصاد الوطني منذ بضعة آلاف من السنين ، فان زراعة قصب السكر التي يحتمل ان الادارسة ادخلوها الى المغرب ، والتي أشار البكري الى وجودها بايغلي (بسوس) (95) قد عاشت أوج ازدهارها وآخر امجادها في ظل الحكم السعيدي ايام المنصور الذهبي بالذات .

وكانت اهم حقول قصب السكر حول الصويرة وبناحية شيشاوة وجهات متعددة من سوس (96) . وقبل السعديين كانت زراعة قصب السكر زاهرة حول سبتة وطنجة وسلا .

---

(90) كان المفروض أن يتضمن موضوع فتح السودان في العهد السعدي من « المغرب عبر التاريخ » ، ج 2 (لصاحب هذه الدراسة) تقييما مشابها كالذي ورد هنا عن الموقف السعدي ؛ وذلك نتيجة لدراسة مستفيضة لشخصية احمد المنصور وجميع الملابسات التي اكتنفت مواقفه والاحداث العالمية في عهده ؛ لكن ، نظرا لان هذا الجزء طبع خارج المغرب فان ادراج التقييم المذكور تأخر وصوله الى المطبعة المعنية ، لاسباب قاهرة .

(91) تضمنت دراسة عن مظاهر الحضارة المغربية في العهد السعدي لكاتب هذه السطور (حوالي 700 ص لم تنشر) فصلا خاصا بالحياة الاقتصادية لهذا العهد .

(92) ابراهيم الحساني ، ديوان قبائل سوس ، ص 169 .

(93) ابن القاضي ، درة الحجال ، رقم 1057 و 1384 ، فشتالي ، مناهل ، ص 18 .

(94) ابن القاضي ، 2 رقم 415 . Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, 2,215

(95) البكري ، مسالك ، ص 161 .

(96) الدراسة القيمة التي وضعها

وراجع ايضا : صبح الاعشى 5 ، 174 ، كما أشار الحسن الوزان الى اماكن زراعة قصب السكر في سوس .

وبفضل اقرار الامن الـــذي شمـــل انحـــاء الامبراطورية السعدية ، نشطت الزراعـــة وانتـــاج الخضر والبقول والفواكه حول مجاري المياه وحيث تتوفر المياه الجوفية .

وكان السمك يستهلك بكثرة حيث يصاد مـــن الشواطىء والانهار وتميزت منطقـــة الشمـــال على الخصوص ، بعملية تجفيف السمك والاحتفاظ بـــه لمدة طويلة . ولا شك ان ذلك من التأثير الاسبانـــي العريـــق .

على أن الحياة الرعوية كانت من سمات العديد من الجهات التي سادتها فيما بعد حياة استقـــرار ونشاط زراعي ، ولا سيما الشاوية والغـــرب (أو الهبط ، كما كان يدعى لهذا العهد) . ومن أخصب المناطق الزراعية : بسيط سايس وسوس ودرعـــة وضواحي مكناس .

واشتهر بسيط سايس بانتاج الخضر ، وضواحي مكناس بفواكهها المتنوعة وسوس بقصب السكـــر واللوز والتمر والحوامض ، وسجلماسة او تافيلالت كما صارت تسمى ايام السعديين بالتمر الذي كانـــت تستهلكه السوق الداخلية والخارجيـــة ، حتـــى ان اسبانيا كانت كلها تستهلك تمر تافيلالت وحدها (97)، وكانت تنافسها في هذا المجال ، درعة التي اعارهـــا المنصور الذهبي اهتماما خاصا ، بالنظر لاهميتهـــا الاقتصادية والسياسية أولا (كمعبر الى الســـودان) وتقديرا لفضلها على الدولة السعدية التي نشـــأت بهـــا ثانيـــا .

وظل المغرب الشرقي يتمتع بكثرة مواشيـــه التي لاحظها اكثر من جغرافي وزائر اجنبي .

اما صناعة السكر فقد تركزت في منطقة سوس بالاضافة الى مصانع في جهات اخرى يزرع حولهـــا قصب السكـــر ، وقد نسب الفشتالي احداثهـــا الى احمد الذهبي (98) . اما التعدين فكان استغلاله في الغالب يتم لصالح السكان المحليين من غير تدخـــل مباشر للدولة ، لكن المعادن التي تدخل في صنـــع الاسلحة قد تلجأ هذه الى استغلالها مباشرة لهـــذا الغرض . وهناك صناعات تقليدية كانت نشيطة حيث تستهلك الاسواق الداخلية وحتى الخارجية قـــدرا هاما من منتجاتها كدبغ الجلود والزرابـــي . ويتـــم تصريف المنتجات عن طريق الاسواق الاسبوعيـــة والدائمة ، حيث يروج السكر والتمـــر والنحـــاس والدواب وما الى ذلك .

وكانت هناك خطوط داخلية متعددة ، بالاضافة الى الخط المتجه الى تلمسان من فاس عن طريـــق تازا ، وكذا طرق التجارة السودانية التي سبقـــت الاشارة اليها في نطاق الخط العسكري الذي اتسع في حملة السودان . وهذا باضافة خط تافيلالـــت ـ تومبوكتو ، وخط سوس ـ السودان المتجه عبر الصحراء الغربية تم خط المغرب الشرقي المتجه من سجلماسة الى فيكيك باتجاه توات .

وخلال القرن العاشر هـ السادس عشر م ظل المغرب اهم سوق تجاري في الشمال الافريقي (99)، فقد كانت تونس تعاني أزمة اقتصاديـــة بسبـــب الاضطرابات الداخلية ، كما كانت الجزائر محـــدودة الموارد ، وتعتمد على مواشي المغرب وعدد آخر من منتجاتـــه .

الفـــن المعمـــاري :

اذا كان الفن بالمغرب قد تأثر في عهد الحكـــم السعدي بمؤثرات موريسكية حيث تتنوع العقـــود وتتعدد في المباني (100) ، فان عصـــر المنصـــور الذهبي قد تميز بمؤثرات تركية قوامها الزليج المموه والاعمدة الرخامية المتقاربة كأنها باقة (101) ، وهذا بالاضافة الى مؤثرات تركية في عدة مجالات أخرى .

ومن المباني التي شيدت في هذا العهد :

---

(97) Marmol, d'Afrique, p. 22

(98) مناهـــل ، ص 185 .

(99) Paul Masson, Histoire des établissements du commerce français, p. 84

(100) G. Marçais, Manuel d'art musulman, p. 748

(101) راجع عن المؤثرات التركية بالمغرب ، دراسة لكاتب هذه السطور ، نشرت ضمن دراسات اخرى في مجموع ، مراكز الابحاث الاقتصادية والاجتماعية تونس ، بمناسبة المؤتمر الاول لتاريـــخ المغرب (الكبير) الذي انعقد سنة 1974 م

1 ـ قصبة مراكش التي خلفت القصبة الموحدية . ويوجد تصميم للقصبة السعدية بالاسكوريال وضعه مهندس برتغالي (102) سنة 993 هـ / 1584 . وكانت الكنيسة الموحدية والدير الموحدي قد تبقيا بعد السعديين الى أن هدمهما كروم الحاج .

2 ـ برجان بفاس وبرج بالعرائش

3 ـ قلعة تازا ، وقد سبق الحديث عن الابراج المذكورة والقلعة في عرض النظام العسكري

4 ـ اسوار عدة مدن اخلاها البرتغال كاصيلا وآسفي وازمور (103) .

5 ـ جامع الفناء ، وكان اسمه جامع الهناء ، وهو يقع بساحة مراكش المركزية بالمدينة القديمة. واطلق عليه « جامع الفنا » بعد أن تسلط الوباء على مراكش وجهات أخرى من المغرب ومات فيه كثيرون من بينهم أحمد المنصور (104) .

6 ـ اضافات بجامع القرويين ومراكش وغيرها في مبان دينية أو اجتماعية . ونشير هنا على الخصوص الى ضريح السعديين الذي هو في الاصل مقبرة لاسر ملكية سابقة . أما الضريح السعدي نفسه فمن بناء عبد الله الغالب واحمد المنصور (105) . ويتأثر الضريح بعدة مؤثرات ، من بينها التركي والفارسي والموريسكي (106) .

7 ـ قصر البديع ، وقد استأثر باهتمام المؤرخين والادباء المغاربة ، فوصفوه وصفا لا يخلو من الدقة والروعة ، وبينهم الفشتالي في المناهل ، والمقري في روضة الآس ونفح الطيب والافرني في النزهة ، والزياني في الترجمانة ؛ كما اهتم بدراسة مخلفاته أكثر من باحث أوروبي كدوفردان ومارسي، وكولير .

وقد تم انجاز هذا القصر بجوار جامع القصبة بمراكش ، واستمر البناء فيه مدة 16 عاما حتى سنة 1002 هـ / 1593 م . واقام المنصور الذهبي به خمس سنوات كما اقام به أعقابه من بعده الى أن تم تخريبه في عهد السلطان مولاي اسماعيل بعد مضي 38 سنة من حكمه لاسباب لم تتضح قط . ولكن تهديم هذا القصر بعد مرور كل هذه الحقبة الطويلة من حكم مولاي اسماعيل ، لا يمكن تفسيره بانه عمل انتقامي . فهل كانت هناك دوافع اخلاقية ؟

وقد شيد قصر البديع على انقاض القصر الموحدي القديم ، واستمد مؤثراته من الطابع الاندلسي والتركي ، وتشبه الهندسة العامة لفنائه الاكبر ، هندسة فناء قصر الحمراء ، ولونت نقوش الجدران والسقوف بالذهب الخالص . وحول القصر المدرسة الخاصة بأبناء الاسرة الملكية ، وهناك زخارف مستمدة من فنون مصرية وسورية وغيرها . واشتملت النقوش على آيات واشعار عديدة ذكر قسم كبير منها في عدد من الكتب المعاصرة ، كالمنتقى المقصور ، لابن القاضي ، ومناهل الصفا وغيرهما .

وباستثناء مبان محدودة خارج فارس ومراكش، فقد اكتفى احمد المنصور بالمنجزات التي تمت في عهد أسلافه من سعديين وغيرهم كالقصبات والحصون والابراج والمدارس ، فضلا عن أن اسهام الشعب في بناء المؤسسات الاجتماعية كان موضع تنافس في جميع انحاء البلاد بشكل لم يعهد قط من قبل .

السياسة الاجتماعية والدينية :

ساهمت التنظيمات التي احدثها المنصور الذهبي في تأمين معاش السكان وحركة التبادل الاقتصادي الداخلي . فقد أقيمت محطات عديدة في البلاد تحت حماية حراس مقيمين ، ولا يبعد

---

(102) G. Deverdun, Marrakech, 1,384

(103) فشتالي ، مناهل ، ص 185 .

(104) عبد الرحمن السعدي ، تاريخ السودان ، ص 205 .

(105) المقري روضة الآس ، ص 153 . ويرى Deverdun, Op. Cit, 1,360 انه من بناء الغالب فقط .

(106) تضمن بحث الكاتب حول مظاهر الحضارة السعدية تفاصيل أوفى عن محتويات الضريح ومميزاته الفنية .

بعضها عن بعض الا بمسافة تناهز 20 كيلو متـرا . وبهذه المحطات ينزل المسافرون والقوافل المـارة عبر القرى والبوادي . وتتوفر على المؤن الضرورية ليشتري منها النازلون ما يحتاجون اليـه (107) . ويذكرنا هذا الاجراء بالزوايا التي انشئت لهذا الفرض وال ما انشئت في عهد المنصور المريني . وكانـت المحطات السعدية عبارة عن دور أو خيـام . وفي سائر الشمال الافريقي كانت أحوال الامن في هـذه الفترة بالذات مضطربة بسبب ممارسة البدو لعمليات قطع الطرق على السابلة بعيدا عن مراقبة السلطـان التركية التي اهتمت بحماية المدن اساسا .

وفي عدد من المدن التي تكثر الاوقاف بها أو حولها انشئت نظارة خاصة لاوقاف الضعفاء والمساكين يستفيد منها المحرومون والاسر المحتاجة ، حتـى لقد كان يستفيد من ريعها اعقاب محمد بن نصـر آخر ملوك غرناطة (108) .

وتميز عهد المنصور مثلما حدث مرارا خـلال القرنين 16 و 17 م بتدهور الاحوال الصحية التـي كثيرا ما تنجم عن المجاعات والفيضانات فتخلـف اوبئة معدية . وبعض هذه الاوبئة ينتقل من جهات اخرى الى أوروبا او بالعكس . وهكذا انتشر مرض الكحة (السعال) مدة سنتين متواليتين وانتشر في اقصى جنوب المغرب منذ سنة 978 هـ / 1579 م . كما انتشر وباء مات منه بفاس ومراكش معا ثلاثة آلاف من السكان سنـة 1004 هـ / 1595 م . وبعـد سنتين من هذا التاريخ ماتت اعداد كبيرة من سكان فاس بسبب وباء جديد ، وكان في الموتى شخصيات المدينة وفقهاؤها . وتوالت الكوارث بعد هذا التاريخ عدة سنين فحصدت آلاف من الارواح البشريـة . وكان أحمد المنصور الذهبي من ضحايا وباء (لعلـه الكوليرا) . وليست هناك اية احصائية ولو تقريبية لآلاف الضحايا الذين ذهبوا فريسة الكوارث والاوبئة في عامة المدن والبوادي .

واذا كان عبد الملك المعتصم قـد نقل الزي التركي بصورة رسمية الى المغرب ، فان احمد المنصور الذي نقل بدوره اشياء كثيرة من التقاليد العثمانية ، لم يكتف بالمؤثرات الخارجية فحسـب ، بل طبـع عصره بروح الابتكار حتى في ميدان الزي . وهكـذا ابتكر القفطان او طوره ، واضاف اليه « المنصورية » التي ظلت تنسب اليه حتى يومنا هذا ، وكلاهما لباس فضفاض ، اولهما سميك وثانيهما رقيق كان اصلا من ثوب ابيض شفاف ، ويشد اللباسان بحزام يدعـى « المضمة » . وكان هذا اللباس خاصا بالفقهاء وكبار الشخصيات ، ثم نقلته النساء في طور لاحق وطورته واصبحت « المضمة » تزخرف على شكل السـروج القديمة بخيوط الذهب او الفضة ، (109) والمضمة من ابتكار المرينيين وكانت خاصة بقادة الجيش .

وتميز عهد المنصور الذهبي بانتشار بعـض انواع الطرب الديني على نطاق واسع (110)، ولا سيما الملحون والسماع اللذين نفقت سوقهمـا بفضـل تشجيعات البلاط واحياء الحفلات الدينية ، خاصة في عيد المولد النبوي . ومن الطريف أن السماع على الرغم من كونه مخصصا لمديح الرسول عليه السلام، فقد لقي معارضة حقيقية من عـدد مـن الفقهـاء المتشددين منذ العصر المريني والوطاسي كابـن زروق الذي نقل آراء عدد من الفقهاء السابقين ؛ في كتابه « النصيحة الكافية » . على أن هناك فقهـاء لاحقين كعبد القادر الفاسي وعبد الرحمن الفاسـي كانوا اكثر تفتحا ، فسمح الاول بأن يرفض الفقـراء خلال الاذكار (111) لان ذلك ينشطهم للذكـر ، على شرط ان لا يبلغ بهم الانفعال حد الصياح والصراخ . بينما حبذ الثاني المديح والسماع ، مقابل بغـض شديد للموسيقى الاندلسية (112) . فماذا يقول هذان العالمان لو انتقلا بسرعة الى عصر الجاز والبـوب وانواع لا حصر لها من موسيقى العنف والتنافر ؟ !

وتميز الاحتفال بعيد المولد النبوي بمظاهـر الروعة والعناية التي اضيفت عليه ، واتاحت للشعب

---

(107) مراكشي ، اعـلام ، ج 2 ص 50 .
(108) القادري ، نشر المثاني 1 ورقة 40 . م. خ. ع. الربـاط .
(109) ابراهيم الحساني ، ديوان قبائل سوس ، ص 169 Caillé, La petite histoire du Maroc,
(110) انظر : نزهة الحادي ، ص 242 و 258 .
(111) ابو زيد الفاسي ، تحفة الاكابر ، م. خ. ع. الربـاط ، ص 422 .
(112) ابو زيد الفاسي ، ازهار البستان ، م. خ. ع. الرباط ، ص 32 .

افراحا يتنفس بها عن هموم حياته ، ويستعيد ذكرى بطل العدالة الاجتماعية ورسول الاسلام (ص) .

واذا كان الفاطميون وال من احتفل بعيد المولد النبوي وقد كانوا يشاركون الاقباط فى احتفالهم براس السنة الميلادية المسيحية ، تفتحا منهم ، ولمعايشتهم الاقتباط (113) . فان المغرب اول بلد اسلامي اقتدى بهم فى افريقيا من ايام ابي يعقوب يوسف . كما أن العثمانيين انشاوا تقاليد جديدة بالغة الروعة فى عيد المولد النبوي ، ومنها زخرفة الشموع والخروج بها الى الشوارع فى مواكب ضخمة وتزيين بعض الجوامع والمؤسسات الدينية الكبرى بها . وقد ذكرت مصادر معاصرة أو لاحقة ، وصفا دقيقا لاحتفالات المولد النبوي فى عهد احمد المنصور ، ومنها المناهل للفشتالي ، وروضة الآس للمقري ، والنفحة المسكية للتمكروتي ونزهة الحادي للافرني . وبنفس المناسبة يلقي عدد من الشعراء الرسميين الذين لهم وظائف سامية فى البلاط قصائد تجمع بين تعداد شمائل الرسول والاسلام ، ومحامد العاهل بوصفه من السلالة النبوية ، ومدافعا مسؤولا عن حياض الشريعة .

ولا يقتصر الاحتفال بالمولد النبوي على القصر الامبراطوري وحده ولا على العاصمة وحدها ، فهو يشمل جميع انحاء البلاد ويمثل مناسبة ممتازة للقاءات اسلامية تجمع بين الفئات الشعبية بكل حيثياتها . وكان من عادة السلطان احمد الذهبي ان يفتح قصره فى هذه المناسبة للفقراء يكرمهم ويحرص على رعايتهم . وفى عاشوراء يتم اعذار آلاف من ابنائهم فى جهات المملكة وتشرى لهم ثياب جديدة ولعب . وحقا ، لقد كانت مظاهر الاحسان والتكريم للفئات الشعبية أمورا معتادة فى مجتمعات اخرى من الشرق أو الغرب ، حيث تختص بها المؤسسات الدينية فى جل الاحيان . ولكن ، عندما تنضم جهود الحكومة والسلطة الى الجهود الشعبية على نطاق واسع ومنظم ، فان هذا لا يحدث الا نادرا فى عصور التاريخ الماضية .

وفى ظل السلطة السعدية شهد التصوف اعظم امجاده فى تاريخ المغرب ، واحد اجمل عهوده فى تاريخ الاسلام قاطبة . فقبل أن يكون تصوف طرق ، كان تصوف مبدا يستمد أصوله من تعاليم السنة . ولا ريب أن فى الاسلام مسحة أصيلة من التصوف خفيفة فى جذورها التاريخية . وما مقام محمد رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم فى غار حراء الا صورة للتامل والاشراق الروحي الذي تطورت معالمه واشكاله على مر التاريخ ، والذي مزجه مبدأ الاعتكاف فى المسجد لمدة محدودة ، ثم مقام اهل الصفة بالمسجد النبوي وتفرغهم للعبادة . وكل ذلك يبقى فى اطار لا يبعد المومن ولا المتصوف بالذات عن ممارسة مهمته كمواطن واحيانا كمصلح حقيقي .

واذا كان التصوف قد دخل المغرب من عهود الاسلام الاولى ، فان مما يثير الاستغراب حقا ، أن الطرق الصوفية الاولى تركزت بالذات فى منطقة برغواطة التي كان لها دين يمثل خليطا من العقائد . اي ان اختفاء ما سماه بعض المؤرخين بالمجوسية حل محله على الفور تنظيمات اسلامية تعطي الاولوية للجانب الروحي من الاسلام ؛ اي ان هناك انتقالا مفاجئا من بعض اشكال الاباحية الى التزام متشدد فيه محاسبة مباشرة ومستمرة للنفس الانسانية . ومن هذه المنطقة تسري الطرقية الى اقليم سوس وهسكورة حيث برزت طريقة جديدة متميزة المعالم ، آخذة بالسنة ، وهي الطريقة الجزولية التي ساندت السعديين فى اقامة دولتهم ومطاردة الاحتلال الاجنبي. الا ان محمد المهدي الشيخ وعبد الله الغالب ، اشتدا فى مطالبة ارباب الزوايا بأداء واجباتهم من الضرائب . وكان المنصور الذهبي على الكس من ذلك، يرعى جانبهم ويهش للقائهم على الرغم من أن الزوايا قد استأنست فى جملتها بأداء التزاماتها تجاه الدولة.

واختط التصوف لنفسه افكارا ونظريات اغنت الفكر الاسلامي وهي على اية حال ، بحاجة الى ان تبرز للوجود ، وتخضع لدراسة مقارنة موسعة وعميقة . ومن اجدرها بالدراسة ، أفكار أبي المحاسن يوسف الفاسي وعبد الرحمن المجذوب من معاصري احمد المنصور .

وكانت هناك سلبيات عديدة فى التصوف الذي نشأ قبل السعديين وتعقد واستقر فى أيامهم . ولا

---

(113) المقريزي ، خطط ، 2 396 .

يمكن فصل الحقبة المحدودة التي نحن بصددها عن سائر العصر السعدي ، فنكتفي بهذا العرض الموجز هنا (114) .

وسلك المنصور الذهبي سياسة التقارب مع الفقهاء بشكل خاص ، لان الفقه ارتبط بالحياة الاجتماعية والاقتصادية بصورة لم يعهدها المغرب من قبل ؛ فهناك أشياء كثيرة استجد او تطورت في القرن 17 م. وبينها مشكلات زراعية وزعوية ومسائل تتعلق بالصيد وتناول التبغ ؛ وبقدر ما تدخل الفقهاء في مثل هذه الشؤون وقالوا فيها كلمتهم حسب اجتهادهم وابحاثهم تدخلوا ايضا في النقد الاجتماعي بعد أن ظهرت طرق منحرفة عن السنة تتجه الى الاباحية والتفسخ . كذلك كان للفقهاء دورهم في التوجيه السياسي وفيهم من تزعموا حركات مناهضة للدولة بعد المنصور ، مثل عبد المنعم الحاحي وابن أبي محلي الذي تحول من متصوف الى فقيه .

ونحو اليهود والنصارى سلك السعديون عامة، سياسة التسامح والتآلف وتوافدت الآلاف منهم على المغرب لاسباب دينية واقتصادية وغيرها .

النشاط الفكري :

عرفنا ان احمد المنصور فاق اسلافه جميعا من ملوك وامراء الدولة السعدية في عمق تكوينه وشموله، بل لا مبالغة في انه من المع نوابغ الفكر بين رؤساء الدول في العهود الماضية . ومن اهتمامه في نطاق الثقافة واشاعة المعرفة تكليفه لعدد من الشخصيات الفكرية بتأليف كتب لخزانته او لوضعها تحت تصرف الطلبة والاساتذة (115) . ومما الف بطلب منه كتابان في الطب لابي القاسم الغساني وشرح ديوان المتنبي لمحمد بن علي الهوزالي وشرح مقصورة المكودي لعبد الواحد الشريف .

وبنيت في عهد هذا العاهل خزانة جديدة بالقرويين ضمت كتبا متداولة واخرى نادرة (116) تبقت عشرات منها حتى الآن بهذه الخزانة ، ومن بينها :

1 ـ شرح رسالة ابي زيد القيرواني ، لابي زيد الجزولي

2 ـ شرح للقلصادي ابي الحسن على فرائض ابن الشاط

3 ـ الحسام المحدود في الرد على اليهود لعبد الحق الاسلامي .

كذلك جهزت مختلف مساجد البلاد بالمصاحف لاول مرة ، وان كانت قراءة الحزب الجماعية معروفة من أيام الموحدين ، وتنافس الخواص في اقتناء الخزائن وافادة الطلبة والباحثين بها في الزوايا والمعاهد والدور الخاصة . ومن بين المراكز الثقافية الكبرى لهذا العهد (117) : مراكش وفاس ودرعة وتادلا وسجلماسة وغمارة وتطوان وسوس .

وبمراكش وفاس ، استقر عدد كبير من المهاجرين ، ومن بينهم علماء بارزون كهبة الله الوهراني التلمساني ، والفقيه الخروبي من ليبيا وهو ناقد اجتماعي وفقيه كبير . اما احمد بابا الذي احضر من السودان مقيدا ، فما لبث أن تمتع بحرية التنقل ومزاولة النشاط الفكري على أن يغادر العاصمة . وكان يحضر دروسه مئات الطلبة ، وعدد كبير من زملائه المدرسين . وكان عدد كبير من الجوامع والاضرحة قد زود بخزانات لسد حاجة هؤلاء الطلبة والاساتذة من الغذاء الفكري . وممن قضى مراكش شطرا من حياته الصوفي احمد الشعبي قبل ان ينتقل الى « الصومعة » .

وتميزت فاس الى جانب دور القرويين بها ، بكونها تضم عددا هاما من المدارس التي تركها بنو مرين . ومن اعلامها المعاصرين للمنصور ، محمد القصار واحمد المنجور وهما فقيهان اصوليان ، وابن القرديس الاديب ، وقاسم بن ابي العافية النحوي . كذلك خصصت بها كراسي علمية كثيرة قارة لتدريس جملة من العلوم الدينية والمرتبطة بالدين .

واحتفظت تارودانت بطابعها الفكري المتميز ، على الرغم من انتقال الحكومة السعدية الى مراكش . وممن برز بها عبد المنعم الحاحي وعبد الرحمن

(114) خصص كاتب هذه السطور عرضا وافيا للتصوف في العهد السعدي (مظاهر الحضارة السعدية)
(115) انظر مناهل الصفا ، ص 220 وروضة الآس ، ص 217 .
(116) روضة لآس ، ص 22 . وانظر : د. عبد الهادي التازي ، جامع القرويين 1 .
(117) راجع دراسة الدكتور محمد حجي عن المراكز الثقافية في العصر السعدي .

التمنارتي ومحمد الوقاد الذي هاجر اليها من تلمسان وكل هؤلاء متخصصون فى الفقه والدينيات .

وتميزت سوس بتعدد العائلات المثقفة بها والتي توارثت النشاط الفري او التعليمي ابا عن جد ، وعملت على اشاعة المعرفة فى عين المكان ، وهذه ميزة طبعت الاقليم السوسي اكثر من غيره .

وساهمت سجلماسة التي لعبت دورا اقتصاديا وفكريا وسياسيا بالغ الاهمية فى العهود الغابرة ، فى الاشعاع الثقافي على الرغم من تدهور وضعيتها السياسية . واليها ينسب مثقفون واساتذة بارزون كعلي بن الزبير السجلماسي الفقيه النحوي وعبد الواحد الحسني مستشار المنصور واحد كبار المفتين .

لكن العلوم الملقنة فى المعاهد والجوامع اقتصرت فى الغالب على الدينيات كالفقه والاصول والفرائض ؛ واللغويات كشروح المغني والعروض الى جانب الحساب والتوقيت . وهكذا فليس للتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية وحتى الابحاث اللغوية مكان ذو اهمية ، غير أن السيرة النبوية ظلت تحظى باهتمام ملحوظ كذي قبل .

غير أن ميزة العصر السعدي عامة هي تلك الكمية الكبيرة من كتب النوازل التي تشرف تاريخ الفقه عامة ، والعصر السعدي خاصة ، والتي تدخلت بشكل يثير الاعجاب ، فى كل مجالات الحياة ، وانارت من القضايا الفقهية المتصلة بالحياة الاجتماعية ما ينبىء عن عميق اطلاع ووعي بالمسؤولية . وممن ساهم بآرائه او بمؤلفاته فى هذا الباب ، محمد القصار وعيسى بن عبد الرحمن السكتاني وعبد الواحد الشريف .

واذا كان الملحون يمثل الادب الشعبي الى جانب القصائد الشعبية البربرية فان الادب العربي التقليدي كاد يحتكر الشهرة فيه ادباء لهم وضعية مرموقة فى مراكز الدولة . وممن عاصر المنصور منهم : عبد العزيز الفشتالي ، وعلي بن احمد المسفيوي وسعيد الماغوسي . وكان من سمات الادب فى هذه الحقبة ، الترسل بالشعر والنثر معا .

واذا لم يكن للجغرافيا ولا التاريخ عامة ، حظ يذكر فى مجال التدريس ، فان هناك جملة من كتب التراجم الشخصية وبعض المؤلفات عن الدولة السعدية مما احيل عليه فى هذا العرض قد ساهمت مساهمة طيبة فى التعريف بالعصر السعدي عامة ، وعصر المنصور الذهبي ، سيما ما يهم ميادين بعينها كالفكر وبعض الاحداث السياسية .

واذا كنا لا نعرف الا القليل عن المؤلفات فى العلوم الطبيعية عامة ، فان الطب تميز على اية حال ، بعناية عدد من المثقفين المشاركين وقليل من المتخصصين . ومما تبقى من عصر المنصور ، مختصر باسم كشف الرموز لابي القاسم الغساني رئيس اطباء مراكش (118) . والكتاب الاصلي وهو حديقة الازهار يعد مفقودا . وهو معجم طبي ، يشرح طبيعة ومزايا النباتات المستعملة فى العلاج الطبي ؛ و « مراقي المجد » لاحمد المنجور ، وقد اكتشفه الاستاذ محمد الفاسي (119) .

ومن اشهر علماء الرياضيات فى هذا العهد ، احمد بن القاضي الذي وضع معجما عن الحيسوبيين باسم غنية الرائض ، وعبد الرحمن البوعقيلي مؤلف شرح السيارة فى الهيأة ، وكان يلقب بالجرادي .

واعطت سوس ابرز واكبر عدد من الرياضيين والحيسوبيين فى هذا العهد ، بالنسبة لمجموع اقاليم المملكة السعدية ، وبالنسبة لعهود سابقة ايضا ، لان الدولة احتاجت اليهم فى عدد من الوظائف الدينية والادارية كمؤقتين وكتاب ومدرسين . لكن من عيوب تاريخ الفلك بالمغرب الكبير عامة ، أن استخدام المراصد لم يكن مألوفا ، على الرغم من قيمتها القصوى فى رصد حركات القمر والكواكب وطبيعة النجوم ، فضلا عن اهميتها فى اكتشاف المزيد من النجوم وحتى الكواكب .

السياسة الخارجية :

انطبعت علاقات المغرب فى عهد المنصور الذهبي بالدول الاخرى ، بطابع المرونة واللباقة ، وبالتوازن فى الاستفادة ، وان كان المخزن السعدي فى جملته قد سلك سياسة الانفتاح على العالم الغربي على نطاق واسع لم يتقدم له نظير .

وكانت الاقطار العربية تخضع فى معظمها

---

(118) من هذا الكتاب نسخة مصورة بالخزانة العامة بالرباط .

(119) محمد الفاسي ، مجلة البحث العلمي ، الرباط ، عدد 6 ، 1385 / 1965 .

للسيادة العثمانية ، وفي هذا الاطار حضر الى المغرب بعد اعلان انتصار المغرب في وادي المخازن وفدان من مصر وتونس لتهنئة احمد المنصور . ولاحكام الصلات الدينية والفكرية مع مصر ، استجاز المنصور عالمين بارزين منها وهما محمد البكري (ت 1007هـ/ 1598 م) وبدر الدين القرافي (ت 1008 هـ/1599م) ولهما مع العاهل السعدي عدة مراسلات . وفي رسالته الى احمد بن ابي نمى ، امير الحجاز بشان اعتماد رئيس وفد الحجاز المغاربة الحاج محمد بن عبد القادر ، طلب منه الدعاء له في موسم الحج حتى يوفقه الله الى فتح الاندلس واعادتها الى الاسلام .

وكانت علاقات الدولة السعدية مع الاتراك قبل عبد الملك المعتصم غير ودية ، بل كانت هناك مجابهات عسكرية تكررت فيما وراء الحدود الجزائرية والمغربية ، وكاد عهد المنصور يدشن بمجابهة جديدة وذلك ان المنصور الذهبي استقبل وفد اسطمبول استقبالا فاترا عندما وفد لتهنئته بانتصار المغرب في وادي المخازن . ولما كانت كل الوفود قد قدمت هدايا عظيمة القيمة الى العاهل السعدي ، فان هدية البلاط العثماني التي كانت سيفا مرصعا ، لم يعتبرها المنصور الذهبي من مقامه ، أو هكذا تثبت بعض الروايات (121) التي تضيف أن المنصور اهمل الوفد العثماني الذي رافقه عالم من الجزائر كان يتحدث باسمه (122) . ولكن ، مما لا شك فيه أن اتراك الجزائر الذين كانوا ضمن الوفد الذي مثل الخليفة مراد ، وهم يذكرون بمرارة ، الهزائم التي تكبدوها ايام المهدي والغالب ، وتشدد المغرب في المحافظة على كيانه ، قد أولوا بطريقتهم ، موقف المنصور وسلوكه . على أن كلا من الفشتالي والافرني يتجنب هذا الحادث تماما بالرغم من تطوراته ، لان السلطان مراد هم بارسال حملة لمهاجمة المغرب (123) بحرا بعد ان فشلت المحاولات السابقة في اخضاعه برا . غير ان المنصور سرعان ما علم باستعدادات السلطة العثمانية لغزو المغرب ، فبعث الى اسطمبول بوفد براسه القائد احمد العمراني ومعه الكاتب أحمد الهوزالي . ولكن اتراك الجزائر اعترضوا السفينة التي كانت تقل الوفد ، وسمحوا لاحمد الهوزالي وحده بمتابعة طريقه الى القسطنطينية وكان لا يزال شابا حدثا ، ولكنه قدم اعتذارات العاهل السعدي بلباقة الى السلطان مراد . وانتهى كل نزاع بين المغرب والاتراك طيلة عهد المنصور الذهبي وذريته .

ثم تجددت السفارات والمراسلات بين الطرفين ايام المنصور ، بعد الحادث المذكور ، ولا سيما سفارة علي التمكروتي التي دون عنها رحلته « النفحة المسكية » . وقد ترجمها دوكاستري الى الفرنسية في القرن الماضي .

واتخذ المنصور للجيش المغربي ، الزي العسكري التركي الذي يتشابه مع الازياء البلقانية ؛ وقد ظل هذا الزي سائدا حتى يومنا هذا حيث يرتديه الحرس الملكي . ومن ثم ، فان التقليد الملكي المذكور يمتد الى ا كثر من اربعة قرون خلت .

كذلك دشن احمد المنصور الذهبي عهد انفتاح مع اسبانيا ، على الرغم من انه كان يخطط بصبر واهتمام لغزوها . وهكذا فقد تلقى هدايا الوفد الاسباني البرتغالي بتقدير ، عندما وفد لتهنئته بالخلافة سنة 986 هـ / 1578 م وكان الوفد برئاسة دون بيدرو بينيكاس حاكم مليلية السابق (124) . ومن الطريف ان الوفد الذي جاء ايضا ليفاوض العاهل السعدي باسم فيليب الثاني في تسليم جثة سبستيان وعدد من قادته السابقين ، كان مزدوجا بتعليمات من البلاط الاسباني ليعرض على الملك المغربي مسألة تسليم العرائش الى اسبانيا . فكان فيليب الثاني الذي وسع رقعة نفوذه الى عدة بلاد خارج اسبانيا ومن بينها البرتغال وهولندا تناسى تماما ما نتج عن هزيمة البرتغال من انهيار معنوية الضباط العسكريين في كل من البرتغال واسبانيا . وعلى أية حال ، فان المنصور الذهبي رفض كل تنازل عن العرائش أو غيرها من التراب الوطني ، بل ان اسبانيا اخلت أصيلا

---

(120) افرني ، نزهة ، ص 216 . ناصري ، استقصا ، 5 دار الكتاب .
(121) استقصا ، ج 5 ، ص 95 .
(122) مناهل الصفا ، طبع الرباط ، ص 50 .
(123) استقصا ، 5 ، 95 .
(124) De Castries, Sources inédites, France, T. 3

تلقائيا سنة 1001 هـ / 1592 م وبقيت العلاقات هادئة معها من الجانب المغربي ، خصوصا وان هولندا او الولايات العامة كما كانت تدعى سرعان ما استرجعت القسم الشمالي من منطقة سيادتها في عهد فيليب الثاني .

وبلغت العلاقات المغربية البريطانية ذروتها من حسن التعامل والتعاون أيام المنصور الذهبي بالذات، بعد ان عينت بريطانيا أو سفير مقيم لها بالمغرب في عهد سلفه ابي مروان عبد الملك ، وتولى هذا السفير واسمه ادموندهوجان ، الدفاع عن المصالح البريطانية بالمغرب ، ثم خلفه سنة 993 هـ / 1585 م هنري روبير الذي عمل على احداث أو شركة بريطانية تعترف بها الدولة المغربية رسميا ، وتقوم باحتكار عمليات التجارة البريطانية مع المغرب ، باسم انجلترا (125) .

وتحتفظ الوثائق البريطانية بعشرات الخطابات المتبادلة بين العاهل السعدي احمد المنصور ومعاصرته (126) التي تشاء الاقدار ان تتوفى واياه في عام واحد .

اما كيف توفي المنصور الذهبي ، فان عبد الرحمن السعدي (127) يروي ان زوجته عائشة الشيبانية ، ام ابنه زيدان ، سمته لانه أوصى بالملك لابنه ابي فارس بعد ان جرد منه ابنه محمد المامون، ولكن القادري (128)1 يدحض هذه الرواية ، ويؤكد ان احمد المنصور ، ذهب ضحية وباء مات منه كثيرون بمراكش وفاس وغيرهما واعتبر الافرني الرواية الاولى مجرد أسطورة شعبية (129) ، وذكر كغيره ، انه توفي بظاهر فاس وبها دفن ، ثم نقلت جثته الى مراكش ، فدفن بضريح السعديين وقبره معروف بها في القبة الرئيسية . وكانت وفاته يوم 11 ربيع الاول سنة 1012 (20 غشت ، 1603) .

شخصية المنصور من خلال سلوكه وأعماله :

بقطع النظر عن وصف السمات والملامح البدنية الذي تخصصه المصادر المعاصرة لشخص السلطان أحمد الذهبي ، فان من مجموع التفاصيل التي تزودنا بها الوثائق والمراجع عن اعمال المنصور ومواقفه تستشف الشخصية الكاملة لهذا العاهل كما هي في مظهرها ؛ والى حد كبير ، كما هي في مخبرها ايضا :

اولا : مظاهر الضعف : هي العموم مظاهر انفرادية منعزلة ، وليست تتكرر باستمرار ؛ واهميتها :

1 — الخضوع للتأثير العاطفي ، ويبدو في عدم حل مشكل ولاية العهد ، انتظارا لتوبة المامون على ما يبدو ؟

2 — تهويل بعض المواقف : قضية احمد بابا، والسياسة الافريقية .

ثانيا : الجوانب الايجابية من شخصية المنصور الذهبي :

1 — روح الامتثال والتعاون (مع اخيه عبد الملك) .

2 — الذكاء والحرص على اسرار الدولة : اخفاء موت عبد الملك المعتصم ، ابتكار حروف الشفرة .

3 — الطموح وحسن النية : اقتباس مظاهر الملك والقوة عن دولة عظمى ، توحيد المغرب مع السودان لاستغلال مواردهما المشتركة قصد فتح الاندلس .

4 — اتزان الشخصية : محاولة العمل باصرار على حل المشكلات دبلوماسيا ، بما في ذلك قضية ممالح الصحراء ، والاعتذار الى البلاط العثماني .

5 — شخصية غير معقدة ولا ذات شعور بعدم الاطمئنان : تعيين مسؤولين اكفاء في جميع المستويات

6 — التشبع بالروح النظامية (اثر الانضباط والتسيير لدى الاتراك) : اقرار الامن لصالح السكان والدولة معا . مراقبة تصرفات المسؤولين .

7 — الروح الاجتماعية والانسانية : حماية البوادي ، استضافة الفقراء واعذار ابنائهم . العناية بالفقهاء والموسيقيين والادباء . افتداء ابن القاضي العالم الكبير .

---

(125) Masson, Histoire des établissements du commerce français, p. 65.

(126) انظر أيضا De Castries, Sources, Angleterre, T. 1.

(127) السعدي ، تاريخ السودان ، ص 203 .

(128) القادري ، نشر المثاني ، ص 127 .

(129) الافرني ، نزهة الحادي ، ص 306 .

8 ـ الحرص على العدل : النظر فى المظالم ، قضاة اكفاء نزيهون ، احترام السلطة القضائية .

9 ـ الوفاء بالعهد : العناية بدرعة وسوس بعد اهمال طال أزيد من قرنين ونصف ، وبالنظر لموقفهما ضد البرتغال ولصالح الدولة .

10 ـ الانفتاح الفكري والسياسي : الترحيب باللاجئين من اوروبا يهودا ومسيحيين ، توسيع التعاون مع الخارج .

11 ـ الروح الدينية : اكرام الصوفية والفقهاء، احتفال فخم بالمولد النبوي ، بناء وتوسيع وترميم عدد من المؤسسات الدينية .

12 ـ الانطباع من الوجهة السياسية بواقعية العصر : التنظيم العسكري ، العناية بالاقتصاد ، ترجمة المؤلفات العسكرية والحربية .

تلك نظرة موجزة عن شخصية احمد المنصور الذهبي كرجل دولة ، وعن تطور المغرب فى عهده كبلد يتقوى فيه نظامه الاقتصادي ، ويعيش الشعب آخر فترة ازدهار واعظمها فى ظل السلطة السعدية.

ابراهيم حركات

من موضوعات العدد القادم

- الرد القرآني على كتيب هل يمكن الاعتقاد بالقرءان (13)
- العدد دليل على صدق الرسول الاعظم
- شاعر الاسلام : محمد اقبال
- عطاء التربية الاسلامية .

هذا هدى

بقلم الأستاذ أحمد زياد

حينما طلب الي ان اكتب فى موضوع معركـة وادي المخازن ، او معركة الملوك الثلاثة باسمها الآخر كان ولا بد من القيـام بمراجعـة واستشارة « المصادر » قديمها وحديثهـا والقيـام بجولـة استطلاعية تقضي الضرورة القيام بها عبـر بعـض الكتب والبحوث والمقالات التي كتبـت وانجـزت ونشرت فى الموضوع قديما وحديثـا حتـى اذا انتهيت من هذه الجولة وحصرت الموضوع حصرا فى عدد من النقط والعناصر كان على ان أسلك طريقين اثنين ـ او على الاصح ـ ان اختار واحدا منهما ، الاولى : ان اقتفي طريق الاسلوب التقليدي فى سرد الوقائع والاحداث التي يتصل امرها بهذا الحـدث التاريخي العظيم ، وابرز ما يمكن ابرازه من ضروب التضحيات والبطولات وان اجعل من ذلك سلسلـة اخرى فى سلسلة الامجاد التاريخية ولو على سبيل الذكرى والتذكير . وثانيهما : ان اطوي التاريخ طيا لاتفادى ظاهرة التكرار ، « وعادة » السرد التاريخي الذي لم يعد يكفي وحده فى تحويل التاريخ ـ وخصوصا منه القومي ـ الى مدرسة تعلم القارىء كيف يكيف سلوكه بمعايير ومقاييس من تاريخه القومي وعبـره فاخترت هذا الطريق الثاني ، وذلك من اجل تلافي الزج بالقارىء فى متاهات من الروايـات والسـرد والتكرار واعادة ما قيل والانصراف عما يجب أن يقال فى مثل هذه المناسبة .

وباديء ذي بدء فانني ابادر لاضع معركة وادي المخازن فى اطارها الحقيقي ؛ انها لم تكن مجرد حرب استراتيجية يتصل امرها بالموقع الجغرافي والتوسع الاستعماري الذي اخذ يومئذ يجري ويلهث فى تلك الحقبة من التاريخ ، وراء الهيمنـة على الثـروات الطبيعية لتقام عليها امبراطوريات كان البعض منهـا لا تغيب عنه الشمس .

كما انها لم تكن مجرد تنافس سياسي او لونا من الصراع الذي كان المغرب طيلة عهد استقلالـه يجر اليه جرا وباساليب مختلفة ، ولم تكن كذلـك مجرد معركة املتها دوافع حب العظمة التي كانـت تتميز بها كل من مملكتي الاسبان والبرتغـال ، فماذا كانت اذن هذه المعركة وما هـي هويتها بالضبـط والتدقيق ؟ ، وما محلها من الاعـراب فى « النحـو السياسي » والمنحى التاريخي ؟ انها كانت قبل كل ذلك حربا صليبية مائة فى المائة ، حربا قد تكـون بدايتها هي الحروب الصليبية التي وقعت من اجل بيت المقدس بين قلب الاسد وصلاح الدين ، الا ان العالم العربي والاسلامي لم يشاهد لها نهاية الى الآن وحتـى الآن .

وكل مؤرخ وكل باحث وكل كاتب يتناول تاريخنا القومي محليا واقليميا فى غير هذا الاطار فانما يكون « قد حام حول الحمى دون ان يتربع فيـه » بلغـة الحديث الشريف .

ولم تكن الحرب الصليبية من اجل بيت المقدس سوى اشارة باعطاء الضوء الاحمر لخوض سلسلة من الحروب الصليبية ، وذلك من اجل تقليص القـوة العربية والاسلامية ومن اجل الحيلولة دون اكتساب

وسائل القوة ، بداية من مواد الابازير ، والتوابل في جزر تانجنيقا وزنجبار قبل قرون خلت الى مادة البترول في عصرنا الحاضر ، انها حرب صليبية وان اختلفت شكلا فانها لم تختلف ولن تختلف موضوعا.

تلك هي الحقيقة التي يجب ان نعيها ونركز عليها . والا تغيب عن اذهاننا في غمرة السرد التاريخي ورواية الوقائع والاحداث وبابجدية تاريخية جامدة .

وحرب كهذه ومعركة في مثل معركة وادي المخازن التي لم تكن سوى حلقة من حلقات الحروب الصليبية.اول ما ينبغي البحث عنه في ثنايا تاريخها هو اسباب الربح والخسارة فيها واسباب الهزيمة والانتصار في مصائرها لتستخلص العبرة كما هو المطلوب والمفروض ، لا بحفظ التاريخ وقراءته وسرده مثلما جرت العادة بذلك .

ومن مختلف المصادر التي هرعت الى الرجوع اليها وانا بصدد كتابة هذه السطور التي تعمدت ان تكون في غاية الايجاز ، لم يرسخ في ذهني بصورة أوضح وانصع ، سوى ما يساوي صفحة او صفحتين كان كافيا لان يجعلني ادرك بعقلي والمس بيدي الاسباب الحقيقية او السبب الحقيقي في سر ذلك الانتصار الهائل والرائع ، وفي النوعية الجيدة لذلك السبب الرئيسي ، وهي صفحة لم يرد مضمونها في مصدر من هذه الكتب والكتابات التي تحدثت عن معركة وادي المخازن سواء في قديمها الاقدم ، او في حديثها الاحدث الذي ما يزال طريا في انجازه . وانما هي صفحة وقعت الي او وقعت عليها بالصدفة خلال قيامي بعملية النبش والتفتيش ، عسى ان اعثر على موضوع يكون متسما بالجدة نسبيا فيما اكتبه واشارك به في تخليد هذه الذكرى ، صفحة يروي جزئياتها رحالة برتغالي اسمه (خوسي لوبز) ، ويشخص فيها تشخيصا مجهريا التحام القيادة الحاكمة في ذلك العهد بالقاعدة الشعبية ليواجها معا مقتضيات هذه المعركة وظروفها واضعين اياها في اطارها الحقيقي الذي هو الاطار الصليبي القح .

واذا كان صحيحا ان معركة وادي المخازن قامت على تجهيز عسكري وتخطيط استراتيجي كانا ممتازين بالنسبة لظروف ذلك العهد ومفاهيمه الحربية، فان الامر يكون أصح بالنسبة لهذه التعبئة الشعبية التي تحدثت عن بعضها المصادر العربية ولكن في صورة تكاد تكون باهتة وغير واضحة تبعا لذلك ، في حين ان الرحالة البرتغالي خوسي لوبز أوردها وساقها وبايحاء من اهمية دورها وفعالية تأثيرها في مصير معركة وادي المخازن ، فهو يروي فيما يرويه ويتحدث فيما يتحدث عنه من صور هذه التعبئة الشعبية التلقائية الجماعية ، كيف ان اصحاب الحرف من سكاكين وحدادين ونجارين وعطارين وبقالين كانوا يسهمون اسهاما فعليا ويوميا في هذه المعارك بتقديم العون المادي لجيش المجاهدين سواء منه الرسمي او المتطوع. وكيف ان النسوة كن يغزلن وينسجن الملابس للمحاربين، وكيف ان العلماء كانوا يصدرون الفتاوي للمحاربين ، وكيف ان العلماء كانوا يصدرون الفتاوي بعينية الجهاد ، اي انه فرض عين على كل قادر على حمل السلاح ، وهي الحالة التي تحدث عنها المرحوم ابن زيدان في البعض من « مستطرداته » حينما ذكر ان قولة الشيخ خليل في موسوعته الفقهية الشهيرة، « وتعين ان فملجا العدو » ، اى ان الجهاد يصبح فرض عين كانت في ذلك العهد تصدر كفتوى في شكل منشور بلغة اليوم .

ويزيد خوسي لوبز في روايته ليلفت الانظار الى ظاهرة اخرى تشكلها مواكب الفرق الانتحارية من المتطوعين الذين كانوا يؤلفون في بعض المواقع طلائع للجيش الرسمي في حين انه كانت توجد لجان خاصة لضمان التموين وتوفيره احتياطا لكل خصاص في هذا الباب لا بد وان يلحق الضرر بالمجهود الحربي ، ويمس معنوية هذه التعبئة الشعبية فيقلل من حماستها .

لقد كان المواطنون يعرضون خدماتهم على السلطة ، كما انهم في احايين اخرى كانوا انفسهم يقيمون سلطة لانفسهم في الاحياء والاسواق ، وامام هذا الالتحام فيما بين القاعدة والقمة وامام هذه التلقائية التي كان وقعها النفسي على العدو والخصم لا يقل عن وقع العمليات العسكرية ، كان الربح وحصل الانتصار .

ذلك لان الشعب المغربي كان قد وضع هذه المعركة في اطارها الحقيقي وادرك ادراكا تاما نوعيتها

فأعد لها من الوسائل ما يناسب ويلائم هذه النوعية، انه خاض غمارها انطلاقا وشعورا من انها حرب صليبية كيفما كانت الدعاوي والدوافع والتعليل والظروف والمعطيات .

ونظرا لانه خاضها بهذه الروح ، فانه لم يكن بد من ان يعد لها العدة وان يوسع مساحة المعركة توسيعا يحقق لكل مغربي قادر الشعور بالمسؤولية ليقدم كل ما يستطيع بذله من جهد فكري او تدبير مادي او معونة مهما كان نوع بساطتها ، ومعركة كمعركة وادي المخازن ما كان النصر ليتوج اعلامها ، لولا هذا الحماس الشعبي الذي كانت تفتقر اليه معارك اخرى عبر تاريخ المغرب الطويل ، فلم يكتب لها النجاح ، ولعل افتقارها لهذا العنصر يعود اصلا الى انها لم توضع فى اطارها الحقيقي وبشكل بارز وفعال ، فالجيوش العرمرمة من غزاة البرتغاليين والتي كانت قيادتها على مستوى القمة ، لم تستطع امتصاص حماس التعبئة الشعبية لانها ادهشتها مثلما ادهشت الرحالة خوسي لويز فركز عليها وصفه بشكل يستنتج منه انها لفتت نظره ، بل وفتنته اكثر مما تكون قد ادهشته كما يستشف ذلك من خلال عرضه واشارته لبعض مشاهدها .

تلك هي الحقيقة التي ينبغي التركيز عليها وابرازها كلما دعت المناسبات للحديث عن حروب العرب والمسلمين فى مشارق الارض ومغاربها مع الغزاة ، وذلك بدلا من الاكتفاء بسير الوقائع بأسلوب أبجدي يعني بتواريخ الوقائع اكثر مما يعني بمغازيها وأبعادها .

والتاريخ لم يكتب ولم يقرأ لمجرد الاطلاع على عصوره ومراحله والتطلع فى رواياته ومصادره وتآليف الاطروحات فى مراحله ومواضعه ، وانما التاريخ هو قبل كل شيء موسوعة مدرسية تستطيع ان تلقن أكثر مما تلقنه مدرسة الاقسام والحجرات ، وذلك على حد تعبير السياسي النمساوي (ماترنيخ) .

ان مغزى معركة وادي المخازن لم يكن سوى حلقة من سلسلة حلقات من الحروب الصليبية التي ما يزال شريط مسلسلها الطويل يتوالى على الساحة العربية الاسلامية تارة يتخذ شكله الحربي ، وأحايين اخرى يتقمص اشكالا والوانا من الدسائس والمؤامرات، وان اشرت الى ذلك فان جوهر الحرب الصليبية وعقليتها لم يطرأ عليها اي تغيير رغم ما قيل ويقال من اختفاء العنصر الديني لدى العالم المصنع .

ورغم ما ردد وما يزال يردد من مبادىء ومفاهيم يدعي اصحابها انه وقع القضاء ، قضاء تاما على رواسب العصور الوسطى ، وما لم يفهم العرب والمسلمون هذه الحقيقة وما لم يحفروها حفرا فى اذهانهم ويعدوا عدتهم لمواجهة حلقات ذلك المسلسل الذي بدا منذ قرون ولم ينته ومن غير المحتمل انه سينتهي قريبا ، انه ما لم يواجه هذا الوضع بتعبئة شعبية تلقائية جماعية مثل هذه التي توفرت فى معركة وادي المخازن فان الصليبية التي تجوز لنفسها احيانا ان تتحالف مع العالمية فى نطاق سياستها التي ما تزال حتى الآن تعتمد على فصول كتاب التلموذ وبنوده ، ستظل مكشرة انيابها هنا وهناك وهنالك فى كل أرض عربية مسلمة وبكل قطع وبتمام الجزم ، وبكامل اليقين ، فان اى تسليح مادي سيظل مصحفا فى بيت زنديق ما لم تسبه تعبئة شعبية وما لم تسبق هذه التعبئة شروطها وظروفها اللازمة التي توفرت كاملة فى معركة وادي المخازن ، فكان لها هذا النصر الذي كان فى واقع الامر نصرا للعرب والمسلمين فى مشرق الارض ومغربها .

ويوم ان يتوفر كل ذلك فانه يمكن القول وبقناعة تامة ما يفيده المضمون العظيم لهذه الآية الكريمة الوجيزة جدا والعظيمة اكثر من ذلك ، « هذا هدى » .

أحمد زياد

العلماء وراء معركة وادي المخازن

للأستاذ حسن السائح

لقد كانت الدول المغربية تصدر حكامها وتتخذ مواقفها بناء على فتاوي العلماء وتوجيهاتهم ، حيث كان لهؤلاء من المعرفة والتقوى والاهتمام بالمصلحة العامة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يجعل لكلماتهم واحكامهم وزنا تجب رعايته وتنفيذه فكان العلماء هم الرأس المدبر والجهاز المشرع في الدولة، ونظرا لصلتهم بالشعب فقد كانوا ممثلين حقيقيين للشعب ، وكانت جماعتهم تكون حلقة مرتبطة بكل الطبقات الاجتماعية ، ولهذا كانوا ممثلين لكل طبقات الامة بالانتخاب الضمني السكوتي دون حاجة الى الاقتراع العام ، كما كان العلماء يستندون في عملهم الى أصل شرعي وهو (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) او ما يعرف عنه اليوم بالافصاح عن حقوق الامة السياسية والاقتصادية ورعاية المصلحة العامة والوقوف في وجه التيارات المنحرفة او التي تخدم مصالح طبقة خاصة على حساب اخرى ..

وقبل معركة وادي المخازن بقليل هدف محمد المتوكل المسلوخ ان يستميل العلماء عن طريق ارهابهم او تفريق وحدتهم بيد انهم أجابوه في رسالة مسهبة خالدة ، ليضعوه في موقف حرج وليبقى وحده يحمل حجرة (سيزيف) التي ستقصم ظهره في معركة وادي المخازن .

لقد قدر ، وقدر .. قتل كيف قدر .. وقدر العلماء فأحسنوا التقدير !

وصعد محمد بن عبد الله الصراع بينه وبين ابي مروان حتى استنجد بملك البرتغال فاستجاب له ليحقق هدفه الاستعماري والتبشيري في المغرب ، واراد محمد بن عبد الله ان يبرز عمله المشين فكتب الى علماء المغرب رسالة ينتقد عليهم بنكث بيعته ومبايعة ابي مروان عبد الملك السعدي .

ومن خلال هذه الرسالة تستشف بعد نظر العلماء ، والتزاماتهم الدينية والاخلاقية ، ومعرفتهم بدقائق الحياة السياسية في عصرهم وشجاعتهم الادبية .. وهذه الرسالة تعكس وعي المجتمع المغربي في هذا العصر حيث كان متيقظا ، محاسبا نفسه وقاداته وعلمائه ولم يكن امعة استسلاميا ! . ومن العجيب ان المعاصرين يتهمون أجدادنا بتفريطهم وعدم المامهم بقضايا عصرهم ، وانهم المسؤولون عن ماساتنا وما تعانيه من الاستعمار .. وفاتهم ان العلماء ادوا رسالتهم بامانة ، وان (المسجد) وما تستلزمه صلاة (الجماعة) من تكتل المسلمين فيه كانت عاملا على بعث اليقظة ، ومعرفة الماجريات في هذه الجماعة وسنسوق نص الرسالة لتدرك من خلالها ما اردت اثارة الانتباه اليه .. فقد كانت الرسالة جوابا عن رسالة محمد المتوكل التي يبرز فيها موقفه قائلا : « ما استصرخت بالنصارى ، حتى عدمت النصرة من المسلمين » ، وقد قال العلماء : انه

عبد الملك بن مروان رتبها فى الاكبر فالاكبر من بنيه فلم ينازعه احد فى ذلك .

فان قلت : فعل عبد الملك ليس بحجة ، قلنا : سكوت العلماء على ذلك وهم ما هم فى زمانه هو الحجة اذ لا يمكن ان يسكتوا على باطل ، واقرار اهل العصر الواحد على مسالة من المسائل واتفاقهم عليها يقول يقوم مقام الاجماع الذي هو حجة الله فى أرضه، واكن ايضا من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم رضي الله عنه فى صحيحه فى كتاب الامارة ما نصه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند رأسه يقال هذه غذرة فلان ، الا ولا غادر أعظم غدارا من امير عامة) قال القاضي : ابو الفضل عياض رحمه الله فى كتاب (اكمال المعلم على شرح فوائد مسلم) : (يعني لم يحطهم ولم ينصح لهم ولم يف بالعقد الذي تقلده من أمرهم) وفى الباب نفسه عنه عليه الصلاة والسلام ما نصه : (ما من أمير استرعاه الله رعية ثم لم ينصح لهم الا لم يرح رائحة الجنة ، وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام) وفى (الاكمال) نفسه قال القاضي : (والذي عليه الناس ان القوم اذا بقوا فوضى مهملين لا امام لهم فلم ان يتفقوا على امام يبايعونه ، ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض. ويقيم لهم الحدود) فلما اسلمتهم واضحوا ، بغير امام وعمك يدلي بحجته التي ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام السلف الصالح ، ويئسوا من رجوعه اليهم وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم الا الرجوع الى ما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتفقوا على ان يبايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التي لا يسعك جحدها الا على وجه المكابر ، فاطمأن الناس وسكنوا وانفتحت السبل واقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية .

فان قلت : كان يجب عل ى أهل فاس ان يقاتلوا على البيعة التي التزموها لك قلنا : انما يلزمهم القتال ان لو اقمت بين اظهرهم فيكون قتالهم على وجه شرعي لان القتال على الحدود الشرعية انما يكون بعد نصب امام يصدر الناس عن رأيه ولا يمكنك ايضا جحدها ايضا اية . ثم وصلت الى مراكش الفراء التي تجبي اليها الاموال من البوادي والامصار ، وتشد اليها الرحال من سائر الاقطار فلقيك أهلها بالترحاب والسرور ، وانواع الفرح والحبور فوجدت خزائنها تتدرج ملئا من كل شيء ، فاما أسوارها ورحابها فهي كما قيل : تربة الولي ، ومدرج الحلي ، وحضرة الملك الاولى ، والبرج النير الجلي ، فحللتها وتمكنت من اموالها وخزائنها ، ووافقك أهلها فما نكثوا ولا غدروا، ولا خرجو ا عليك فى سلطانك ولا انكروا ، فطلبت ايضا قتال عمك وجندت جنودا لا يجمعها ديوان حافظ ولا يعهدها لسان لافظ ، فخرجت اليه تجر أعنة الخيل وراءك كالسيول ، والرماة قد ملأت الهضاب والتلول، فما كان من حديثك الا ان وقع القتال وحضر النزال، بادرت هاربا محكما للعادة ، تاركا للرؤساء من اجنادك والقادة ، فحلت بهم الخطوب والرزايا واختطفتهم ايدي المنايا ، فتركت ايضا محلتك بما فيها من حريمك واموالك وعدتك ، ثم اسرعت هاربا الى مراكش فما صدك عنها احد من أهلها ، ولا قال لك احد لست ببعلها فعملوا على القتال معك والتمنع باسوارها الحصينة والحصار داخل المدينة ، فلما كان الليل غدرتهم وغادرت بناتك واخواتك وعماتك ونساءك ، وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس ، ولا راجل ولا فارس ، فيالها من مصيبة ما اعظمها ، ومن داهية ما أعضلها . ولولا فضل الله ولطفه ووعده بتطهير اهل البيت لامتدت اليهم أيدي السفلة من الفسقة ، فاي حجة تبقى لك بعد هذا ؟ واي كلام لك بين الرجال يا هذا ؟ ثم جاءك عمك ايضا بما سلف من الحجج فوجد اهلها فى لطف الله سبحانه وهم يحرسون أولادهم وديارهم من اليد العادية ، فانقذهم الله به ايضا فبايعوا عمك بما سلف من الحجج ، واطمانوا وسكنوا ، ثم هربت للجبل عند صاحبه فصرتما فى نهب أموال الرعية وسفك دمائهم ، واكثر ما صفا لك من ذلك أهل الذمة المصغرون بحكم القرءان ، الداخلون تحت عهد سيد الثقلين فى الامن والامان فانت وهم فى استيلائك عليهم وظلمكاياهم كما قيل :

ان هو مستوليا على أحد
الا على أضعف المجانين

ولم تبال بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (انا خصيم من ظلم ذميا يوم القيامة) خربت العامر ، وافسدت ما شيدت الاسلاف للاسلام من المآثر ، فلما راى اهل السوس الاقصى ذلك ايقنوا انك انما قصدت خراب الاسلام واهله فنكب عنك اهل الدين والعلم منهم وبقيت كما قيل :

عبد الملك بن مروان رتبها في الاكبر فالاكبر من بنيه فلم ينازعه احد في ذلك .

فان قلت : فعل عبد الملك ليس بحجة ، قلنا : سكوت العلماء على ذلك وهم ما هم في زمانه هو الحجة اذ لا يمكن ان يسكتوا على باطل ، واقرار اهل العصر الواحد على مسالة من المسائل واتفاقهم عليها يقول بقوم مقام الاجماع الذي هو حجة الله في ارضه، واكن ايضا من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم رضي الله عنه في صحيحه في كتاب الامارة ما نصه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ويرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند راسه يقال هذه غدرة فلان ، الا ولا غادر اعظم غدارا من امير عامة) قال القاضي : أبو الفضل عياض رحمه الله في كتاب (اكمال المعلم على شرح فوائد مسلم): (يعني لم يحطهم ولم ينصح لهم ولم يف بالعقد الذي تقلده من امرهم) وفي الباب نفسه عنه عليه الصلاة والسلام ما نصه : (ما من امير استرعاه الله رعية ثم لم ينصح لهم الا لم يرح رائحة الجنة ، وان ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام) وفي (الاكمال) نفسه قال القاضي : (والذي عليه الناس ان القوم اذا بقوا فوضى مهملين لا امام لهم فلم ان يتفقوا على امام يبايعونه ، ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض. ويقيم لهم الحدود) فلما اسلمتهم واضحوا ، بغير امام وعمك يدلي بحجته التي ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام السلف الصالح ، ويئسوا من رجوعه اليهم وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم الا الرجوع الى ما عليه الناس رضوان الله عليهم فاتفقوا على ان يبايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التي لا يسعك جحدها الا على وجه المكابر ، فاطمان الناس وسكنوا وانفتحت السبل واقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية .

فان قلت : كان يجب على اهل فاس ان يقاتلوا على البيعة التي التزموها لك قلنا : انما يلزمهم القتال ان لو اقمت بين اظهرهم فيكون قتالهم على وجه شرعي لان القتال على الحدود الشرعية انما يكون بعد نصب امام يصدر الناس عن رايه ولا يمكنك ايضا جحدها ايضا اية . ثم وصلت الى مراكش الغراء التي تجبى اليها الاموال من البوادي والامصار ، وتشد اليها الرحال من سائر الاقطار فلقيك اهلها بالترحاب والسرور ، وانواع الفرح والحبور فوجدت خزائنها تتدرج ملئا من كل شيء ، فاما اسوارها ورحابها فهي كما قيل : تربة الولي ، ومدرج الحلي ، وحضرة الملك الاولى ، والبرج النير الجلي ، فحللتها وتمكنت من اموالها وخزائنها ، ووافقك اهلها فما نكثوا ولا غدروا، ولا خرجوا عليك في سلطانك ولا انكروا ، فطلبت ايضا قتال عمك وجندت جنودا لا يجمعها ديوان حافظ ولا يعهدها لسان لافظ ، فخرجت اليه تجر أعنة الخيل وراءك كالسيول ، والرماة قد ملات الهضاب والتلول، فما كان من حديثك الا ان وقع القتال وحضر النزال، بادرت هاربا محكما للعادة ، تاركا للرؤساء من أجنادك والقادة ، فحلت بهم الخطوب والرزايا واختطفتهم أيدي المنايا ، فتركت ايضا محلتك بما فيها من حريمك واموالك وعدتك ، ثم اسرعت هاربا الى مراكش فما صدك عنها احد من اهلها ، ولا قال لك احد لست ببعلها فعملوا على القتال معك والتمنع باسوارها الحصينة والحصار داخل المدينة ، فلما كان الليل غدرتهم وغادرت بناتك واخواتك وعماتك ونساءك ، وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس ، ولا راجل ولا فارس ، فيالها من مصيبة ما اعظمها ، ومن داهية ما أعضلها . ولولا فضل الله ولطفه ووعده بتطهير اهل البيت لامتدت اليهم أيدي السفلة من الفسقة ، فاي حجة تبقى لك بعد هذا ؟ واي كلام لك بين الرجال يا هذا ؟ ثم جاءك عمك ايضا بما سلف من الحجج فوجد اهلها في لطف الله سبحانه وهم يحرسون اولادهم وديارهم من اليد العادية ، فانقذهم الله به ايضا فبايعوا عمك بما سلف من الحجج ، واطمانوا وسكنوا ، ثم هربت للجبل عند صاحبه فصرتما في نهب اموال الرعية وسفك دمائهم ، واكثر ما صفا لك من ذلك أهل الذمة المصغرون بحكم القرءان ، الداخلون تحت عهد سيد الثقلين في الامن والامان فانت وهم في استيلائك عليهم وظلمك اياهم كما قيل :

ان هو مستوليا على أحد
الا على اضعف المجانين

ولم تبال بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (انا خصيم من ظلم ذميا يوم القيامة) خربت العامر ، وافسدت ما شيدت الاسلاف للاسلام من المآثر ، فلما راى اهل السوس الاقصى ذلك ايقنوا انك انما قصدت خراب الاسلام واهله فنكب عنك اهل الدين والعلم منهم وبقيت كما قيل :

(فى خلف كجلد الاجرب) .

فان قلت : ان أولئك الخلف لم يبايعوا عمك فتنقض بهم ما قررناه ، قلنا : لم يطعن فى خلافة امير المؤمنين ابي الحسن علي بن ابي طالب رضي الله عنه من تخلف عنها من اهل الشام ، وفيهم من قد علمت من الناس ، والاجماع على صحة بيعته : وسمى من تخلف عنها : باغيا لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمار : (تقتلك الفئة الباغية) فقتله اصحاب معاوية رضي الله عنه والحديث من اعلام نبوته عليه الصلاة والسلام ، والقاعدة أن ما اجتمع عليه من يعتبر من أهل العصر الواحد هو المعول عليه ، ولا يعد خلاف من خالفه خلاف وهذا كله بالنظر الى ما كان من حديثك قبل التحزب مع عدو الدين ، والاخذ فى التخليط العظيم على المسلمين ، فانك اتفقت معهم على دخول اصيلا ، واعطيتهم بلاد الاسلام ، فيا لله ويا لرسوله لهذه المصيبة التي احدثتها ، وعلى المسلمين فتقتها، ولكن الله تعالى لك ولهم بالمرصاد ، ثم لم تتمالك ان القيت بنفسك اليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم كانك ما طرق سمعك قول الله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم) قال ابو حيان رحمه الله : أى لا تنصروهم ولا تستنصرو بهم فى كتاب القضاء من نوازل الامام البرزلي رحمه الله : ان امير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني رحمه الله استفتى علماء زمانه رضي الله عنهم ، وهم ما هم، فى استنصار ابن عباد الاندلسي بالكتابة الى الافرنج على أن يعينوه على المسلمين فاجابه جلهم رضي الله عنهم بردته وكفره ، فتأمل هذا مع قضيتك تجدها اخروية مناسبة لقضية ابن عباد فى عقدها ابتداء وانه متى طرا الكفر وجب العزل ، وناهيك بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (عليكم بالسمع والطاعة) وبما أفتى العلماء رضوان عيلهم بردة من استنصر بالنصارى على المسلمين فهو نص جلى فى وجوب خلعك ، وسقوط بيعتك ، فلم تبق لك الا منازعة الحق سبحانه فى حكمه ، (ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) .

وأما قولك : فى النصارى فانك رجعت الى أهل العدوة واستعظمت ان تسميهم بالنصارى ، ففيه المقت الذي لا يخفى . وقولك : رجعت اليهم حين عازمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله احدهما : كونك اعتقدت ان المسلمين كلهم ضلال ، وان الحق لم يبق من يقوم به الا النصارى والعياذ بالله والثاني : انك استعنت بالكفار على المسلمين . وفى الحديث : ان رجلا من المشركين ممن عرف بالنجدة والشجاعة جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم . فوجده بحرة الوبرة « موضع على نحو اربعة اميال من المدينة » فقال له: (يا محمد ، جئت لانصرك) فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (ان كنت تؤمن بالله ورسوله) فقال (لا افعل) فقال له عليه الصلاة والسلام : (اني لا استعين بمشرك) وما سمعته من قول العلماء رضي الله عنهم فى الاستعانة بهم انما هو على المشركين بأن نجعلهم خدمة لازبال الدواب لا مقاتلة ، فاما الاستعانة بهم على المسلمين فلا يخطر الا على بال من قبله وراء لسانه ، وقد قيل قديما : (لسان العاقل من وراء قلبه) وفى قولك : يجوز للانسان ان يستعين على من غصبه حقه بكل ما ملكه وجعلت قولك هذا قضية انتجت لك دليلا على جواز الاستعانة بالكفار على المسلمين ، وفى ذلك صادمة للقرءان والحديث وهو عين الكفر ايضا والعياذ بالله .

وقولك : فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، ايه انت مع الله ورسوله أو مع حزبه فتأمل ما قلت ففي الحديث : (يتكلم احدكم بالكلمة تهوى به فى النار سبعين خريفا) .

ولما سمعت جنود الله وانصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا ، حملتهم الغيرة الاسلامية والحمية الايمانية ، وتجدد لهم نور الايمان .

واشرق عليهم شعاع الايقان ، فمن قائل يقول : (لا دين الا دين محمد صلى الله عليه وسلم) ومن قائل (سترون ما اصنع عند اللقاء) ، ون قائل يقول: (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) ومن قائل يقول : (انما قصد التشفي بالمسلمين اذ لو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هذه الافعال القبيحة) الى غير ذلك ، فجزاهم الله عن الاسلام خيرا . ورضي عنهم وبارك فيهم ، فلله درهم من رجال وفرسان وأبطال وشجعان فلو لم يكن منهم الا ما غير قلوبهم على الدين لكان كافيا فى صحة ايمانهم وعظيم ايقانهم فقد بلغ نور غضبهم لله سبحانه ساق العرش والحب فى الله والبغض فى الله من قواعد الايمان .

وقولك ايضا : متبرئا من حول الله وقوته ، فان لم تفعلوا فالسيف . فهو كلام هذيان يدل على حماقة قائله فقط . انباء سيفك هذا وانت مع المسلمين فى

رابع وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية ، ثم زال نبوه الآن بالكفر فهذه اضحوكة فتأملها .

واما ما نسبته لامام دار الهجرة فكفاك عجزا ان لم تعين لنا نصا جليا ، نعتمد عليه فيما تحتج بـه الا انك كثرت به سواد القرطاس مغربا بذكره لا معربا بنصـه .

وما نسبته للحنفية من اكل الميتة عند الضرورة وتسويغ الغصة بخمر ، فهو مما نص عليه المالكية في مختصراتهم التي الفوها للصبيان ، فعدولك عن ذلك الى الحنفية اما قصور ، واما الغاء المذهب مالـك رضي الله عنه ، وهو النجم الثاقب .

واما قولك : أنتم اهل بغي وعناد فلا نسلم لـك ذلك الا لو اقمت بين اظهرنا وقاتلت معنا حتى تـرى انسلمك ام لا . فأما اذا هربت عنا وتركتنا فالحجة عليك لا علينا ، على انك فى كتابك تفسق الكل بذلك وتكفره ، وقد قال العلماء رضي الله عنهم : (من يقول بتكفير العامة فهو اولي بالتكفير) وذلك معزو لزعيم العلماء القاضي ابي الوليد ابن رشد ، والقاضي ابي الفضل عياض ، وكيف لا تنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرهما من سائر البلدان ، وكيف وقـع لامرائهـم المستنصرين بالكفار على المسلمين ، هل حصلوا على شيء مما قصدوه ، او بلغوا شيئا مما أملوه ؟ على ان اكثر العلماء حكموا بردتهم فقاتتهم الدنيا والآخـرة والعيـاذ باللـه .

وقد افتخرت فى كتابك بمجموع الروم وقيامهم معك ، وعولت على بلوغ الملك بحشودهم واني لـك هذا مع قول الله تعالى : (اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينـا) (ويابى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : (لن تغلب هذه الامة ولو اجتمع عليها من الكفار ما بين الابـات الدنيا) وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال : (سيقاتل آخر هذه الامة الدجال) وعنـه صلى الله ا عليـه وسلـم انـه قـال : سألـت ربـي ثلاثا فأعطاني اثنين ومنعني واحدة ، سألته الا يهلكهم بسنة عامة فاعطانيها ، وسألته الا يغلبهم عدوهم الكافر فاعطانيها ، وسألته الا يجعل باسهم بينهم فمنعنيها) والكل عليك واياك نعني .

وما ذكرته عن عمك : فاعلم انه لما بلغه خبرك واستنصارك بالكفار عقد الويته المنصـورة بالله فى وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها اهل الله من حملة القرءان ائة ختمة ، وصحيح البخاري ، وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسـلام على البشير النذير ، والدعاء له وللاسلام بالنصر والتمكين والفتح الشامخ المبين ، فلو سمعت ذلك لعلمـت وتحققت ان ابواب السماء انفتحت لذلك ، وقضى ما هنالك وبلغه كتابك الذي كان هذا جوابا عنه وهـو بوسط تامسنا معه من جنود الله وانصاره وحمـاة دينه ما يجعل الله فيه البركة ، ولـولا ان الشـرع العزيز امر بتعظيم جنود الاسلام والمباهـاة بهـا ، والافتخار بكثرتها لما قررنا لكم امرها اذ لا اعتماد له ايده الله عليها ، وكذلك هم لا اعتماد لهم الا على حول الله وقوته ونصره وتأييده ، والناس على دين الملك وقد قاتلك وانت فى وسط المسلمين فى بضع عشرة معركة لم تنصر لك فيها راية ، فاي نحس وشؤم حلا بديار الروم ، فان جلبتهم فالله لك ولهم بالمرصاد ، ارجع الى الله أيها المسكين ، وتب اليه فانه يقبـل التوبة عن عباده فى كل وقت وحين ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله ، وهـذه نصيحة ان قبلتها ، ووعظة ان وفقت اليهـا و الله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم وهو نعم المولى ونعم النصير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والسلام ».

هذه (رسالة العلماء) التي وقع عليها علمـاء المغرب وبالاخص علماء القرويين الذين يعتبرون فى مركز القيادة الدينية اعتبارا لوحدتهم وتكتلهـم فى جامعة القرويين ، بينما باقي العلماء الكبار فى مختلف المدن المغربية لا يتوفرون على الاكثرية والوحـدة التي عقدتها يد جامعة القرويين بفاس ، وقد كانـت وحدتهم ردا على وحـدة الرهبـان المسيحييـن (المنضوين) تحت وحدة الفاتكان والعاملين تحـت قيادته ، والذين تكتلـوا فى كنائس اسبانيا قصـد مهاجمة الاسلام فى عقر داره بفاس ومراكش ، وهيأوا الخطب التي ستلقى من فوق منبر القرويين ومنبـر الكتبية بمراكش ، وحملوا الاجراس التـي ستـدق وتدوي فوق صوامع فاس ومراكش ، كما دوت فوق صومعة مسجد اشبيلية وصومعة مسجد قرطبـة ، ولكن علماء الاسلام المغاربة تصدوا للحملة المسيحية ولم تلتبس عليهم طبيعة الامور فى هذه المعركـة الفاصلة ، فالرسالة فى جوهرها معبـرة عن تتبـع الاحداث ، ووعي المرحلة ، وشجاعـة الموقـف ، ووحدة الصف .. وهذه الخصال الاربـع كافيـة لتحقيـق النصـر .

كما انها فى اسلوبها بليغة ، دالة على اطـــلاع تاريخي وفقهي ، ومعرفة جانب السياسة الشرعيـــة او ما يعبر عنه اليوم بالقانون الدستوري ، ولم يغفل العلماء الذين دبجوها ان يمزجوا التحليل بالتعليـــل والفتوى بالحوار والجدل اشعارا بجدية الموقف ، وتجاوز الاحداث بالدخول فى مهاترات وجدليـــات عقيمة ، فكل ما كان يساور المتقاعسين والخونة من هواجس ، كانوا يثيرون عنه السؤال ، ويجيبـــون بيقظة وجدية ، وذلك دليل على دراستهم للموضوع من كـــل جوانبـــه ...

والواقع ان وادي المخازن كانت نتيجة احداث تتابعت لتجد حلها النهائي فى هذه المعركة الفاصلة والتحليل التاريخي لما قبل وادي المخازن مما افضى الى ضرورة معركة فاصلة ...

فمن معركة الزلاقة ، الى معركـــة الارك ، الى معركة العقاب ، والاحداث تبرهن ان الصـــراع بين المسيحية والاسلام عقيدة ، وبين المغرب واوربـــا جغرافيا وبين المغاربة والاوربيين عنصرا . لا محالة سيقـــــع !

اما التحليل الافقي لواقع المغرب قبل معركة وادي المخازن ... فان المسيحية ازدهرت بسقوط غرناطة وطرد الموريسكو ، واكتشاف اريكا بينمـــا دخل المغرب مرحلة الانحلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي بعد سقوط الاندلس ، وتضعضع دولة بني مرين التي جاءت لحماية الاسلام فى الاندلس ، وقد عبر الهبطي والكراسي ، والفاسي ، وابي عسكـــر وغيرهم ، عن الازمة الاجتماعية سواء فى الباديـــة او الحاضرة ، وكان سقوط دولة بني مرين التي كانـــت بعثتها من اجل انقاذ الاندلس سبب دخول المغـــرب لفتن داخلية بين امارات صغرى متربصة فى مراكش وفاس ، ودبدو ، وسبتة وسوس ، كما كانت محاولة العثمانيين لحكم المغرب تحت وحدة الخلافة الاسلامية لمواجهة التكتلات المسيحية عاملا على تاجيج الوضع فى المغرب وضرورة تفجير المتناقضات فى معركـــة فاصلة كانت هي معركة وادي المخازن !



موقعة وادي المخازن واندحار الصليبية بالمغرب

للأستاذ سعيد أعراب

من المعارك الفاصلة فى تاريخ المغرب ، موقعة وادي المخازن ؛ ويشبهها بعض المؤرخين بغزوة بدر الكبرى ، التي كانت الحد الفاصل للوثنية بالمشرق ، وكذلك وقعة المخازن ، فقد جعلت النهاية للصليبية والصليبيين بالمغرب .

ما قبل المعركة :

قبل أن ندخل فى تفاصيل هذه الموقعة ، ينبغي أن نشير الى الاحداث والتطورات الهامة التي سبقتها ، مما له علاقة بها ، او يعد من اسبابها .

صراع بين الصليبيين والاسلام :

منذ أن بدا ظل الاسلام يتقلص بالجزيرة الايبرية – بعد أن ملأها رحمة وعدلا ، ومدنية ورقيا ؛ – والصليبية تواصل زحفها على اقطار المغرب ، وشمال افريقية بعامة ، بدافع الحقد الاسود !

وقد انعقد تحالف صليبي – باركه البابا الاسكندر السادس – بين جارتي المغرب : اسبانيا والبرتغال على سحق المغرب (قلعة الاسلام) ، ومحوه من خريطة الوجود ؛ وكان الاسبان أول من طبق الخطة ، فقاموا بحملة تخريبية يتزعمها الريكي الثالث ، فهدموا تطوان (القديمة) وتيجيساس سنة (803 هـ – 1401 م) ، واستولوا على مليلية (902 هـ – 1497 م) ، وحجرة بادس (912 هـ – 1507 م) .

وهكذا ، واصلوا زحفهم على باقي اقطار المغرب ، فاستولوا على عدة مدن ، وهدموا وخربوا .

أما البرتغاليون – الذين نسوق اليهم هذا الحديث – ، فقد دشن جان الاول مؤسس الدولة البرتغالية – حملته الصليبية بمهاجمة سبتة الآمنة ، فاحتلها بجيش جرار سنة (818 هـ – 1415 م) ، ثم القصر الصغير (863 هـ – 1458 م) ، وطنجة (869 هـ – 1464 م) ، وأنفا (الدار البيضاء) – (872 هـ – 1467 م) ، وأصيلا (876 هـ – 1471م) والبريجة (الجديدة) – (907 هـ – 1502 م) ، والعرائش (910 هـ – 1504 م) ، واكادير (911هـ – 1505 م) ، وآسفي (912 هـ – 1507 م) ، وازمور (914 هـ – 1508) ، والمعمورة (المهدية) – (920 هـ – 1515) .

رد الفعل من المغاربة :

ورغم احتلالهم لاكثر شواطىء المغرب ، فانهم لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد ، لان رد الفعل من المغاربة كان قويا ، وقد اذكت هذه الحملات البرتغالية والاسبانية – روح النضال فى سائر طبقات الشعب ، وساعد على ذلك قيام دولة السعديين ، فساندت الحركة الجهادية ، وجعلت مهمتها تحرير المغرب من

النفوذ الاجنبي ، وتوحيد البلاد ؛ وهكـذا حـرر السعديون أكادير سنة (948 هـ ــ 1541) ، وكان لهذا النصر صداه البعيد ؛ ثم تلته انتصارات اخرى اضطر معها البرتغاليون لاخلاء آسفي سنة (952 هـ ــ 1545 م) ، ثـم أصيـلا (956 هـ ــ 1549 م) ، والقصر الصغير (957 هـ ــ 1550 م) ، ولم يبـق بيد البرتغال الا طنجة وسبتة في الشمال ، والجديدة في الجنوب .

حملة دعاية لسياسة التوسع باشبونة :

ورغم الانهزامات المتتاليـة ، والاندحـارات الساحقة ، التي مني بها الجنود البرتغاليون ؛ فقـد حاول الرهبان ، والعسكريون الصليبيون ــ باشبونة ــ ان يغطوا عليها بغربال مكشوف ، فنظموا حملة دعائية لسياسة التوسع ، واشادوا ببطولة الجيش البرتغالي الظافر المنتصـر !

وصادف انعقاد المؤتمر المسيحي بمدينة طرانط، فنوه بدوره بالانتصارات التي سجلها البرتغاليون في حروبهم الصليبية مع المغرب ، مما زاد في غـرور شباب البرتغال ، وضاعف من حماسهم لاعادة الكرة مرة اخـرى

البرتغال تخطط لحرب صليبية شاملة على المغرب :

كان على عرش الامبراطورية البرتغالية ــ الملك دون سيبستيان ــ وهو شاب غر ، وجد نفسه على راس اعظم دولة في ذلك العصر ، فكان يحلم بامتلاك الدنيا كلها ، وباحتلال كل أراضي الاسلام والقضـاء عليه ؛ فجعل يخطط لحرب صليبيـة شاملـة على المغرب ، فاتصل بخاله ملك اسبانيا فليب الثاني ، يدعوه للمشاركة فيها ، كما دعا سائر الممالك المسيحية؛ لكن خاله حذره من مغبة هذه المغامرة الجريئة ، كما عارضه كثير من مستشاريه ورجال دولته .

المغرب يعيش اضطرابات داخلية :

وكان المغرب يعيش ــ لهذا العهد ــ اضطرابات داخلية ، وحروب دامية ؛ فما ان توفي أبو عبد الله الغالب (982 هـ ــ 1574 م) ، وبويع ولـده محمد المتوكل ، حتى اختلت الاوضاع ، وسادت الفوضى والاضطرابات ؛ فقامت حروب مروعة بين المتوكـل وعمه أبي مروان عبد الملك المعتصم ، وفي النهاية تغلب هذا الاخير ، يعززه في ذلك العثمانيون بالجيش والعتاد ، وكان ساعده الايمن اخـوه ابو العبـاس المعروف بعد ــ بالمنصور .

فالتجا المتوكل الى اسبانيا ، ثم الى اشبونة ــ طالبا النجدة والعون ؛ فصادف هوى في نفس الملك البرتغالي دون سيبستيان ، واهتبلها فرصة لتنفيذ مخططه الصليبي ، الذي اعد له كل شيء ، واستجاب لدعوته كثير من الامم المسيحية ، وباركها البابـا ، وانهالت عليه الامدادات بالرجال والعتاد .

الـى المعركـة :

فلنترك الملك الشاب دون سيبستيان ــ وهو يداعب احلامه ، ويملي شروطه على رمز الخيانة الملك المخلوع المتوكل ، المعروف ــ بعد ــ بالمسلوخ ، وقد وعده ان يتنازل له على كل الشواطىء ، ويأخـذ هو ــ فقط ــ داخل البلاد ؛ ولننظر ماذا يجري في العدوة الاخرى ــ وقد تطايرت هذه الاخبار الى المولى عبد الملك المعتصم ، الملك الشهم ــ وهو في عاصمة ملكه ، ينظم شؤون مملكته ، ويعد العدة لمواجهـة العدو الغاشم .

الجيش المغربي في حالة استنفار :

وقد جعل الجيش المغربي والقوات الشعبية في حالة استنفار ، وأمر اخاه ابا العباس (المنصـور) ــ في كتيبة من الجيش ــ بالتوجه الى القصر الكبير، ليراقب تحركات العدو عن كثب ، ويجعـل قبائـل الشمال على اهبة الاستعداد .

تحركات الجيش الصليبي في اتجاه المغرب :

ابحرت السفن الصليبية من ميناء اشبونة في اتجاه المغرب يوم 24 يونيه (1578) ، وقد جعلت سفرها على مراحل ،فاقامت بـ (لاكوس) بضعة ايام ــ وهو مرفأ على مائتي كلم ــ من العاصمـة ، وفي قادس سبوعا كاملا ، وارست بطنجة في تاسع يوليه ، وهناك نزل سيبستيان مع حاشيتـه ، فوجـد في استقباله صنيعة الصليبية المتوكل ، وامر السفـن

الحربية بمتابعة سيرها الى أصيلا ، وكان المسلوخ قد تنازل عنها للبرتغاليين قبل ابعاده عن الملك ، ولم يقم سيبستيان بطنجة الا يوما واحدا ، ثـم لحـق بجيشه يوم عاشر يوليه .

الحصول على أهم المعلومات عن القوات الصليبية :

كان هناك عين للمسلمين صحـب الجيـش الصليبي من « لاكوس » وجعل يراقب تحركاتـه ، ويقدم التقارير السرية الى الملك المغربي عبد الملك المعتصم – بكل ما يدور فى القيادة البرتغالية .

مبلغ عدد الجيش الصليبي :

اما عن مبلغ عدد الجيش الصليبـي ، فتقدره الرواية المغربية بـ (125 000) مقاتل ، مع 300 او 600 من اصحاب المسلوخ ، و 200 من المدافع .

واقل ما قيل فى عدده انـه 80 000 رجل ، وتذهب الرواية المسيحية الى انه اقل من هذا بكثير، بينما تبالغ فى عدد الجيش المغربي ، والعتاد الذي كان يحملـه .

مقـر القيـادة المغربيـة :

اختار عبد الملك القصر الكبير – مقر قيادته ، وهناك اجتمع مع رؤساء جيشه واعيان دولته ، ووضع الترتيبات الاخيرة للخطة التي سيهاجم بها عدوه .

الحـرب خدعـة :

عندما نزلت الجيوش البرتغالية بأصيلا ، بدات فى مناوشات مع القبائل المجاورة ، وعبات قواهـا لاحتلال العرائش ثم القصر الكبير ؛ فبلغ الخبر عبد الملك – وهو بمراكش ، ففكر فى حيلة يجعل معهـا سيبستيان يتراجع عن قراره ، فكتب اليه رسالـة يقول له فيها :

« انه ليس من الشجاعة ، ولا من روح الفروسية ان تنقض على سكان القرى والمدن التي فى طريقك– وهم عزل من كل سلاح ، ولا تنتظر ان يقابلك امثالك من المحاربين ؛ فان كنت نصرانيا حقـا ، فتريـث ريثما اقصدك . . . » .

ولما وصله الكتاب ، اشار عليه بعض رجاله ان يرمي به عرض الحائط ، وانه ينطوي على مكيـدة ؛ وان الراي أن يحتل العرائش والقصر الكبير ، وكل القرى التي فى طريقه ؛ فأبى بشمم ، ورأى ان ذلك يعرض شرفه لوصمة شنعاء !

ولما قدم عبد الملك الى القصر الكبير ، فكر فى حيلة اخرى يستدرج بها خصمه الى بسائط القصر– بالقرب من مكان قيادته ، وحيث تكثـر الغـدران والوديان ؛ فكتب اليه يقول : « اني قطعت للمجيء اليك ست عشرة مرحلة ، فهلا قطعت أنت مرحلـة واحدة لملاقاتي . . » .

فنصحه مستشاروه – والمسلوخ معهـم – ان يبقى بأصيلا حتى تصل الجيوش المغربية ، ويبقى على اتصال بالقوة البحرية ، تمده بالمؤن والعتاد وبالرجال– ان اقتضى الحال ذلك ؛ ولكن تشوقه للحرب ، ونخوته الصبيانية ، جعلته يرفض نصيحة مستشاريه ، ويامر بالاقلاع – فى الحال – من اصيلا ؛ وبدات جيوشـه تتحرك يوم الثلاثاء – 29 يوليه – قاصدة القصـر الكبير ، وكانت تسير على حذر ، تخشى الشر فى كل خطوة تخطوها ؛ وما ان أتى يوم السبت ثاني غشت ، حتى كانت تنحدر فى سفح هضاب من الضفة اليمنى لوادي المخازن ؛ ومن هناك شاهدت طلائـع جيش المسلمين متجهة نحوهم فى بسائط القصر الكبير – ما بين وادي لكوس ، ووادي وارور ؛ وفى اليـوم الموالي (الاحد) ، امر سيبستيان الجيوش بأن تقطع وادي المخازن ، فمرت بانتظام على القنطرة الى الضفة اليسرى – حيث خيمت هناك .

ووصلت كذلك الجيوش المغربية – وكأنهما على موعد ، وقد حطت رحالها بالقرب منهـا – حيـث انتشرت خيامها على نهر وارور .

وفى جنح الليل من مساء ذلك اليوم – امر عبد الملك اخاه ابا العباس (المنصور) – فى كتيبة مـن الجيش – بنسف قنطرة وادي المخازن – تتميمـا للخطة التي وضعها .

اليـوم التاريخـي :

وفى صبيحة يوم الاثنين ، متم جمادى الثانيـة (986 – 4 غشت 1578) – كـان ذلـك اليـوم التاريخي الذي ستذكره الاجيال بكل اعزاز واكبار ، وسيبقى خالدا الى الابد .

عبد الملك يخطب فى جيشه :

وقد وقف عبد الملك يخطب فى جيشه ، ويذكرهم بوعد الله الصادق للمجاهدين الصابرين ، ويحثهم على الثبات وروح النظام ، ويشرح لهم ان الصليبية – ان انتصرت فى هذا اليوم ، فلن تقوم للاسلام بعده قائمة ؛ وكانى به – وهو يردد عليهم قوله – عليه السلام – فى غزوة بدر : « اللهم ان تهلك هذه العصابة – يعني المسلمين ، لا تعبد فى هذه الارض ... » .

ثم خيم صمت رهيب ، تلته طلقات نارية ايذانا بالحرب ، وكان رد الفريق الآخر بالمثل .

والتقى الجمعان :

وفى وقت الهاجرة – والشمس تلفح الوجوه ، وبريق السيوف يعشي العيون ؛ – التقى الجمعان ، وكان المعسكر الاسلامي على شكل هلال تتوسطه محفة الملك ، بينما المعسكر الصليبي كان شكل مربع ، فى مقدمته – الافاقون البرتغاليون ، وفى الميمنة الالمان ، وفى الميسرة الاسبان والطليان ، وفى الجناحين الخيالة مع شرذمة من انصار المسلوخ ، وكان الفرسان فى الجناح الايسر – تحت القيادة المباشرة لسيبستيان ، وكان الوسط خاصا بالرهبان والبقايا ...

بداية الهجوم :

واعطيت الاشارة لمقدمة الجيش البرتغالي – وهي من شذاذ الآفاق (اللفيف الاجنبي) فبدات بالهجوم ، وانقضت على الجناح الايسر للمسلمين انقضاض الصاعقة ، فظهر منهم ذهول ووهن ؛ وعند ذلك خرج عبد الملك من محفته ، وانطلق كالسهم النافذ – شاهرا سيفه ، ففتح الطريق امام جيشه ، والتحم الفريقان ، وتعانقت السيوف ، وكان الناس يتساقطون – من الجانبين – كاوراق الخريف ... !

لحظات حرجة :

وكانت ساعة حرجة ، ففي هذا الظرف الدقيق ، شعر عبد الملك بتدهور فى صحته ، وقد أثر الاجهاد على نفسه ، وكان به مرض صحبه فى طريقه من مراكش ؛ فعاد الى محفته ليلفظ أنفاسه الاخيرة ، واضعا سبابته على فمه ، وكأنه يشير الى كتم سره ، واخفاء موته ؛ واطبق أجفانه – وهو موقن بالنصر الذي وعد الله به المومنين الصادقين .

واخفى رضوان الحاجب موت الملك ، وظل يتردد على المحفة ، يبلغ الجند أوامر الخليفة ، والحرب على أشدها يتطاير شرارها ، ويلتهب اوارها ، ولكن أبا العباس (المنصور) – وقد علم بوفاة أخيه – اراد أن يجعل لهذا الاتون منفذا ، فمال بمقدمة جيشه على مؤخرة العدو ، بينما اتجهت الميسرة ضد الرماة ، فتهالك المسيحيون صرعى من جراء هذه الصدمة العارمة ، وولوا الادبار ، فدارت عليهم الدائرة ، وعملت السيوف فى رقابهم .

ساعة النصر :

وكانت ساعة النصر ، « وما النصر الا من عند الله » ؛ ولاذوا بالفرار – قاصدين القنطرة ، وهيهات ، فقد اضحت اثرا بعد عين ، فارتموا فى النهر يسبحون ، ولكنه كان فوق ما يطيقون ؛ فابتلعتهم الفدران ، ولم ينج منهم الا عدد ضئيل ، وقد اتى على اكثرهم القتل والاسر .

فرعون الصليبية يسقط صريعا :

وسقط سيبستيان – (فرعون الصليبية) – صريعا يتدرج فى دمه ، وسقط معه ألوف من انصاره واتباعه – بعد ان ابدى شجاعة منقطعة النظير ، ولكنها لم تفده شيئا امام قدر الله ، جزاء ما كسبت يداه .

المتوكل يقع غريقا ويسلخ شلوه :

وحاول المتوكل – رمز الخيانة – الفرار نحو الشمال ، فوقع غريقا فى النهر ، ووجدت جثته طافية على الماء ، فسلخ ، وملىء تبنا ، وطيف به حتى تمزق وذهب مع الرياح .

زمـــــن الموقعـــــة :

لم يتجاوز زمن الموقعة (52) درجة ـ اي اربع ساعات وثلث ساعة ، حسبما يحدده بعض الميقاتيين ممن كانوا شاهدي عيان ؛ ولعل الظروف الدقيقة التي وقعت فيها المعركة ، والخطة المحكمة التي وضعها لها عبد الملك ـ من هجوم مضاد ، وقطع الطريق على العدو من كل جانب ، مما جعل المعركة تنتهي بهذه السرعة الفائقة !

مؤرخ الدولة السعدية يصف الموقعة :

وهذا مؤرخ الدولة السعديـــة ابـــو فـــارس الفشتالي يصف بعض مشاهد الموقعة ، ويذكر دور ابي العباس (المنصور) الطلائعي الذي قاد المعركة الى النصر ، فيقول : « ... وماذا عسى أن أعد أو اذكر بعد يوم المخازن الذي حضرته ملوك العدوتين ، وجموع الملتين ، وانصار الكلمتين ؛ ـ على حين مـــا انقضى اخوه الخليفة وفاضت نفسه ؛ وأترع مـــن الحمام كأسه ، وواراه من المحفة الحجبة رمسه ، ولاذ بالخذلان من مثل به للشقاء تعسه ونحســـه ؛ فاظلم الجو ، وتلون الدهر ، واشتد الخطب وتفاقم الامر ؛ واستأسد الكفر ، وأنشب الناب والظفـــر ؛ فاثبت ـ أيده الله ـ في مستنقع الموت قدمـــه ، واحتسب في الذب عن الملة نفسه ، وتدفقت عليه كتائب المشركين وجموع الكفر ، وطواغيت الشرك واحزاب التثليث ؛ فصابر زلزالها كالجبال الرواسي ، وثبت تحت الالوية كالليث العادي ؛ وانصرف وجه القتال لموكبه ، واحرق البندق رجالـــه الابطـــال ، واسود الحرب والنزال ، فتزحزحوا عن مراكزهم ، وتدرق بعضهم ببعض ، حتى تدرقوا ـ جميعا بمولانا امير المومنين ، وامتدوا من ورائه حبلا ، فخلا وجه القتال للمشركين من رجاله وأبطاله ، الا من منحه الله الصبر ـ وقليل ما هم ـ حتى صار هدفـــا لرمـــي المشركين ، فأصابته جرحات بالبندق ، فمسحـــت احداها ظاهر قدمه ، وخاضت احشاء فرسه فمات منها ؛ وثبت لضنك المقام ، وهول اليوم ؛ حتى جبر الله الصدع ، واقال العثار ، وحكم لدينه بالنصـــر والظهور ؛ ونصر على يده الاسلام ، وثل عرش الكفر ، واستأصل شافة الاصنام ؛ فذهب ـ وحده ـ بفخر اليوم ـ جلدا وصبرا ، وثباتا واقداما ـ على كثـــرة من ضمه المعترك من ابطال الملتين ، على تجهم اليوم ، ضنك المقام ، وخشونة المعترك ، واشتداد زلزال الحـــرب ...

عدد الاسرى والقتلى في الجـــيش الصليبـــي :

وناهيك بيوم اجلى عن ثلاثة ملوك موتى ، ما بين مجندل وغريق وفائض النفس حتف الانف ، وعـــن ثمانين الفا من المشركين ـ ما بين قتل وأسر .. » .

والحق ما شهدت به الاعـــداء :

ويصف بعض الكتاب البرتغاليين مخلفات هذه المعركة فيقول : « ... وكان مخبوءا لنا في مستقبل الاعصار ، العصر الذي لو وصفته ـ كما وصفه غيري من المؤرخين ـ لقلت : هو العصر النحس ، البالغ في النحوسة ، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح ، وانقضت فيه ايام العناية من البرتغال ، وانطفأ مصباحهم بين الاجنـــاس ، وزال رونقهـــم ، وذهبت النخوة والقوة منهم ؛ وخلفها الفشل ، وانقطع الرجاء ، واضمحل زمان الغنى والربح ؛ وذلك هـــو الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبيـــر مـــن المغـــرب ... » .

وهو ـ كما نرى ينصف الحقيقة التاريخيـــة ، (والحق ما شهدت به الاعداء) .

كيف تلقت اشبونة نبأ هزيمة جيشها :

لقد فر من ساحة المعركة يوم المخازن عـــدد ضئيل ، من الجيش البرتغالي الهائل ؛ وكان وصوله الى أصيلا بأعجوبة ، فاقلعـــت الســـفن مسرعـــة ، وطيرت بالخبر الى اشبونة ، فنزل عليها نبأ الهزيمـــة كالصاعقة ، واصابها ذهول شديـــد ؛ وما بيـــت الا ودخله الحزن ، وعمه الثكل ؛ من جراء ما فقدته من ابطالها ، وخيرة شبابها ؛ فجللت المدينة بالسواد ، ونكست الاعلام في سائر البلاد ؛ وكانت ضربة قاضية لا للبرتغال وحسب ، ولكن للامم المسيحية جميعها ، وتبخرت معها احلام الصليبية الى الابد !

المعركة والشعراء :

سجل اصداء هذه المعركة كثير من الشعراء – فى قصائدهم ، وتغنوا بها فى نواديهم ومحافلهم ؛ ومن ذلك قول ابي عبد الله الهوزلي – من قصيدة يمدح بها ابا العباس المنصور ، ويشيد بدوره البطولي فى المعركة :

وحسبك من وادي المخازن وقعة
بها الشرك حتى آخر الدهر تاعس

بها عرفت ابناء عيص بأنهم
عبيد العصى ما ناس فى الدهر نائس

فدانوا له حتى توقع بطشه
برمتهم صلبانها والكنائس

وضاقت على «سبستيان» كل عويصة
وذلت لنا منه الانوف الفراطس

فجهز ما تحوي ذخائر ملكه
يذود بها عن نفسه ويداعس

ولو ايقنوا منها النجا بناتهم
لزفت لنا ابكارهم والعرامس

أبو العباس المنصور يتولى الملك ويحمل لقب النصر:

أما ابو العباس أحمد بن الشيخ – أخو عبد الملك ، الذي اخذ زمام المبادرة فى المعركة ، وابلى البلاء الحسن فقد توجه الشعب اكليل النصر ، وولاه الملك ، ولقب من ذلك اليوم بـ (المنصور) .

وفى اهلاك الملوك الثلاثة واقامة واحد ، اشارة – كما يقول بعض المؤرخين – الى اهلاك دين التثليث (الصليب) – بهذه الارض ، واقامة دين التوحيد (الاسلام) ، وستبقى مقبرة للصليب والصليبية – الى الابد ، ودار اسلام وتوحيد – الى أن يرث الله الارض ومن عليها ، – وهو خير الوارثين .

اسباب النصر :

كان للنصر الذي أحرزه المغاربة فى هذه المعركة – بعد التأييد الالهي – عدة أسباب ، منها :

1 – مأساة الاندلس التي جرحها لم يندمل فى قلوب المسلمين ، والتي تتمثل فيها الصليبية الحاقدة – فى ابشع صورها :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان فى القلب اسلام وايمان

2 – الخطة المحكمة التي وضعها عبد الملك لاستراتيجية المعركة ، فاستدرج خصمه الى القرب من مكان قيادته ، وسد عليه المنفذ فى البر والبحر

3 – المشاركة الفعالة للطبقات الشعبية التي استجابت للنفير الذي اعلنه عبد الملك فى الجنوب ، واخوه ابو العباس (المنصور) فى الشمال .

4 – نسف القنطرة التي كانت المنفذ الوحيد – للعدو – ان اراد التراجع ليعيد الكرة – ما أمكنته الفرصة

5 – الاختلاف بين القاعدة والقمة فى الجيش الصليبي ، فرؤساء الجيش لم يكونوا مؤمنين بالخطة التي وضعها سيبستيان ، فكان ذلك من دواعي الفشل .

6 – الدعم الذي اعطاه عبد الملك لجيشه عند الصدمة الاولى ، واخذ ابي العباس (المنصور) المبادرة بعد موت اخيه .

7 – كانت خيل المسلمين اكثر من خيل النصارى ، وربما كانت حرب السهول ، تعتمد على الخيل – اكثر من الرجل .

8 – تفوق مدفعية الجيش المغربي على مدفعية الجيش الصليبي ، وقد اكتسبت الجنود العثمانيون والاندلسيون – مهارة فائقة فى الرمي بالانفاض .

9 – ضعف معنويات الجيش البرتغالي الذي دفعته الانانية والغرور ليقاتل شعبا آمنا فى أرضه وبلاده ، بينما كانت معنويات الجيش المغربي والطبقات الشعبية جد مرتفعة ، حتى ان بعض القبائل المجاورة قاتلت العدو بالمناجل ، – وقد قذف الله الرعب فى قلبه ، ولم يكن يبدي اية مقاومة – بعد ان اختلت صفوفه .

آثار المعركة :

اسفرت معركة وادي المخازن الحاسمة ، عن نتائج بعيدة الاثر – اقتصاديا ، واجتماعيا ، وسياسيا:

ــ فمن حيث الاقتصاد ، فقد استغنت دولة ابي العباس المنصور ، بما اداه لها البرتغاليون من اموال لافتداء الاسرى الذين كانوا يعدون بالالوف ، فانتعشت الحركة الاقتصادية ، واتسعت التجارة ، وعم الرخاء ،، وترقت الفنون والصناعات ، وشيدت القصور والمنشآت العمرانية .

ــ اما من الناحية الاجتماعية ، فقد عاد للشعب المغربي الثقة بنفسه ، والاطمئنان على مصيره ؛ فدخل فى طور الاستقرار ، وازدهرت العلوم والفنون ، ونبغ شعراء ، وظهر كتاب بارزون ؛ ــ الى غير ذلك من مظاهر الحركة الفكرية ، والادبية .

ــ واما من الناحية السياسية ، فقد اعطت معركة وادي المخازن المصيرية للدولة المغربية سياسيا ــ على الصعيد العالمي ، فهاداها ملوك الدنيا، ووجهوا لها السفارات والبعثات ؛ واخذ المغرب يلعب دورا هاما فى السياسة العالمية .

وبالنسبة للعالم الاسلامي ، فقد أوقفت هذه المعركة كل خطر صليبي على البلاد الاسلامية فى المشرق والمغرب ، وجعلت دولة الاتراك تعدل عن سياستها التوسعية بالمغرب ، فبقيت بلادنا ــ وحدها ــ بعيدة عن النفوذ التركي ، وحافظت على مقوماتها التاريخية والجغرافية .

اما بالنسبة لدولة البرتغال ، فقد اشرت سابقا الى ان هذه المعركة كانت الضربة القاضية لها ، فلم تقم لها قائمة .

وكذلك بالنسبة لاوربا ، فان مطامحها الصليبية تبخرت واقبرت الى الابد ؛ ولكنها خططت تخطيطا جديدا للقضاء على الاسلام ، لا بقوة الحديد والنار ، ولكن باسم الثقافة ، والمدنية والرقي ...

وهكذا نرى ان وقعة المخازن ــ وقد مر عليها 400 سنة ــ كيف غيرت موازين القوى فى الغرب الاسلامي ، وقضت على الصليبية الى الابد ، ورفعت منار الاسلام عاليا ، لا فى المغرب وحسب ، ولكن فى افريقية كلها .

وان المغرب لم يكن فى يوم من الايام يقبل الضيم ، ويستكين للقوة الغاشمة ــ مهما تكن .

وانه ــ ان اتحدت قواه الشعبية من اقصاه الى اقصاه ــ لم يكن ليغلب ، وسيبقى القلعة المنيعة للاسلام ، تتحطم عليها مطامع الطامعين ، ومكائد الكائدين ــ وشعاره الدائم : اما الصدر او القبر .

ونردد مع ابي العباس المنصور قول ابي فراس الحمداني :

ونحن اناس لا توسط عندنا
لنا الصدر ــ دون العالمين ــ او القبر!

مراجع البحث

ــ لقط الفرائد : لابن القاضي .
ــ مناهل الصفا : للفشتالي .
ــ مختصره : لنفس المؤلف .
ــ مرآة المحاسن للعربي الفاسي .
ــ جلاء الكرب ، عن طرابلس الغرب : للحشائشي .
ــ اتحاف اهل الزمان : لابن ابي الضياف .
ــ الاستقصا : للناصري .
ــ تاريخ المغرب : للوزاني .
ــ تاريخ المغرب : لعبد العزيز بنعبد الله .
ــ تاريخ الجزائر العام : للجيلالي .
ــ مجلة تطوان : العدد السابع .
ــ مجلة البحث العلمي : العدد التاسع .

ذكرى النصر والظفر
معركة وادي المخازن

للأستاذ الحاج أحمد معنينو

لقد علمت بصدور مؤلف قيم للدكتور « كريم » يطالب فيه بالحاح تبني حكومة صاحب الجلالة : الاحتفال الرسمي بذكرى مرور أربع مائة سنة على معركة وادي المخازن الظافرة . المعركة التي وقف فيها الشعب المغربي المسلم بجانب الجيش المغربي الشجاع ، ضد عدوان حكومة الصليب والمتطوعين الصليبيين . فكان النصر حليف أنصار الهلال . ونعمت الفكرة : ونعم الاقتراح ، كما علمت أن حكومة صاحب الجلالة عازمة على الاستجابة لنداء الضمير ، وتلبية صوت الامة ، وانها ستقيم الاحتفالات الشيقة، التي تليق بعظمة هذه الذكرى المجيدة .

كما قرات في بعض الصحف نفس هذا الاقتراح. ورجعت بي الذاكرة الى عدة مواقف شاهدتها . وعشتها . كلها تتعلق بهذه الملحمة الخالدة . فحبب الي الاسهام بكلمة في الموضوع كمواطن يعتز بنصر الله . ومؤمن يصدق بوعده . « ولينصرن الله من ينصره » .

لقد مرت اربعمائة سنة على هذا الغزو البرتغالي الصليبي المعزز بالعديد من جيوش الصليب مزودة بالمال والاسلحة والانفس البشرية ، طمعا في الاستيلاء على تربة المغرب الطاهرة وتدنيسها بعبدة الصليب الحاقدين الذين لم يرعوا ، ولم يزدجروا ، ولم يتراجعوا عن حيفهم وطغيانهم ، بعد ما احتلوا جل شواطىء مغربنا العزيز بالحيل والمكر والخديعة .

وحضروا الساعة للاجهاز على الباقي ، ولكن الله سلم « ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .

عند ما شرعت في تحرير هذا المقال قصد الاسهام في هذه الذكرى العظيمة . والمفخرة التاريخية ، رجعت ذاكرتي الى ما بين سنوات 1938 - 1940 حيث كنت مقيما بتطوان عاصمة المنطقة الخليفية اذ ذاك ، فرارا من كابوس المستعمر الفرنسي الغاشم .

تذكرت ظهور حركة غريبة ومشبوهة مدهشة صدرت من بعض البرتغاليين ، واظنهم من رجال الكنيسة يطالبون الحكام الاسبان بالسماح لهم في بناء « أقواس النصر » بالارض المجاورة للوادي حيث توجد هناك مقبرة ظنوا انها قبور اخوانهم المهاجمين ! وقد استهوت الفكرة بعض الاسبانيين انصار الصليب ، فكتبت صحفهم تؤيد هذه الفكرة المعوجة ؟ وقامت ضجة وزوبعة . وكتبت الصحف الوطنية يومئذ ، ترد على هذه الترهات . قائلة : ان فكرة بناء « اقواس النصر » لجانب موقع المعركة ، يجب أن تصدر ممن فاز بالنصر والظفر . وهم المغاربة ؟ لا ممن رسبوا في الخزي والعار ، والغلبة والقهر . بل الفناء والدمار . والمؤرخون سواء منهم المغاربة او الاجانب : متفقون على انتصار القوة المغربية . والدولة المغربية . واضمحلال القوة البرتغالية ومن يؤازرها ؟

أخذت القضية وقتا ليس بالقصير ، فى الاخذ والرد الى ان صدر اذن رسمي للسادة عدول مدينة القصر الكبير فتوجه وفد منهم صحبة رجال السلطة الاسبانية وبعض هؤلاء المجانين لنبش بعض القبور ! وفعلا كشف البحث أن سكان هذه القبور من المجاهدين المسلمين الذين استشهدوا فى المعركة ، ووجدت الجثث مستقبلة القبلة فى وضعها وبذلك سقطت ادعاءات الباطل ، وبهت الذي كفر . وانتهت خرافة بناء « اقواس النصر » . ويا لها من خساسة . ورغم هذه المسخرة والمهزلة ، فان القوم لم يستسلموا وبيدهم عون الاسبان !

قامت الجماعة المتهورة الحمقاء الوهماء بعمل جنوني فى شكل آخر . ذلك ان الجماعة تهيات وانتظمت بمدينة اصيلا حيث حمل كل فرد منها سلاحه وقوته فى يوم معين : ـ واظنه كان تاريخ المعركة ـ وخرج القوم فى صفة الجيش الباغي ، لمكان المعركة . فى حالة مدهشة . وقطعت الطريق بمشقة وتعب وعرق ونصب وبكاء ونحيب ! ولا اعرف بالضبط ما جرى ! ؟ لكن هذه الوقفة تعرفت عليها وان كنت سهوت عن ضبط تاريخها . ولا زلت أتذكر بعض ما كتبته الصحافة الوطنية ساعتئذ حيث سفهت احلام هؤلاء المجانين بالمنطق والحجة . واستطاعت ان تقاوم تلك الدعوى ، التي كان يروج لها من عميت ضمائرهم .

اذا قيام الشعب والدولة اليوم بالاحتفالات والذكريات يعد من أوجب الواجبات ، ومن أعظم ما يرفع قيما امتنا ودولتنا حالا ومآلا .

انني وايم الله لاجد نفسي مرغما على كتابة هذه الكلمة اسهاما فى الذكرى الخالدة : فقد استحضرت وقفة اخرى وقفها الجنرال غورو الافرنسي ، عندما دخل دمشق عاصمة بني أمية ، ووقف بدون حياء ولا خجل ! بين يدي عظيم الامة المسلمة ، قاهر الصليبيين بالشرق المجاهد البطل المؤمن المؤتمن « صلاح الدين الايوبي » ، وقال قولته الشنعاء : ها هو الصليب قد رجع ! وبعبارة ها هو الصليب يغلف الهلال ! حسب تعبير الصليبية ! انهم دائما يتذكرون انهزاماتهم وقهرهم . وما عمهم من مخلة وغلبة وسخرية : انهم يحاولون أخذ الثار ولو بعد حين ! ونحن انصار الحق واعوانه نغفل ونتغافل عن امجادنا وانتصاراتنا بالشرق وبالغرب !

ومن الغرابة بمكان مرور « اربعة قرون كاملة » على هذه الوقعة الخالدة ، وكانها قضية امس ! ؟

ان عصرنا الحاضر تجاوز هذه الفوارق ، وأصبح التقييم الحالي لا يعدو الحفاظ على كيان الامة او الدولة دون تمييز بين الصليب والهلال ! بدون أية تفرقة بين الامم ! وكل دولة لها معتقداتها ومقدساتها . والاعتقاد بالتوحيد من خصائص المومنين . ومغربنا بحمد الله معتصم بحبل الله المتين ، مرفوع الراس ، موفور الكرامة ، مرتاح الضمير لانه لم يكن المهاجم لديار الغير ! مهما كانت العقائد والكيان ، بل تعد هذه الملحمة منه دفاعا شريفا عن وطنه ومقدساته . من مهاجمين اغرار قتلهم الطمع والهلع ! فردوا على الاعقاب خاسرين ، نعم ردهم مقهورين مغلوبين ، وكيدهم رد فى نحورهم ، شردهم وشتت جمعهم ، وحصد شوكتهم، حتى أن بعض مؤرخي المسيحية قال : لم تعرف المسيحية هزيمة اكبر واشنع وأذل من معركة « وادي المخازن » .

وقال آخر : مات عبد الملك وهو يدافع عن وطنه وعزة دينه وكرامة امته : ومات ابن عمه الخائن « محمد المتوكل » غارقا مغلوبا كما يموت الخونة . كما كتب مؤرخ ثالث قائلا :

« تصارع حضارتين مسيحية واسلامية ؛ الاولى تعمل على اكتساح اراضي الغير ، واكتساب ارقاء عديدين ؟ . والثانية : تكتفي بالدفاع عن استقلال الاوطان ، وشرف العقيدة . وسمو تعاليم الاسلام ».

الحقيقة ان فكرة الاحتفال « الشعبي والحكومي» بهذه الذكرى . من آكاد الواجبات ، لانها انتصار للشعب وللدولة وتعاون بين العرش والشعب ؟

انه لمما يثلج الصدور ويدخل البشر والانشراح. ما اقدمت عليه حكومة صاحب الجلالة خلال هذه السنوات، عند ما قررت تشييد سد عظيم بأرضية المعركة لينتفع ابناء الشعب بمردود المياه ؟ هاته القبائل عطشى والماء بجانبها ؟ ان عملا كهذا يعد فى مقدمة الاحتفال والاهتمام والتشريف والتمجيد ، ان هذا الحدث الجلل حدث بناء السد فى هذا العصر المزدهر بمبادىء التنمية قد صادف عين الصواب : ويشكر عليه من فكر فيه أو اسهم من قريب أو بعيد.

كما لا يفوتني في هذه الكلمة المتواضعــــة ان أتعرض لكتابة معتوه اخرق حيث قال : ان المغرب حرم من الانفتاح على الحضارة التي ورد بهـا جيش الفاتحين ! اي الفاتح البرتغالي ؟ منذ قرون ! ونجده المسكين يجهل حضارة المغرب ، وكيف ارتقـت عقب هذا النصر المبين ، وكأني به لم يتعـرف على منشآت « احمد المنصور الذهبي » عقب هذا النصر، فلو شاهد مظاهر « الدولة السعدية » عقب انهزام هذا الفاتح المغفل ، وتعرف على حضارة « الدولة المغربية » في البناء والتشييد ، والنظام والعمران ، وانتشار الامن والطمانينة ، وسعادة الحياة العامة ، في الشعب بسائر طبقاته ، وصعود البنيان هنا وهناك. وبكل اطراف الامبراطورية المغربية ! لو شاهد هذا المغفل قصر البديع بمراكش وحده ، لكان ذلك لـه موعظة وذكرى . ان تنظيـم الجيش على احـدث الاساليب في ذلك العهد ، في ابهج وابدع الصفات، العمرانية والحضارية . وابهة الملـك والدولـة . والرفاهية التي عمت البلاد ، والحياة الرغد التـي عاشها المغرب في تلك الحقبة ، كل هذا يرد نظرية هذا المعتوه ؟ ويصفه بالحقائق والبرهان . وعلينـا ان نستانس بنقول بعض المؤرخين المغاربة ، لهـذه الوقعة للكشف عن حقائق ، وتبيان الواقع المر الذي حدا « بمحمد المتوكل » ان يرتكب هذه الحماقـة ! قال المؤلف الناصري في الاستقصا الجزء 5 صفحة 70 . ما نصه في الرد على كتاب المتوكل للشعب ، يهدد ويتوعد لخلع بيعته ومبايعة عمه عبد المالك !

وبعد، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والاجناد من اهل المغرب . وفقهم الله ، عن كتابـه الذي استدعاهم فيه لحكـم الكتـاب والسنـة ! واستدل بحججه الواهية المنكبة عن الصواب ؟
قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب : لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب انك المحجوج والمصاب . واما قولك : في النصارى : بانك رجعت الى أهـل العدوة ؟ واستعظمت ان تسميهم بالنصارى ! ففيـه المقت الذي لا يخفى . وقولك : رجعت اليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ؟ ففيه محظوران يحظر عندهما غضب الله جل جلاله : احدهما كونك اعتقدت ان المسلمين كلهم على ضلال . وان الحق لم يبقى من يقوم به الا النصارى ؟ والعياذ بالله ، والثاني انك استعنت بالكفار على المسلمين ، وفي الحديـث ان رجلا من المشركين ممن عرف بالنجدة والشجاعة . جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم « بحرة الوبرة » على نحو اربعة اميال من المدينة . وقال للنبي (ص) جئت لانصرك . فقال له النبي (ص) ان كنت تؤمن بالله ورسوله ، فقال « لا افعل » فقال له النبي (ص) اني لا استعين بمشرك ؟

ثم يقولون له : وقد افتخرت في كتابك بمجموع الروم ، وقيامهم معك ؟ ! وعولت على بلوغ المـرام بحشودهم . واني لك هذا مع قول الله « اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكـم الاسلام دينا . » فاعلم انه لما بلغ خبرك ، وانتصارك بالكفار ! عقد الويته المنصورة بالله ، وسط جامـع المنصور ، بعد ان ختم اهل الله من حملة القـرءآن ، مائة ختمة . وصحيح البخاري ، وضجوا عند ذلك بالتكبير والتهليل والصلاة والسـلام على البشيـر النذير والدعاء له بالنصر والتمكين ، والفتح الشامخ المبين ، فلو سمعت ذلك لعلمت وتحققت ان ابواب السماء انفتحت لذلك ، وقضى ما هنالك . وكـان خروج هذا المتملق بجيش البرتغال ، وفضوله عـن طنجة في ربيع الثاني سنة ست وثمانين وتسعمائة 986 هـ .

قال في « النزهة » ان النصارى لما برزوا من طنجة ، شنوا الغارة على السواحل ، فأعلم اهلهـا السلطان عبد المالك وكان بمراكش ، وشكوا اليـه كلب العدو عليهم . فكتب جلالته الى الطاغيـة : ان سطوتك قد ظهرت في خروجك من راضك وجوازك العدوة ، فان ثبتت الى ان نقدم عليك فانت نصراني حقيقي شجاع ؟ والا فانت كلب ابن كلب ! ولما بلـغ الكتاب غضب : وكان جلالة عبد المالـك اخـذ في الاستعداد حيث كتب رسالة الى خليفته « بابا احمد» احمد المنصور يكلفه تبليغ الدعوة للامة ، كي تسهم في علف المحلة والمؤونة لها ويرجع كل ما يحصـل عليه لمدينة سلا . وبوجوب الاسراع فالمحصل وعدم التأخير والسلام .

ثم كتب رسالة للطاغية وهذه سياسة وخدعة ! يقول فيها : رحلت اليك ست عشرة مرحلة . أمـا ترحل الي واحدة ! ؟ فرحل الطاغية من موضع يقال له « تهدارت » ونزل على وادي المخازن بمضربة من « قصر كتامة » وكان ذلك من مكيدة حرصه . تقـدم الطاغية بجيوشه وعبر على جسر الوادي . ونزل من هذه العدوة . فأمر السلطان بالقنطرة ان تهـدم ، ووجه اليها كتيبة من الخيل فهرسوهـا . وكـان الوادي لا مشرع له ، سوى القنطرة !

ثم زحف السلطان الى العدو بجيوش المسلمين ، وخيل الله المسومة . وانضاف اليها من رغب في الاجر وطمع في الشهادة من ابناء الشعب العظيم .

ولما التقى الجمعان ، وزحف الناس بعضهم الى بعض ، وحمى الوطيس ، واسود الجو بنقع الجياد ، ودخان المدافع ، توفي السلطان ابو مروان بمكيدة اكلة سم فمات رحمه الله واصبعه على فمه مشيرا بالسكوت ، وكتمان الخبر بالموت ، حتى لا يختل عمل المجاهدين ، واستطاع الحاجب مولاي رضوان العلج ان يسير الامور في سرية وكتمان خبر الموت ، حتى النصر . يقدم الدواب والمحفة نحو العدو ويقول : للجند السلطان يأمركم بالتقدم اليهم . ولم يعلم بالموت الا اخ السلطان يعني احمد المنصور ولم يزل الحال على ذلك ، والناس في المناضلة والمقاتلة، واحتساء كؤوس الحمام ، الى ان هبت على المسلمين، ريح النصر وساعدهم القدر واثمرت اغصان رماحهم زهر الظفر فولى المشركون الادبار . ودارت عليهم دائرة البوار ، وحكمت السيوف في رقاب الكفار ، نفروا ولات ساعة فرار قتل الطاغية سبستيان عظيم البرتغال غريقا في الوادي وقصد النصارى القنطرة ، فلم يجدوا لها اثرا فخشعت نفوسهم وتهافتوا في النهر تهافت الفراش على النار ؟ ولم ينجو منهم الا عدد قليل .

قال في « المنتقى المقصور » كانت هذه الغزوة من الغزوات العظيمة ، والوقائع الشهيرة ، حضرها جم غفير من اهل الله ، حتى انها اشبه شيء بغزوة « بدر » . بحث في القتلى فوجد الملك المستصرخ بالنصارى غريقا بالوادي لانه عندما شعر بالهزيمة ، فر لينجو بنفسه ، ولكنه تورط في غدير ، وغرق فمات واستخرجه الغواصون ، وسلخ جلده وحشي تبنا واحرق وطيف به في مراكش .

سلا : الحاج احمد معنينو



الاحتلال البرتغالي ومعركة وادي المخازن

للاستاذ عبد القادر العافية

هناك معارك يخلدها التاريخ ويجعلها من ابرز عناوين ابوابه وفصوله عبر الاحقاب والازمان ...

ومثل هذه المعارك التي تظل هكذا غرة في جبين الدهر وتظل فصلا من أهم فصوله عبر التاريخ وعظاته ، مثل هذه المعارك لم تكن كذلك الا لانها كانت تقرر مصيرا خطيرا او كانت فاصلة بين عهدين متباينين تباينا تاما .

ان عهد الاحتلال البرتغالي للسواحل المغربية مر بثلاث مراحل رئيسية :

المرحلة الاولى : عهد الحماس البرتغالي للانطلاق نحو الكشوف والاحتلال ولتوطيد الوجود البرتغالي على السواحل الافريقية وذلك باقامة القلاع والحصون ... ثم التطلع لاحتلال مراكز جديدة باستمرار ...

المرحلة الثانية : وهي عهد حفاظ على المراكز المحتلة مع محاولة الانطلاق نحو داخل البلاد ، والتعرف عليها من أجل استغلال خيراتها ...

أما المرحلة الثالثة : فهي مرحلة تراجع وانسحاب وخاصة عن بعض المراكز التي ليست لها اهمية كبيرة أو التي اضطر البرتغاليون للانسحاب عنها لشدة الحصار والمقاومة الوطنية .

هذه المراحل الثلاث هي التي سار فيها الخط البياني للاحتلال البرتغالي ...

وهنا نتساءل أين تقع معركة وادي المخازن من هذه المراحل الثلاث ؟ ؟

ومما لا شك فيه انها تقع في المرحلة الاخيرة من هذه المراحل ومن هنا ندرك ابتداء أنها كانت انتفاضة هوجاء من ملك شاب مغرور ...

والحديث عن هذه المراحل الثلاث يتطلب وقتا طويلا وصفحات عديدة لانه حديث عن فترة زمانية تزيد عن قرن ونصف من الزمن ... (من : 1415 الى 1578) .

وعرفت هذه الفترة الطويلة ظروفا قاسية تمثلت في الحروب الطاحنة التي دارت بين المغرب والبرتغال ، فالفترة اذا هي فترة عراك ونضال ... تمدد فيها النفوذ البرتغالي وتقلص ...

وخلال هذه الفترة تبودلت بين المغرب والبرتغال عدة رسائل ومعاهدات ووثائق ، كما خضعت خلال هذه الفترة اجزاء في بلادنا للنفوذ البرتغالي وارغمت الاجزاء الخاضعة على اداء الجزية والضرائب والغرامات والاتاوي ...

وحدث خلالها تبادل تجاري وتبادل في الاسرى ...

وتعلم كثير من المغاربة اللغة البرتغالية اما لطول اقامتهم بالسجون والمعتقلات البرتغالية واما لظروف اخرى اضطروا فيها للاحتكاك بالبرتغاليين ،

كما تعلم عدد من البرتغاليين اللغة العربية واللهجات المحلية وكان بعض حكامهم بالثغور يتكلمون لغة البلاد بطلاقة ، وبالرغم من كل هذا فان الطابع العام للعلاقات المغربية البرتغالية خلال هذه الفترة ظل هو الاحتفاظ بروح الشك والحذر ، بحيث كان كل من الجانبين يتربص الفرصة المواتية بالجانب الآخر ...

ولعبت الجاسوسية البرتغالية خلال هذه الفترة ادوارا خطيرة وكانت هذه الجاسوسية سببا في استمرار تأجج نار الحرب بين الجانبين لمدة طويلة من الزمن . وكانت مهمة المخابرات البرتغالية هو العمل على اغتنام حالات الضعف وتأزم الاوضاع الداخلية بالمغرب .

وهذا مما جعل المغرب يعاني في هذه الفترة ازمات نفسانية عنيفة : ضعف في الحكم المركزي ، ثورات داخلية ، تكالب على السلطة ... وتمرد في في بعض الجهات ... وكل هذا كان يحز في نفوس الاحرار من المغاربة ، وفي هذه الآونة بالذات كانت المدن والحصون الاندلسية يسقط الواحد منها تلو الآخر في يد الصليبيين بشبه جزيرة ايبريا ، وبذلك تدفقت على البلاد المغربية افواج من المهاجرين الاندلسيين تاركين وراءهم مجدهم ، وممتلكاتهم وقطعا من فلذات اكبادهم ... ومستصحبين معهم في نفس الوقت آلاما واحزانا وبكاءا وعويلا وتحسرا وندما ...

كل هذه المآسي كان يتجرعها الشعب المغربي في صبر مرير وكرم وشجاعة ...

وهكذا عمت البلوى ، وكثرت الشكوى واخذت الحضارة المتوارثة من عهد الادارسة والمرابطين والموحدين والمرينيين تتقلص وتنهار ... وأصبح المغربي يفقد نكهة الحياة ، واي طعم للحياة واجزاء من البلاد تحت رحمة الغاصب المحتل ... ؟ !

والحقيقة أن الاحتلال البرتغالي للمغرب كان من اخطر الضربات التي اصيبت بها هذه البلاد ... وكان من أكبر معاول الهدم التي عملت على فصل هذا الشعب عن ماضيه الحضاري وتراثه الفكري والثقافي لان الاحتلال البرتغالي لمعظم الثغور المغربية شغل الرأي العام لا في المغرب فحسب بل في بلدان المغرب العربي كله . وكان أول صرح حضاري تهدم هو سقوط سبتة تلك المدينة التي كان سقوطها طعنة نجلاء في قلب كل مغربي وفي قلب كل مسلم في مشارق الارض ومغاربها . فالبرتغاليون الذين تحرروا من النفوذ العربي في شبه الجزيرة الايبيرية عملوا على الانتقام من الشعب العربي المسلم في المغرب .

ففي اواخر القرن الرابع عشر الميلادي كان البرتغاليون قد كونوا مملكة فتية في الجنوب الغربي لشبه جزيرة ايبريا بزعامة اسرة (Aviz) التجارية ونودي في هذه الاسرة بيوحنا الاول ملكا على البرتغال سنة (1385 — 1433 م) ونظرا للصراع القائم على اشده في ذلك الوقت بين بني الاحمر بغرناطة وبين الاسبان توجهت أنظار الدولة البرتغالية الجديدة اتجاها بحريا وللتوسع على حساب القارة الافريقية ، وكان افراد من البيت المالك في البرتغال يحملون بين جوانحهم حماسا لغزو المسلمين ، ونظرا لقرب المسافة بين الساحل البرتغالي والساحل الافريقي فالبرتغاليون اصبحوا يتطلعون لاقتحام هذا الاخير وكان الباعث على ذلك باعثا اقتصاديا ودينيا واستعماريا توسعيا ، وكانت افريقيا في نظر الاوربيين في ذلك الوقت مصدر غنى واثراء ، وخاصة وأن بعض المناطق كانت قد اشتهرت بمعدنها الذهبي وتجارتها مع قوافل التجار المسلمين ...

وأمام بريق الذهب الافريقي ، الى جانب الحقد الصليبي ضد المسلمين أعلن الملك البرتغالي يوحنا الاول : « أن ميدان الجهاد ضد المسلمين بافريقيا هو الميدان الحقيقي الذي يكسب في أفراد الاسرة المالكة أوسمة الفخار ... »

ومن اجل هذا الاعلان تبارى الامراء البرتغاليون ابناء الملك يوحنا في اقتحام البحار والغزو ضد المسلمين ...

وخصص الملك يوحنا البرتغالي أكبر وسام في المملكة وهو : (وسام السيد الاعظم) لمن يحقق انتصارا على المسلمين ، واظهر الامير هنري الملاح حماسا كبيرا في هذا الميدان وقام بعدة حملات ضد المسلمين بشمال افريقيا وغربها ، ودشن البرتغاليون حملاتهم على افريقيا باحتلال أهم ثغر مغربي وهو مدينة سبتة سنة 1415 م / 818 هـ بقيادة الملك البرتغالي يوحنا الاول وابنائه ، وكان ذلك على عهد السلطان ابي سعيد ابن احمد المريني . ت 823 هـ/ 1420 م .

وبعد احتلال سبتة تاقت نفوسهم للمزيد من

الاحتلال وجعلوا نصب اعينهم مدينة طنجة وعملوا بكل الوسائل لتحقيق احتلال هذه المدينة .

وفى سنة 1437 قاد الملك البرتغالي (دون ادوارت D. Duarte) (1433 ـ 1435) واخوه الامير (هنري D. Henry) حملة عنيفة لاحتلال طنجة واتخذ هنري طريق البر ، (ودون ادوارت) طريق البحر وكان الانطلاق من سبتة المحتلة ، الا ان هذه الحملة فشلت فشلا ذريعا واسر فيها عدد كبير من الجيش البرتغالي المهاجم وكان من بين الاسرى الامير (دون فرناندو) (D. Fernando) اخو الملك وحاول الوزير ابو زكرياء الوطاسي أن يجعل تحرير سبتة من شروط الصلح الا ان البرتغاليين فضلوا ان يظل الامير فى الاسر على ان يتخلوا عن سبتة !!

ومع ذلك لم ييأس البرتغاليون من احتلال طنجة حيث اغاروا عليها بعد الانهزام المشار اليه عدة مرات وفى سنة 1453 م سقطت القسطنطينة البزنطية بقيادة محمد الفاتح (1451 ـ 1481 م) فى يد المسلمين ، وكان لهذا السقوط دوى حزين فى الممالك المسيحية وتوجهت الانظار نحو الفونصو الخامس الملك البرتغالي ليأخذ بالثار للمسيحيين من المسلمين وتحرك الحماس البرتغالي لاحتلال طنجة ؛ الا انه نظرا لصعوبة ذلك وقع التفكير فى احتلال القصر الصغير الذي كان من اهم الموانى على بحر الزقاق وخاصة بعد سقوط سبتة ، وكان اهم جسر بقي يربط بين مسلمين العدوتين وهو بالاضافة الى ذلك يتوسط المسافة بين سبتة وطنجة فباحتلال القصر الصغير تصبح طنجة قاب قوسين او ادنى من السطو البرتغالي .

وفى سنة 1458 م جاء الرد البرتغالي على احتلال القسطنطينية فاحتل هذا الميناء وسقط فى يد البرتغاليين اكلة سائغة واخذت بعد ذلك الثغور المغربية تسقط فى يد البرتغاليين فسقطت طنجة واصيلا سنة 1471 م وكان لسقوطهما أثر اليم فى نفوس المغاربة ونادى الناس بالجهاد وانطلقت السنة الشعراء واقلام الكتاب برثاء المدينتين وبالدعوة الى الجهاد ، ومن ابلغ المراثي فى سقوط مدينة أصيلا التائية العصماء التي جاشت بها شاعرية المجاهد العلامة ابو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازي ت (920 هـ) 1514 م .

وفى هذه السنة التي احتلت فيها مدينة أصيلا ثم طنجة وهي سنة (1471 م) أسست مدينة شفشاون من اجل جعلها دار امارة لتنظيم العمليات الجهادية ضد البرتغاليين المحتلين .

وبتأسيس هذه المدينة نظمت المقاومة المغربية نفسها فى شمال المغرب واصبحت هذه المقاومة شجى فى حلق البرتغاليين وعائقا فى طريق توسيع مناطق نفوذهم ...

ومن المعلوم عند الدارسين لهذه الفترة أن الهدف البرتغالي كان هو الوصول الى فاس العاصمة والتعمق نحو داخل البلاد ، لكن المقاومة المغربية حالت ـ خلال فترة احتلال البرتغاليين للثغور المغربية ـ دون تحقيق هذه الرغبة .

وبالاضافة لاحتلال اهم الثغور بشمال المغرب احتل البرتغاليون اهم الثغور بالجنوب وواصلوا سيرهم نحو السواحل الغربية الافريقية . وهكذا اصبحوا فى نهاية القرن الخامس عشر يسيطرون على أهم الموانىء بغرب افريقيا . وكل هذا ان دل على شيء فانما يدل ان المعارك بين البرتغاليين والمغاربة كانت معاركة طويلة النفس ، وهي معارك اثرت على النهوض الحضاري ، والثقافي، وعلى الازدهار الاقتصادي والتقدم الاجتماعي لان حرب الاستنزاف التي تجرع المغاربة غصصها خلال ما يقرب من قرنين من الزمن كان لها أسوء الاثر على جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والثقافية خاصة وان الجهاز الاداري والسياسي كان يعاني من الاضطراب والفوضى والانشقاق والتمرد .

وخلال هذه المعارك الطويلة كان البابا والكنيسة المسيحية يباركان انتصار للبرتغاليين ويمنحان الالقاب والاوسمة لابطال الغزو ضد المسلمين فى الوقت الذي كان العالم الاسلامي يعاني من مشاكله وانقساماته وحروبه الداخلية الطاحنة . وبالرغم من ظهور القوة العثمانية فى الشرق الاوسط فان الاوضاع بالمغرب لم تعرف تحسنا او انفراجا الا بظهور القوة السعدية فى الجنوب التي كان عليها أن تحارب فى ثلاثة واجهات :

1) ضد مراكز الاحتلال البرتغالي حيث استطاعت القوة السعدية الناشئة ان تقض مضاجع البرتغاليين فى مناطق احتلالهم بالجنوب ، وعلى اثر الضربات السعدية جلا البرتغاليون عن حصن فونتي، وآسفي وآزمور وغيرها .

2) ضد الوطاسيين الذين يملكون شمال البلاد ويتمركزون فيه تمركزا يجعل التغلب عليهم من الصعوبة بمكان ، وجرت بين الوطاسيين والسعديين معارك ضارية لمدة نصف قرن من الزمن .

3) ضد الاتراك العثمانيين الذين كانوا قد بسطوا نفوذهم على أجزاء كثيرة من شمال افريقيا وحاولوا بكل الوسائل ضم المغرب الى مناطق نفوذهم بالشمال الافريقي .

فالقوة الجديدة بالمغرب فى مطلع القرن السادس عشر الميلادي كانت ظروفها صعبة وكان عليها أن تحارب فى عدة جبهات لكن الحماس الشعبي وارادة التخلص من الاحتلال الاجنبي البغيض ذلك كثيرا من الصعاب وقوى من عزم هذه القوة الناشئة.

وكل ذلك كان تمهيدا للمعركة الفاصلة التي هي معركة وادي المخازن .

وعليه فمعركة وادي المخازن كانت تصفية لحساب وردا لاعتبار ، وتصحيحا لاوضاع ...

فالمغرب الذي عانى من ذلك الاحتلال ، ومن مرارة الحروب لفترة طويلة من الزمن وجد فى الظروف التي سبقت المعركة جوا حافزا على اقتحام معركة النصر الى النهاية ...

خاصة وان فرار محمد المتوكل واستنجاده بعدو البلاد ، والتجاءه اليه قد اجج من حماس الناس وضاعف من شعورهم بالخطر على مستقبل البلاد .

وهكذا اخذت عوامل التعبئة الشعبية تتضافر لتكون فى النهاية جيشا ذا معنوية عالية وذا تصميم اكيد على النصر .

وكانت القيادة السعدية فى مستوى الطموح الشعبي والشعور الوطني .

اما بالجانب البرتغالي ، فكان الملك الشاب يملك من الحماس والحقد على المغرب ما تكاد تنفجر به جوانحه ، لانه كان يريد أن يمحو عن عرش البرتغال ما وصم به خلال فترة ابيه جبان الثالث ذلك الملك الذي وصف بالضعف والخذلان والذي انسحب فى عهده البرتغاليون من آسفي وازمور واصيلا وحصن فونتي ...

فالملك البرتغالي الشاب وجد – فى نظره – فرصة هائلة بلجوء الملك الطريد اليه ، وهي فرصة لاسترجاع المجد البرتغالي ولان هذه الفرصة ستخول له أن يحتل اجزاء كبيرة من المغرب كما ستخول له التدخل المباشر فى السياسة المغربية وهكذا تصور الملك الشاب انه امام فرصة ذهبية يجب اغتنامها بكل حماس وقوة ، وهذا هو ما جعله يتصامم عن اية نصائح تريد الحد من حماسه واطماعه ...

وفى جو مملوء بالاطماع تقدم الملك البرتغالي الشاب لخوض معركة رد الاعتبار لعرش البرتغال ...

وقد سبقت الاشارة الى أن هذه الطفرة البرتغالية لخوض معركة وادي المخازن كانت فى المرحلة الثالثة من تاريخ احتلالهم لسواحل المغرب، وعرفنا ان هذه المرحلة كانت قد شهدت انهزامهم امام المقاومة الوطنية وعرفت تخليهم عن عدد من الثغور المغربية التي كانوا يحتلونها ...

ومعنى هذا ان المغاربة ذاقوا حلاوة الانتصار على اعدائهم المحتلين ، واستطاعوا ان ينتزعوا منهم ثغورا كانت محاطة بسياج من الاسوار العالية ، والخنادق العميقة ، والحصون المنيعة ... استطاعوا ان ينتزعوها منهم وان ينتصروا عليهم وان يلجئوهم الى الفرار والانسحاب ... بالرغم من مناعة التحصينات وشراسة الدفاع ...

واذا كانت الظروف قد فرضت عليهم اليوم خوض معركة ليست من مستوى المعارك السابقة لا من حيث العدد والعدة ، ولا من حيث التجهيز والتقنية ... اذا كان الامر كذلك فان الواجب الوطني يفرض تعبئة شعبية ذات ايمان صادق ، وعزيمة قوية جادة من أجل تقويض الغزو البرتغالي ، وتلقين العدو الطامع درسا لن ينساه أبدا وهكذا صمم المغاربة على السير فى طريق النصر ، وعلى خوض معركة فاصلة حاسمة بينهم وبين عدوهم .

وفى يوم قائظ من أيام غشت لسنة 1578 م وفى منطقة منخفضة بين الشعاب يلتقي فيها النهر ببعض روافده وتتجمع فيها اشعة الشمس ، وترتفع فيها درجة الحرارة ، التي كان لا يضارعها فى ارتفاعها الا حرارة ايمان المجاهد المغربي المسلم .

فى هذا الجو الطبيعي الحار ، وفى هذا الجو من الايمان بنصر الله والثقة به ، علت اصوات المجاهدين وصيحاتهم بشعار النصر :

الله أكبر ، الله أكبر .. ولا اله الا الله ، والنصـــر لملــة الاســلام .

فكانت الحملة الصادقة وكان النصر ، فصدق الله وعده بنصر المومنين ، ونصر عباده ، وهــزم المعتدين المجازفين ، وبذلك اصبحت هذه المعركة غرة فى جبين التاريخ المغربي وكانت ذات نتائج باهرة وذكر خالد فى العالمين ...

والحقيقة أن معركة وادي المخازن خاضهـــا الشعب المغربي بكل هيئاته وطبقاته وعملت القيادة الحكيمة على قطف ثمار الاجماع الشعبي ... وعلى استغلال الحماس الديني والوطني وعملت مختلـف الظروف على تحقيق الحكمة القائلة :

« اذا الشعب يوما أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القـدر »

فكانت المعركة وكان الانتصار ، وتحطم الغرور وتحققت الآمال الشعبية فى الدفاع عن الكرامـــة ، وبذلك كان النصر حليف الحق وكان الانهزام حليف الباطل . وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

تطوان : عبد القادر العافية

اقــرا فــى العــدد التــاسع

- مظاهر الثقافة لمغرب ما قبــل المرابطيــن
- سجـــدات وعبـــرات
- أغـــلاط شائعـــة
- سبتــة فى عهــد الموحديــن
- ابو العباس بن احمد السكيرج فى نفحــة من نفحاتـــه الصوفيـــة .

أول دكتوراه دولة في العلوم الاسلامية بالمغرب تمنحها دار الحديث الحسنية للباحث نوري معمر.

نوقشت يوم الثلاثاء 12 شعبان 1398 الموافق 18 يوليوز 1978 في دار الحديث الحسنية أول أطروحة لنيل دكتوراة دولة في العلوم الاسلامية بالمغرب تقدم بها السيد « معمر نوري » في موضوع « ابو عبد الرحمن بقي بن مخلد شيخ الحديث بالاندلس » .

وكانت لجنة المناقشة تتكون من السادة :

- الدكتور ممدوح حقي - مشرفا .
- الاستاذ احمد بن تاويت - عضوا .
- الاستاذ محمد المنوني - عضوا .

وقد استحق السيد معمر نوري درجة حسن جدا . وبذلك يكون اول مغربي يحمل دكتوراة دولة في العلوم الاسلامية من دار الحديث الحسنية .

من خلفيات معركة وادي المخازن

للأستاذ عبد العلي الوزاني

عندما وقف المغرب وقفته البطولية الشجاعة امام الجيش الغازي بوادي المخازن منذ نحو أربعة قرون ، كان يتصدى لزحف صليبي شديد الخطورة ، يستهدف القضاء على الكيان المغربي تمهيدا لبسط نفوذه الجشع على مناطق اخرى من البلاد الاسلامية، والمغرب كان قد استحق حاقدا .. بل جيشا من الحاقدين ، اذ هو البلد الذي نقل الاسلام الى اجزاء هامة من اوروبا ، واقلق المسيحية في عقر دارها ، اذ وضعها امام الاسلام وجها لوجه ، يتحداها ان تصمد امامه ، وتقوى على أن تصد عنه الانصار والمعجبين ... والمغرب هو البلد الذي استمر لعدة قرون يدعم الوجود الاسلامي العربي في اسبانيا ، ويتقدم لمنازلة المتربصين به كلما دعت الضرورة الى ذلك ، بحيث كان الدرع الوافي لاخوانه مسلمي الاندلس ، شد ازرهم في الملمات ، ووقف الى جانبهم كلما حز بهم الامر ، مما اخر الكارثة التي كانت قمينة بأن تهدم دولتهم في وقت مبكر ، لولا تضحيات المغرب ومبادراته الصادقة لرد عادية الخصوم ، وتصحيح الاوضاع المتردية ، واعادة التوازن الى الحياة السياسية والعسكرية ، لذلك التحق المغرب حاقدا .. بل جيشا من الحاقدين .. ولقد تحمل عواقب هذا الحقد الصليبي بكفاءة عالية ، ورد عليه بالمواقف الشجاعة ، والسياسة الرصينة ، والوطنية الصادقة ، والتضحية التي لا تعرف الحدود .

ولقد كانت أخطر المعارك التي خاضها دفاعا عن كيانه وعن دوره التاريخي يومئذ هي تلك التي جرت داخل التراب الوطني ، وفي طليعتها معركة وادي المخازن . اما المعارك الخارجية فكانت اقل خطورة ، لكونها جرت وراء الحدود ، ولم تكن تهدد الكيان الوطني مباشرة ، وغالبا ما كان يساهم فيها وهو أكثر ما يكون قوة واستعدادا للنزال ، ولولا هذه القوة لما اباح لنفسه ان يقاتل خارج حدوده ، ويدفع بابنائه للقتال على ارض غير ارضهم . وأشهر المعارك الخارجية هي معارك الاندلس ، ونراها خارجية لاعتبارين : اولهما انه خاضها في الوقت الذي لم تكن فيه الاندلس قد ضمت رسميا الى المغرب ، وثانيهما انه خاضها بناء على استنجاد به من الممالك والامارات الاندلسية، أما عندما اصبحت اسبانيا تابعة سياسيا وعسكريا للمغرب في فترات معينة ، فكانت كل الوقائع الجارية داخل هذه الفترات مواقع مغربية داخلية ، موصولة بجميع الحركات السياسية والعسكرية التي تجري داخل الوطن ، لكن هناك بعض التحفظ ، وهو انه حتى في الحقب التي كانت فيها للاندلس شخصيتها السياسية المستقلة ، فان وقوف المغرب الى جانبها في محنتها القاسية ، لم يكن يتخذ شكل مساعدة خارجية محضة ، كتلك التي اعتادت الدول الصديقة تبادلها فيهما بينها وفقا لما رسمته بينها من سياسة ، نظرا للروابط الاستثنائية التي كنت تربط البلدين

المتجاورين، وليس الامر مقصورا على الصلات التقليدية الموجودة بين بلد عربي وبلد عربي آخر ، تجمعهما اللغة والدين والتاريخ والتراث المشترك ، بل هو يتجاوز كل هذه الدعائم التي لا تخفى خطورتها ولا قيمتها الى امر آخر ، وهو ان المغاربة كانوا هم الذين اوجدوا الكيان الاسلامي في اسبانيا ، اذ قاموا بعملية الفتح ، ورضعوا الاساس الاول للمجتمع ، وكونوا حزام الامن للدولة الناشئة ، وبالرغم من تدفق اخوتهم من المشرق العربي على اسبانيا ، فان المغاربة ظلوا رابضين في اشد البقاع الاندلسية صعوبة ، من حيث المناخ والموقع الجغرافي ، واستمروا يشكلون حجر الزاوية في المجتمع الاندلسي الناشيء ، لذلك كانت نظرة المغرب الى شبه الجزيرة الايبيرية شبيهة بنظرته الى نفسه ، وما اظن ان الجندي المغربي الذي ساهم في معركة الزلاقة او معركة الارك ، كان يعتبر نفسه اجنبيا يخوض حربا تقع في ارض اجنبية ، بالمعنى الذي يتبادر الى ذهن اي جندي آخر ينتدب للقتال خارج ترابه الوطني ، اضف الى ذلك ان صيانة الدولة الاسلامية في اسبانيا يعني فيما يعنيه ، صيانة الدولة الاسلامية هنا في المغرب ، فقد كان البلدان يتقاسمان كل الاحداث والحركات التاريخية ، لدرجة ان كل واحد منها كان ينظر الى صاحبه وكانه ينظر في مرآة .

بعد هذا الاستطراد نعود الى وقعة وادي المخازن ، لنضعها في سياقها التاريخي . فهي اولا جرت فوق ارض مغربية ، وهذا يعني انها كانت خطيرة جدا ومهددة لكيان الدولة في الصميم ، كما يعني انها كانت ضمن حرب دفاعية من طرفنا ، هجومية من طرف خصومنا ، كنا في موقف دفاع لان المعركة جرت على ارضنا ، وكانوا في موقف هجوم ، لان المعركة جرت خارج راضهم . وما كل معركة ينطبق عليها هذا التحديد ، فبعض المعارك قد تكون دفاعية حتى ولو جرت خارج حدود الدولة المدافعة ، لانها قد تطارد اعداءها وهي تدفعهم عن ارض الوطن ، وتتعقبهم الى داخل بلادهم ، لكن هذا لا ينطبق على خصومنا في معركة وادي المخازن ، فهم كانوا مهاجمين لنا وقبل هذه المعركة بزمن ليس بالقصير ، وتمكنوا من السيطرة على اجزاء هامة من ترابنا الوطني ، الامر الذي مهد لذلك الاصطدام الكبير ، المدعو معركة وادي المخازن . وهي قد جرت بين دولتين كل منهما كانت لها

دوافعها الخاصة ومنطقها الخاص : اما المغاربة فالقضية عندهم كانت قضيه وطنية قبل كل شيء . جيش غازٍ اخترق التراب الوطني ، وهدد الدولة ، وذهب بامن المواطنين ، لا بد من مقاومته مهما كان الثمن ... واما بالنسبة الى البرتغاليين ، فقد كانوا مدفوعين بدافع الحقد على المغرب ، لمواقفه سالفة ، وبدافع من التعصب الصليبي ضد الاسلام والمسلمين ، وبدافع من العقلية الاستعمارية التي ترى ان يدها مطلقة في كل ارض يظن بها العجز عن حماية نفسها من اي خطر خارجي ، ولكن البرتغاليين كانوا يخفون دوافعهم هذه ، تحت ستار انجاد ملك مغربي طلب مساعدة دولة قوية ، وهي تعتبره صاحب السلطة الشرعية ، متقدمة لنصرته واعانته على خصومة الذين اغتصبوا السلطة دون استحقاق. اضف الى ذلك ان المعركة انما كانت قمة سلسلة من المعارك بين المغاربة والبرتغاليين ، ولم تكن المعركة الاولى ، فمنذ اخذ البرتغاليون يسطون نفوذهم على بعض المناطق المغربية والمقاومة المغربية متواصلة، الا ان قمة الصراع كانت هي وادي المخازن ، ذلك ان المغيرين كانوا هذه المرة يستهدفون الدولة نفسها ، وليس مجرد احتلال اطراف اخرى من ارض الوطن . وطريقة الاستعمار كانت تمر بعدة مراحل ، عرفها المغرب كلها ازاء الدول الاستعمارية المتحرشة به ، فهو اولا يبدأ بالمعاملة الاقتصادية التي يتكافأ فيها الطرفان ، ثم لا يلبث ان يؤسس مراكز له على بعض الموانيء ، يتخذها قواعد للتبادل الاقتصادي، ويقبل بخضوعها لمراقبة الدولة ، وعندما يتمكن من ترسيخ وجوده يحصنها بقوة رادعة متذرعا بدافع حمايتها من قراصنة البحر ، ولكنه في الحقيقة يكون قد بدا تدشين وجوده العسكري على راض يطمع في احتلالها ، بدليل انه ما ان تلوح له اول فرصة مواتية، من انقسام داخلي ، او عجز دفاعي طاريء ، حتى يستغلها فورا ، فيتقدم بقوته العسكرية للانقضاض على الدولة واخضاعها لسيطرته . واذن فالاستعمار البرتغالي عندما تقدم نحو القصر الكبير تمهيدا لتهديد مدينة فاس ، كان ينفذ واحدا من مخططاته الشريرة لوضع يده بصفة نهائية على الدولة المغربية، ثم محوها وضم التراب آخر الامر ، خصوصا وان الاوضاع الدولية في ذلك العصر ، كانت تشهد تحولات في جغرافية الدول ، عن طريق الغزو المسلح ، فدول تتقلص حدودها ، واخرى تزداد حدودها اتساعا . ودول صغيرة تكبر ، ودول كبيرة

تصغر ، ولقد كان المغرب معرضا لشيء من هـذا القبيل ، الا ان بعض المميزات الخاصة جعلته يخرج من كل محنه وأوجاعه التاريخية سليما . هـذا ، ولقد كان سقوط الاندلس قمينا بان يتمخض عن احداث كبيرة كمعركة وادي المخازن . ذلك أن الاندلس كانت امتدادا للمغرب وكان المغرب ظهيرا للاندلس ، ولم يكن من الممكن ان يبقى المغرب محافظا على أمنه الداخلي ، بعد أن عجز عن القيام بدوره التاريخي في الذب عن دولة الاسلام هناك . كان من الطبيعي — والحالة هذه — أن يتعرض للغزو ، اذ لا مفر امامه من احد امرين : اما ان يبقى قويا كقوة رادعة يخشى باسها ، واما ان يطمع الاعداء فيه فيتقدموا لمهاجمته ، وقد اجبره قدره التاريخي على الثانية ، بعد ان جعل الاولى من نصيبه عقودا طويلة من السنين . لم يكن في وسعه ان ينسحب من الميدان ، ميدان الصراع الخارجي ، ليقفل عليه حدوده ويعيش في سلام ، لا لان الاوضاع التاريخية لم تكن تسمح بذلك فحسب ، ولكن لان المغرب لم يعرف الحياد في سياسته الخارجية عندما يتعلق الامر بمصير الاسلام والمسلمين ، واكثر الاخطار الاجنبية التي تعرض لها ، كان بسبب مواقفه المنحازة لصالح اخوته في الدين ، ومنذ ان فتح المغرب بلاد اسبانيا وهو يعتبر نفسه مسؤولا عنها ، ناظرا اليها على أنها من سيادته وقوته . وفي الوقت الذي ضاعت فيه دولة الاسلام هناك احس المغرب بأن عاقبة سقوطها ستكون وبالا عليه ، الا أن انقساماته الداخلية كانت دون مستوى وعيه بالاخطار المحدقة به بكثير ، على أنني لا اجعل اضطلاع المغرب بدوره التاريخي الكبير في نشر الاسلام وتأييد المسلمين خارج حدوده شيئا حتميا في الهجمة الاستعمارية عليه ، ذلك أن الاستعمار لا يتوقف في مد نفوذه الى الاوطان الاخرى ، على امثال هذه المبررات ، والا فباي تفسر اقدامه على احتلال اقطار في افريقيا تفصلها عنه آلاف الاميال ، دون أن تكون هذه الاقطار قد اضطلعت برسالة كالتي اضطلع بها المغرب ؟ الا أن نهوض المغرب بدوره الاسلامي والحضاري جعل الاستعمار اشد تصميما على توجيه ضرباته اليه ، دون تأخير ، الامر الذي عجل بمعركة وادي المخازن . كان من الجائز أن تتقدم هـذه المعركة قليلا او تتأخر قليلا عن الوقت الذي حدثت فيه ، الا انها في كلتا الحالتين لا بد ان تقع بكل عنفوانها وما تحمله من دواعي الحسم . ولست مع اولئك الذين ربطوا مصير المغرب بمصير هـذه المعركة ، حيث ذهبوا الى أن المغرب لا يمكن ان ينهض من كبوته لو انه انهزم فيها ، اذ ستتحطم روحه المعنوية ، ويتولاه الذعر ، وتعمه الفوضى ، ويستأسد عليه الاعداء المغيرون واخيرا تنهار الدولة ، ويتغير اتجاه التاريخ ، بينما كان البعض منهم معتدلا فلم يصل بالامور الى هذا الحد ، ولكنه يهول القضية هو الآخر ، ويكاد يخرج بها عن حدودها المعقولة وعندي ان هذا كله مبالغ فيه ، والمغرب ليس بالبلد الذي يضمحل فيه نظام الدولة، لانه انهزم في معركة ، ولو كانت في حجم معركة وادي المخازن . ولو أن مصيره كان معلقا على معركة لكان حقا بلدا ضعيفا متداعيا للانهيار ، ولكن المغرب كان البلد القوي الشخصية المقاتل باستمرار ، لا تخيفه المعارك ، ولا تنال منه الاهوال ، ولو قدر له الله ان ينهزم في وادي المخازن لما انتظرنا منه الا ان يعيد الكرة من جديد ، بعد مراجعة اخطائه ، وتنظيم صفوفه ، وتغيير أسلوب المواجهة . والشعوب المناضلة تعرف كيف تستفيد من الهزائم ، كما تعرف كيف تستفيد من الانتصارات ، وفعلا ، فان المغرب انهزم في معارك أخرى سابقة ولاحقة فلم ينكسر روحه المعنوي ، ولا القى سلاحه جانبا ، وانما استعد للمقاومة من جديد ، وكان النصر حليفه آخر الامر . شخصية الشعوب لا تذوب ، ولو توالت عليها الهزائم تلو الهزائم ، اذ تجدها تخرج من الهزيمة اكثر توهجا ، واشد مضاء، واصرارا على البقاء والاستمرار . وقد حبا الله بلدنا بشخصية قوية زادتها الاحداث الجسام مناعة وقـوة .

وانه لمما يقلق اوروبا ويزعجها كثيرا أن يوجد بجوارها بلد كالمغرب ، اتضحت كفاءته القتالية ، وكان من أهم المؤثرات في سياسة المنطقة ، وتصدى لتحدي الانسان الاوربي فخرج من هـذا التحدي ظافرا اكثر مما خرج منه مهزوما ، وبالرغم من ان هذا البلد قد آل امره الى شيء من التراجع بعد ان مني بعدة ازمات داخلية ، اوشكت ان تفت في عضده ، فان الغرب لم يكن يطمئن له بال ، طالما بقي المغرب ذا شخصية مستقلة ، فهو لا يأمن ان يستعيد قوته الظافرة ، ليظهر في الميدان من جديد ، كعامل من عوامل التغيير وتوجيه حركة التاريخ ، ولذلك اخذ يوجه اليه الضربات تلو

الضربات باحتلال شواطئه ، وشن الغـارات على مواقعه الحصينة ، بغية اضعافه وشل كل قدرة له على النهوض من جديد ، ولقد كانت موقعة وادي المخازن هي التعبير الاكثر افصاحا عن ارادة الغـرب انزال الضربة القاصية بهذا البلد ، حتى لا يكون فى امكانه بعد ذلك أن يتوثب للتحدي من جديد ، هذا ولقـد كان وصول الاسلام الى المغرب الاقصى وارتكازه فيه على اسس متينة ، وصياغته لدولة من اقوى دولـه شرقا وغربا ، ايذانا بتحويل اجزاء هامة مـن القارة الاوروبية الى هدف اسلامي غير بعيد . أي ان فرص الاحتكاك بين الاسلام والنصرانية صارت أوفر ، لما تحولت هده البلاد الواقعة قبالة احـد الشواطـىء الاوروبية الهامة ، الى بلاد اسلامية مرشحة تاريخيا وحضاريا وثقافيا وجغرافيا وبشريا لتكون اداة فعالة فى تحويل البحر الابيض المتوسط فى اشد مجالاته خطرا الى بحيرة اسلامية ، بعد ان خـاض غمـاره الامويون من جهتهم لنفس الغرض ، ومجـرد وصول عبد الرحمان الغافقي الى جنوب فرنسا عبر الاندلس، واعتمادا على الظهير القوي الذي هو المغرب ، كفيل باشعار الغرب بالاخطار الناجمة عن وجود خلفيـة صلبة قوية الساعد لكـل الحركـات السياسيـة والعسكرية الطموحة الى تحويل الاندلس قاعدة انطلاق نحو القارة الاوروبية .

ان وجود المغرب قريبا من الشاطىء الاوروبي كان فى طليعة الاسباب التي جعلته منطقة ساخنة ، منفعلة بكثير ن التيارات السياسية الصادرة عما يليه من القارة الاوروبية ، خصوصا فى الاوقات التـي اصبحت فيها ، اوروبا متهيئة علميا وعسكريا للبحث عن مناطق نفوذ ، وعن مواد خام لصالـح مصانعهـا الكثيرة ، وعن اسواق خارجية لترويج بضائعا المتنوعة، لقد كان من سوء حظ المغرب انه فشل فى الاستفادة من وقوعه على مرمى حجر من الساحل الاوروبي فى جزئه الجنوبي ، بعد أن حاول عدة مرات ، بواسطـة الدولة الاندلسـية المسلمة ، باعتبـاره كان قاعدتها الاساسية ، وخلفيتها العتيدة ، ورأينا طموحه يصطدم بظروف لم تكن مواتية ، الامر الذي جعله اخيرا يعتدل فى طموحه السياسي والعسكري ، ويكتفي بان يقبض بيد من حديد على ما ادخله ضمن دولته من مناطق ، وهذا الذي فشل فيه المغرب هو الذي حاولـت اوروبا النجاح فيه ، لاعتبارات تخصها هي . فلقـد ارادت الامتداد عبر المغرب الى القارة الافريقية او الى نواح هامة منها على الاصح ، قصد تحويلها الى مزرعة للقارة الاوروبية ، الى ريف ينتج لتاكـل ، ويعمـل لتستريح ، ويحترق لينير لها آفاق الحضارة المادية، وبقي المغرب يصطدم بالتحرشات الاستعمارية مـن خلال شواطئه عدة قرون ، الى ان انهارت مقاومته فى الازمنة الحديثة ، ثم طلع من رماده من جديد ليعيـد لنفسـه اعتبارها التاريخي والحضاري العريق .

وبناء على الاعتبارات والخلفيات سالفة الذكر ، يمكن تقييم معركة وادي المخازن على النحو التالي : ليست هي مجرد لقاء عسكري التحم فيـه الجيش البرتغالي مع الجيش المغربي ، ليكتب لهذا الاخير الغلبة على الاول ، وانما هي اخطر من ذلـك ، انهـا بالنسبة الى المغرب تصحيح لاوضاع الدولة التـي كانت قد انحرفت نحو منعطف تاريخي خطيـر ، اوشكت ان تتردى فيه ، لتحتاج الى جهاد مريـر وطويل ، كي تنهض من كبوتها وانتكاسها الشنيـع . كما انها فى نفس الوقت تعبير صارخ عـن رفـض المغرب لبقاء بعض مناطقه الجنوبية والشمالية خاضعة للهيمنة الاجنبية ، لانها بتعرضها لخطر الاحتلال ، قد كانت مسؤولة الى حد ما عن التمزق الداخلي الذي عرفته الدولة وفى اعلى المستويات ، الامر الـذي احدث ازمة سياسية حادة ، كان من عواقبها المواجهة الحربية بوادي المخازن ، واحيانا تكون الازمـات السياسية شبيهة ببعض الكوارث الطبيعية ، من حيث ان الاولى تهيىء المخرج المناسب عند ظهور وضـع ضاغط وفى غاية الخطورة ، اذ هي – اي الازمـة – تطرح قضية الساعة بالحاح متزايد ، وبحدة لافتة للنظر ، حتى لتبرز كل الاحتمالات الممكنـة بصورة فعالة ، على حين ان الكوارث الطبيعية ضرب مـن التصرف الذي تلجأ اليه الطبيعة لحل بعض المشاكل الطارئة ، كالوباء أو الفيضان أو الزلزال أو غيرها من الوسائل الكفيلة بحل مشكلة عدم التوازن بين كمية الطعام المتاح وبين عدد السكان .

ان معركة وادي المخازن اظهـرت شخصيـة المغرب بحجمها الطبيعي ، وابعادها الحقيقية ، وقد كان يظن بها انها وليدة ظروف طارئة ، ساعدتها فرص متاحة على أن تتجاوز قدرها وتظهر بمظهر يفـوق امكانياتها العلمية ، وقد كان سوء التقدير هذا من وراء الهجوم على المغرب يومئذ ، ولكن نتائج المعركـة اكدت لكل ذي لب ، ان تلك الشخصية قـادرة على البروز من وسط شتى المصاعب والازمات ، وانهـا

ليست وليدة ظروف عارضة ، وان حجمها الحقيقي هو ما ابرزته كل الاحداث الماضية ، وانها كامنة فى طبيعة الانسان المغربي نفسه ، لا فى الظروف المحيطة به ، بدليل انها انبثقت عنه وسط جميع الظروف والملابسات . فقد مرت على هذا البلد محن وشدائد كانت مثيلاتها وبالاعلى شعوب اخرى ، اذ دفعت بها نحو التحلل والانهيار ، ولكنها لم تؤد بالمغرب الى هذا المصير ، بالرغم من انها خلقت له مصاعب بالغة الخطورة ، والمغربي من معدن صلب ، كانه الذهب ، لا تزيده النار الا توهجا واشرقا . وهذه الصلابة الراسخة فى طباع المغاربة هي سر صمودهم الرائع فى كل المحن التي ترضوا لها منذ عهودهم القديمة ، والى قريب من ايامنا هذه . فقد واجه المغرب الهجمة الرومانية الشرسة والهجمة الوندالية الهمجية، وخرج منهما ظافرا سليم البنيان ، كما واجه الاستعمار البرتغالي الاسباني والفرنسي والانجليزي ، ووقف شامخا امام المد العثماني ، وعانى من الانقسامات الداخلية على المستويين الحضاري والقبلي ، وعلى المستوى المذهبي ايضا ، وكان من الاقطار الهائجة المائجة المضطربة دائما ، الزاخرة بالاحداث ، على امتداد تاريخها الطويل ، ومع ذلك فهذا البلد كان ينفذ من خلال مشاكله قويا سليما راسخ الشخصية ولا زال يفعل ذلك الى الآن . لا اقول هذا واكتبه تحيزا ، وبدافع من محبتي لوطني ، ولكني اقوله وانا بصدد المقارنة بين المغرب الاقصى وبين غيره من الاقطار التي تعرضت لمثل ما تعرض له من احداث ، اذ اجد شخصياتها قد تبدلت مرارا ، وكانت دائما تغير جلدها وعنوانها ووجهتها ، خضوعا للتيارات التاريخية المحيطة بها ، الا هذا البلد ، فانه لم يغيرها بنفسه منذ ان اعتنق الاسلام والى اليوم ؛ اليس ذلك دليلا على عراقة المغربي واصالته وقوة شخصيته ؟ وعلاقة كل هذا بمعركة وادي المخازن هي كونها احد الامتحانات العسيرة التي اجتازها المغرب بكفاءة عالية ، وفى ظروف عصيبة لم تكن فيها احواله الداخلية ، مستقرة فى اعلى مستويات السلطة ، بينما كانت اجزاء منه تعاني من وطأة الاحتلال الاجنبي حقبة من الزمن ، اما حدوده الشرقية فلم تكن آمنة ، اجتاز الامتحان الصعب بكفاءة بالرغم من ذلك ، فاثبت مرة اخرى انه المغرب الاقصى ، بلد المفاجآت التي تقلب الحسابات راسا على عقب ، فى ادمغة المناوئين والمهاجمين .

ان المغرب كان دائما ثابتا راسخا وسط فتنه واضراباته ، ثبات البحر رغم تقلب امواجه ، ورسوخ الغابة رغم تقلبات الرياح ، تهتز به الاحداث ، وتضطرب به الوقائع ، وتتخطفه الاخطار ، فتذهب به هنا وهناك ، وترفع منه وتخفض ، وتقوي منه وتضعف، وهو فى كل هذه الحالات يبقى موجودا بكيانه الذاتي وشخصيته المتميزة . ولو ان المغرب كان كبعض البلاد التي اقتلعت من جذورها التاريخية والبشرية، واندمجت فى قيم غير قيمها ، لبدلته الاحداث تبديلا، وفرضت عليه ان يلبس لباس التمثيل عدة مرات ، ولكن المغرب محكوم اساسا باخلاقياته الضاربة فى عمق تاريخه وحضارته ، والمختلطة بروح البداوة وصلابتها الموروثة هذه الاخلاقيات كانت وراء كل احداث المغرب البارزة ، من فتح الاندلس ، الى الزلاقة ، الى الارك ، الى وادي المخازن ، الى المسيرة الخضراء ، وهي اخلاقيات قوامها العناد والصلابة والوحدة ساعة الاحساس بالخطر ، وتفضيل الارض على الاسرة والمال وكل مصلحة ، والبحث عن القيادة التي فى مستوى الاحداث ، والسمو بالشعور الديني الى درجة قصوى تهون معها كل تضحية ، وهي صفات لم يكن تطور الايام لينال منها او يغير مضامينها الى اليوم .

ان انتصار المغرب فى معركة وادي المخازن كان مقدمة لتوغله جنوبا الى ان اخترق بلاد السودان، فبعد ان كان المغاربة يصعدون نحو الشمال ويركبون البحر ، ويخوضون المعارك ضد خصوم الاندلس ، وينزلون بهم ضربات رادعة ، ليعودوا وقد انعقدت لهم الوية النصر ، انحدروا بابصارهم نحو الجنوب بعد موقعة وادي المخازن . ذلك ان الحدود الشمالية كانت طريقا شبه مسدود ، ترابض امامها جيوش نصرانية متحفزة وموتورة وحاقدة ، ولم تكن الحدود الشرقية باحسن حالة من الحدود الشمالية (1) فلم يبق امام المغرب الا احد طريقين : الطريق البحري عبر البحر المحيط ، وهذا لم تكن تناط به الآمال ، وطريق بري صحراوي جنوبي ، يتاخم بعض الممالك

(1) من المؤرخين من يرى ان احمد المنصور لم يتقدم نحو السودان الا بعد ان امن جانب الاتراك .

والامارات الزنجية ، وهو الطريق الذي فضل المغرب ان يتحرك عبره ليمزق الحصار المضروب من حوله ، وقد سلك هذا الطريق فعلا ، ونازل الوثنية فيما جاوره من بلاد افريقية جنوبية ،وعاد من غزوته أكثر ثقة بالنفس ، واقدر على مواجهة مشاكله الداخلية . ولقد كانت للمرابطين جولات في تلك الربوع الافريقية، حددها السعديون ، وأبلوا فيها احسن البلاء ، حيث زادوا الاسلام تمكنا في تلك الربوع ، وفتحوا على المملكة المغربية ابوابا جديدة للغنى واليسار .

واذا كانت موقعة وادي المخازن قد عادت على المغرب بموفور القوة ، وكانت نتائجها الباهرة من وراء تقدمه جنوبا لاحتلال توات والسودان ، زيادة في اكساب الدولة مزيدا من المناعة والهيبة ، فانها عادت على البرتغال باوخم العواقب ، فلم يقتصر الامر بالنسبة اليهم على الهزيمة المرة التي تكبدوها ، وانما تجاوز ذلك الى ذهاب استقلالهم السياسي وانحلال دولتهم بعد ان مرت مدة يسيرة يقدرها بعض المؤرخين بسنتين ، على اندحارهم في معركة القصر الكبير ، ذلك أن فيليب الثاني ملك اسبانيا استغل ضعف حكومة لشبونة اثر هزيمة جيشها في المغرب ، فاقدم على التزوج من الملكة البرتغالية ، وضم بلاد البرتغال الى مملكته فازداد ملكه قوة ومناعة . كان من حسن حظ فيليب الثاني ان صادف على عرش لشبونة امراة .. مستعدة لشراء قلب ملك بعرش تملكه .. فكانت وفية لطبيعة الانثى ، ولم تستطع مسؤوليتها الجسيمة ان ترفعها فوق مستوى قلبها المشوق ... واسلمت مفاتيح مملكتها لرجل ، لان مفتاح قلبه اغناها عن اي مفتاح آخر ... ولو كان مفتاح قصر لشبونة .. وهكذا كان الملك الشاب سبستيان ، غريق وادي المخازن ، قد مهد بتهوره لتجريد لشبونة من نعمة الحرية ، والحاقها برقيق اسبانيا ، بعد ان كتبت وثيقة رقها ارق ملكة عرفها التاريخ ... كان سبستيان يريد راس المغرب بأي ثمن ، ففقد راسه في هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر ، بينما ظل راس المغرب شامخا كقمم جبال الاطلس ...

لقد كان اختلاف نتائج المعركة بالنسبة الى كل من الجانبين ذامعان كثيرة . فهو يعني فيما يعنيه ان البرتغاليين لما جاؤوا ليحاربوا المغاربة في نحو مائة وعشرين الف مقاتل ، ومن انضم اليهم من الاسبانيين والايطاليين والالمانيين ، ومزودين بالعتاد الحربي المرسل اليهم من بابا روما ، كانوا مخطئين في تقدير عواقب التوغل داخل التراب المغربي لمواجهة القبائل المغربية . كانوا كمن ضرب خيمته على حدود غابة عظيمة ، ثم شاء له سوء الطالع أن يدخل عمق الغابة ، فابتلعته في جوفها ، وجعلته عبرة لمن يعتبر ، واخطاوا مرة أخرى عندما اندفعوا وراء ملك مخلوع ، لم تبق له اية بيعة في أعناق المغاربة ، بعد أن تركهم لمصيرهم، فارا بنفسه أما خصومه الاقوياء ،وقد أعلن له الشعب ذلك على لسان علمائه ذوي الحل والعقد . اذ بعثوا اليه رسالة جوابية مطولة على رسالة توبيخ كان قد وجهها اليهم ، مذكرا اياهم بأن بيعته ما زالت في اعناقهم ، وانهم تخلوا عنه – وهو الملك الشرعي – وبايعوا مغتصب ملكه . وقد كانت رسالتهم الجوابية مفحمة له ، اكدوا له فيها خيانته لمن ناصروه وايدوه، اذ تخلى عنهم في وقت الشدائد قاصدا النجاة بنفسه، حيث صاروا دون امام ، فمست الحاجة الى بيعة امام آخر يقوم بأمر المسلمين ، فلو انه مكث بينهم ، وصمد في وجه منافسيه لحق له مطالبتهم بملازمة الطاعة والوفاء ، ولكنه لم يف بالتزاماته ، وخلف الناس وليس لهم امام ، وفوق ذلك استنجد باعداء البلاد من النصارى ، ولم يعمل بقوله تعالى : (يا يأها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم) ، وقد اشتملت رسالة العلماء المغاربة على حجج خرى دامغة تؤكد سقوط حقه في الامامة ، ولو كان البرتغاليون يدركون جيدا المعنى الشرعي للامامة لدى المسلمين لما شايعوا اماما مخلوعا فقد شرعيته في اعين المغاربة ووالي الحل والعقد منهم وهم العلماء . على أنه هناك فرق كبير بين استعانة الاخوين عبد الملك واحمد بالاتراك على المتوكل ، وبين استعانة المتوكل عليهما بالبرتغاليين . ذلك ان الاتراك مسلمون، وكانوا يومئذ حماة الاسلام ، وبلادهم هي مقر الخلافة الاسلامية التي يدين لها كافة المسلمين بالولاء والطاعة، ولو اسميا ، على حين أن ان البرتغال نصارى ومحتلون لاجزاء هامة من أرض الوطن ، وعليه فالاستعانة بالاتراك العثمانيين من باب تآزر المسلمين فيما بينهم، بينما الاستعانة بأعداء الوطن والدين تعتبر موالاة لهم، وهذا ما نهى عنه الدين بنص الآية الكريمة السابقة ..

وخلاصة القول هي ان البرتغاليين ارتكبوا خطا كبيرا ، وبرهنوا على عدم فهمهم لقضايا البيعة عند المسلمين ، لما وقفوا سياسيا وعسكريا الى جانب المتوكل ، وقد فقد أهليته للمطالبة بعرش المغرب ، بعد أن لم يحسن الدفاع عنه بالطرق المشروعة ،

ففضل اسلوب الخيانة ، ونزل على شروط العدو فى التنازل له عن الشواطىء المغربية ، فى مقابل وقوفه الى جانبه ، قصد اعادته الى الحكم . وهذا ليس له الا معنى واحد فى وهن المتوكل ، وهو أن العرش احب اليه من أرض الوطن . جريمة المتوكل هي التواطؤ مع أعداء الوطن ، على حساب امن الوطن وسلامته ووحدة اراضيه الامر الذي أساء الى سمعته ، وشعبيته ، وبعث التصميم على سحقه وافشال خطته . ولو ان ابا مروان عبد الملك اتفق مع الاتراك يوم استعان بهم ، على أن يعترف لهم بالسيادة الفعلية على اجزاء من الوطن ، لغلب على الظن أن يلقي نفس المصير ، بالرغم من انهم مسلمون، وفيهم الخلافة الاسلامية ، نما هو معروف عن المغاربة من تعشق لوطنهم لا يعرف الحدود ، مع استماتتهم فى الدفاع عنه الى درجة الاستشهاد ، ولكن عبد الملك لم يفعل شيئا من ذلك ، ولم يطالبه الاتراك بشيء من ذلك ، وانما طالبوه بأن يؤدي اليهم ارزاقهم لقاء ما بذلوا من جهد فى نصرته ومساعدته ، ولقد تحمل اهل فاس من المواطنين المغاربة نصيبا ضخما من تلك الارزاق ، اذ جمع منهم احمد الذهبي خليفة اخيه فى فاس اموالا كثيرة لهذا الغرض .

فاس : عبد العلي الوزاني



من وحي الذكريات :

وقعة وادي المخازن

986هـ - 1578م

للأستاذ عبد الله الجراري

منذ فجر الاسلام الى الحروب الصليبية ومكايد الاستعمار تحاك له في أجواء تكتل فيها أبناء النصرانية واعداء الاسلام على مقاومة الدين الحنيف بغية اجتثاث دعائمه لحد اصبح معه يتعثر في اذيال نشاطه راكعا تارة وقائما اخرى من جراء تسممها بهباء تخديرات نثرت على سمائه شرقا وغربا طوال حقب بعيدة طالما هو يئن في دوامة فتراتها تحت نير سياسة فاتنة مسخرا في حركاته الاستعمارية بسطاء العقول وضعفاء الايمان من الخونة الذين لا ينفكون يساندونه على مد شباكه الاستعبادية ، وحباله الاستغلالية لخيرات ترابه الخصب في عامة الاطراف متركزا في الشواطىء ومتوغلا في الوسط الاسلامي متربصا ما يسنح له من فرص مقيتة في خلق التنازع بين الامراء ، وبث التنافر في الاقارب الذين يغان على قلوبهم من تاثير تنويماته وتخديراته التي قد لا يستفيق البعض من هستيريتها وهوسها .

وطبيعي ان انحراف رجال من هذا الصنف عن الجادة قد يؤدي بالدولة الى الانهيار ويلقي بكيانها في الهاوية . بيد أن عملا كهذا لا يعدم ابطالا ثبتت ضمائرهم وحنكتهم التجارب ، وهيأتهم الخبرة ليكونوا سدادا محكما للثغور ، وسدا حصينا في وجه الاعداء خاصة اذا انبثقوا من بيوت الامارة ، وتربوا في احضان الملك وتغذوا بلبان الاباء والشهامة اولئك الذين عليهم تعقد الخناصر فيقومون بوقف كل تيار يحاول ان يجرف المجد ويسلب الكرامة ، ومن تلك الفصيلة

انطلق الامير المسلوخ أبو عبد الله امحمد السعدي محاولا الفتك بعميه ـ عبد الملك واحمد لولا فرارهما الى تركيا مستنجدين ومستعطفين الخليفة « سليم » الذي لب الرغبة وامدهما بجيش مؤلف من 5 000 جندي أ وقد كان للحظ في هذه المساعدة أثره الطيب حيث كان الاميران أول من بشر العاهل العثماني بفتح تونس ، وعلى التو عاد الى المغرب مزودين وانشئا يعملان جميع ما يمكن من وسائل الايقاع بالمتوكل ، ويترصدانه هنا وهناك الى ان دخل طنجة قاصدا اميرها « سبستيان البرتغالي » متطارحا عليه ، راجيا منه في خنوع الاعانة على استرجاع ملكه . . . فما كان من الملك البرتغالي عدا ان اشكاه ، اذ صادف منه هوية وتطلعا لتملك المغرب وسواحله بالاخص ، فكانت له فرصة مواتية دعمها بشرطة البغيض على المسلوخ ـ ذلك ان تكون السواحل له ، وما وراءها لابناء البلاد فقبل الامعة الشرط والتزمه ، وفورا جمع الطاغية جموعه ، وأعد عدته وعبأ قوة هائلة بلغ جيشها « 125 000 » جندي كل هذا رغم ما قام به رجال دولته وكبارها من تحذيره مغبة المخاطرة التي كانوا يرون فيها التغرير ببيضة البرتغال وتوريطها في التراب المغربي ، ولكنه صم عن سماع ذلك .

اما المتوكل المستنجد فضم لجيش العدو مساعدة ـ قوته المكونة من 300 من مناصريه ، وكان المرمى الهادف لهؤلاء الاعداء هو القضاء على المغرب وحصد أبنائه المسلمين وادارة رحا الهوان على الدين

الحنيف مع ما كان يتوفر من عدد الانقاض الثقيلة التي كان يجرها زهاء مائتي مقاتل .

وعند خروج الامير المخدوع لمبارزة مواطنيه المسلمين وكان يتوفر جيشه على أزيد من اربعين الف مقاتل ــ وجه رسالة لاعيان المغرب وعلمائه واشرافه يتوعدهم بنكث بيعته ونقضها ومبايعة عمه (ابي مروان) دون موجب شرعي في زعمه الباطل قائلا : وللعلماء انه يجوز للانسان ان يستعين على من غصبه حقه بكل ما يمكن . ولكن علماء المغرب ردوا على الرسالة بلسان الحق داحضين تخرصاته الباطلة معتمدين على قوة ايمانهم ، وصدق وطنيتهم ، وكان هذا كمخالطة وتبرير لموقفه الشنيع بذر الرماد على عيون الشعب الواعي اليقظ الذي لا تنطلي عليه امثال هذه المخادعات .

ثم لم يلبث المسلوخ ان خرج من طنجة بجيش البرتغال الكثيف تاريخ ربيع الثاني عام 986 هـ موافق 4 غشت م ولاول وهلة وفور الرؤية الاولى من ابناء المغرب وقع في النفوس شيء من الاضطراب كادت تطيش القلوب امامه شأن المفاجآت .

(ولكنهم بانوا ولم ادر بغتة
واعظم شيء حين يفجاك البغت)

اضف الى هذه الظاهرة الفاتنة استبطاء السكان عن نجدة الخليفة ابن مروان الذي وجده الحال بمراكش واصبحوا يرون التعلق برؤوس الجبال اقرب الى النجاة ، بيد ان ابا المحاسن يوسف الفاسي الذي كان وقتئذ بالقصر جعل يهدىء الافكار ويسكن النفوس مشجعا الشعب بالوقوف حجر عثرة في وجه العدو رغبة لزوم المواقع والمساكن غير تاركين له مجال التمكن من التراب والتمركز باطرافه .

وفي اقصر ظرف اتصل الخبر بالخليفة ابن مروان فحرر رسالة الى رئيس البرتغال يخاطبه فيها قائلا : ان سطوتك قد ظهرت في خروجك من راضك وجوازك العدوة فان ثبتت الى ان تقدم عليك فانت نصراني حقيقي شجاع ، والا فانت كلب ابن كلب ، فلما بلغه الكتاب استشاط غضبا ، وبعد استشارة دائرته قال المسلوخ الماكر : الراى ان تتقدم وتملك تطاون والعرائش والقصر ، وتجمع ما فيها من العدة والقوة ، فاعجب الراى اهل الديوان غير انه راى لم يرق الطاغية .

انها خدعة حربية دلت في وضوح على دهاء ابي مروان وحنكته (والقصة تهدف في فحواها الى ما ارتكبه الانسان لما حاول الاسد افتراسه) ولم يجد ساعتئذ بدا من فتق حيلته واستحياء رويته ، وتنوا فكر فيما ينقذ ويعود على الهزبر بسوء المغبة ، وفعلا نجحت الحيلة ، واصبح موثق الايدي والارجل بين يدي الانسان المفكر . (والحرب خدعة) .

من هذا المفهوم ما قام به الخليفة السعدي ثاني مرة حيث حرر مرسوما آخر مدلوله : « اني رحلت اليك 16 مرحلة (والمرحلة مسيرة يوم وتقدر بنحو 90 كلم) اما ترحل الي واحدة ، فما كان منه الا ان رحل من (تهدارت) ونزل على وادي المخازن بمقربة من قصر كتامة . واثر لحظات انطلقت نيران الحرب مستعرة بين الفريقين اذ تقدم جيش العدو بعدته وقوته وعبر الوادي ، وعن عجل امر ابو مروان بالقنطرة ان تهدم ولم يكن للوادي مشرع سواها الشيء الذي ادى بالفارين من الاعداء الى السقوط بالوادي .

ثم زحف الخليفة الى العدو برجال المسلمين وجميع ن اقبل منهم راغبا في الكفاح والاستشهاد وكان من جملة المشاركين في المعمعة ــ الشيخ ابو المحاسن يوسف الفاسي وابو عبد الله ابن عسكر الشفشاوني صاحب الدوحة غير انه كان في جانب المتوكل ، واذ عيب عليه هذا عاد الى رشده معتذرا عن غلطه .

وعندما حمى وطيس المعركة واسود الجو بالنقع ودخان المدافع لقي الخليفة ابو مروان ربه لدى الصدمة الاولى ، ومن الالطاف الخفية ان لم يطلع على وفاته غير حاجبه (رضوان العلج) الذي وجد الخليفة واضعا اصبعه على فيه كمشير لكتمان وفاته ، وفعلا وفق لذلك واخذ يختلف الى الاجناد وقواد المعركة قائلا :

السلطان يامر فلانا ان يقصد موضع كذا ، وفلانا ان يلزم الراية ، وآخر يتقدم ، ورابع يتاخر لما يتوفر عليه من خبرة وحنكة في نظام الصفوف ، وترتيب المكافحين والمجاهدين حسبما يرى في كل من استعداد لمواجهة من الجهات دون سواها من الميادين ، واسفرت المعركة في النهاية عن فوز مبين حصل المسلمون فيه على انتصار باهر وغنيمة فاخرة لم يشهد المغرب العربي لها مثيلا .

وانطلق السرور يعم حتى يهود المغرب الذين نزحوا من الجزيرة اليه اذ كانوا يتوقعون الويل من انتصار العدو الذي اخرجهم من ديارهم وطردهم من (الجزيرة الايبرية) قبل وآواهم المغرب ، وافسح لهم في ترابه حتى كانوا يقيمون المهرجانات كذكرى لهذا الانتصار الباهر الذي لا يعادله في المعارك الحاسمة الا (وقعة الزلاقة) بالعدوة الاندلسية التي كان بطلها اسد المغرب الهصور « يوسف بن تاشفين» وان دل على هذا على شيء فانما يدل على شهامة وبطولة نادرتين في ابناء المغرب العربي النبيل — فالمغاربة كعادة بالطبع احرار النفوس اباة الضيم يابون الذل ، ولا يتحملون الهوان يمثلهم قول الشاعر العربي :

(ونحن اباة الضيم من آل مالك
وان مالك كانت كرام المعادن)

واكبر برهان يلمسه العالم اليوم عموما والمغرب خصوصا ازاء هذه هذه الظاهرة المقدسة — كفاحه الاستعمار باشكاله وهو اعزل لا سلاح له سوى ايمانه وثقته بنفسه ، نعم لا نذهب بعيدا فهذه (المسيرة الخضراء) مسيرة الحسن الرائد وما حققته في عمقها من انتصار هي وحدها لتغنينا عن التدليل على بطولة هذا الشعب وكفاحه منذ كان وحتى الساعة مما لا عجب ان يكون قدوة باقي الشعوب خاصة افريقية. فمعركة (وادي المخازن) تعد في الوقائع التاريخية الحاسمة التي كتب لها الفوز رغم قلعة العدد والعدة الشيء الذي اعطى الواقعة قيمة تحدثت عنها التواريخ الوطنية والاجنبية باقلام غليظة والوان ساحرة تتلاءم وكرامة الابطال الذين خاضوا غمارها عن ايمان صادق ونفوس طاهرة حرة شجل التاريخ الامين مواقفهم النادرة بمداد الفخر والاكبار ، ولا بدع فقد سقط في ميدان الشرف والشهادة طائفة مومنة كان ذلك هدفها الاسمى وغايتها القصوى الذي نراه اليوم يحرك همم الشباب الواعي بمغزى احياء الذكرى الخالدة ، والمليئة بالانتصار الباهر رابطا الحاضر بالماضي الحافل .

وعقب انتهاء الحرب التي زادت شهرتها بموت ثلاثة ملوك في الميدان : 1) ابو مروان . 2) سبستيان. 3) امحمد المسلوخ . تولى عرش الدولة اخو عبد الملك احمد المنصور السعدي ، وفي عهده تضخمت الدولة وتحضرت اكثر من ذي قبل بما ادخله عليها المنصور من نظم اقتبس جلها من نظم الاستانة وحضارة الترك ، فتقدمت العلوم والصناعات وخطا الفن المعماري خطوات تجلت روعتها في قصر البديع وقبور الاشراف بمراكش . الفن الذي بلغ الغاية في الرقة والجودة حتى قال الاخوان المستشرقان الفرنسيان (جيروم وجان طاروة) فيما كتباه عن المغرب : ان من لم يشاهد ضريح السعديين وآية الفن المتجلية فيه لم يدرك مدى ما بلغته حضارة الاسلام .

وانطلاقا من هذا اننا اذا عرفنا تقدير الشعوب لابطالها والاشادة بمواقفها نجد هذا النوع يبدو جليا فيما تعطاه اضرحتها من عناية وسمة تهدف الاستمرارية ولا تفتا الاجيال القادمة تلمس عظمتها عبر التاريخ كـ (سبعة رجال) أولاء السبعة المقبورون في شبه زاوية بالقصر الكبير علاها الاهمال اليوم فهي لا بدع تهدي شبابنا الناشيء للبحث عن هويتهم واهتمامهم معاصريهم باعطائهم تلك التسمية (سبعة رجال) التي نجدها في غير ما بلد من مدن المغرب وقراه كمراكش المشتهرة بذلك اكثر ، ولا غرابة ان يمنح الشعب الوفي ابناءه هذا اللقب المطبوع بطابع الديمومة والذي لا يفتا يحرك كوامن الصاعدين باعثا منهم بذور تلك الجذور مرة اخرى وباقوى ما يوحي به العصر الجديد من معدات وآلات .

ان اصحاب هذه الاضرحة كانوا من شهداء المعركة اباتوا فيها عن ايمانهم واباية الضيم والذل مسترخصين دماءهم الغالية في سبيل العز والكرامة.

ومن شان امثال هذه الوقائع ان تعطي الدليل لمن تسول لهم انفسهم اهانة السلالات والارومات سعيا وراء الاطماع في الاستحواذ والاستغلال ، بيد ان التجربة لا جرم تجعلهم يعودون على انفسهم باللوم والحسرة مما لا يعتم (ومع امتداد التاريخ) ان يحول العداوة صداقة فتنقلب تلك الحزازات الى صفاء وتلك سنة الله في الكون يبديها التاريخ من فينة لاخرى طوال فترات وحقب . ولا عجب (وما بالعهد من قدم) ان نرى جلالة الحسن الثاني ايده الله يستقبل الوزير الاول البرتغالي (ينو سواريس) في 16 — 17 مايه 1978 الذي اعلن قائلا : بحثنا العلاقات الثنائية وهناك آفاق واسعة للتعاون بين البلدين . واذ كان هذا يجري فيما بيننا وبين الاجانب افلا نراه يتجلى باصدق واصفى فيما بيننا وبين جيراننا

واشقائنا وما تبصروا وعادوا الى الماضي المشرق والحافل بالفضائل والمكارم والمصالح المشتركة منذ القـدم وحتـى اليـوم .

وهذا ما يجعلنا نفيد من احياء هذه الذكريات ومعالمها المليئة بالمواقف والبطولات ، والامل وطيد أن تحقق آمالنا في العودة الى عهودنا السابقة فتجتمع القلوب على خدمة الصالـح المشتـرك سياسيـا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا .

ومن الالتفاتات الكريمـة لصاحـب الجلالـة الحسن المجدد عنايته الكبرى بتأسيس السـدود وبنائها في غير ما جهـة من المملكـة لسقـي آلاف الهكتارات والتي كان منها : « سد وادي المخازن » الذي لا تزال يد العمل جادة في بنائه وراء انعاشـه ورفاهه ، علاوة على ما يعطـي الحـدث من سنـد واستمرارية لا يبرحان يعمقان خلود المعركة وذكراها .

أعز الله جلالة الحسن وكلاه في سمو ولـي عهده سيدي محمد وسمو صنوه المولى الرشيـد وباقي الاسـرة المالكـة .

الرباط : عبد الله الجراري



التاريخ يعيد نفسه :

نقط الإلتقاء ومظاهر الإختلاف في حملتين تفصل بينهما أربعة قرون

للأستاذ محمد العربي الزكاري

يمتاز تاريخ المغرب بأحداث فاصلة في مسيرته ، ويفتخر بملاحم يطبعها ببصماته ، ويزهو بصموده في مواقف حاسمة تحدد مسيرته الى أمد بعيد ...

من هذه البطولات معركة وادي المخازن المليئة بالعبر والتي أسفرت عن نتائج باهرة بالنسبة الينا وخيبة امل للطامعين والمغامرين ، فلقد كانت في حقيقتها وعمقها وابعادها امتحانا عسيرا لقدراتنا الحربية ، وتخطيطاتنا العسكرية ، ووحدتنا الوطنية في الدفاع عن كياننا وحماية حدودنا وصيانة استقلالنا ، أما طابعها فكان في مظهره ومخبره بارزا وواضحا في تكالب قوى الشر ، وانبعاث الحقد الصليبي ، وتضافر نوايا ذوي الاطماع .

الثالوث الاسود :

وهذا « الثالوث الاسود » في تحالفه كان يسعى لتوجيه الضربة القاضية للمغرب بتمزيق وحدته التي ترعب الطامعين وتقف سدا منيعا دون تحقيق ما يتطلعون اليه من اضعاف الجبهة الداخلية وبعثرة اجزاء الوطن ، وتحول بينهم وبين حلمهم في بسط نفوذهم الدائم على بلدنا .

ولكن هذا الحلم تبخر امام تصميم العرش والشعب على خوض المعركة ، وكما هي العادة في مثل هذه الاحداث الفاصلة في تاريخنا هب المغاربة في تماسك وتعاضد لا مثيل لهما لافشال هذا المخطط ، ونزلت القوة الوطنية الضاربة لساحة الوغى مكتسحة الخصوم ومطيحة بالرؤوس ... وما ظنك بالمجاهد المغربي الذي لا يتوقف الا عند دك الحصون وسحق الغزاة ، أو الفوز بالشهادة التي يجللها نشيد الشهداء « وعجلت اليك رب لترضى » .

هذه نتيجة المعركة في سطور ، وبمقارنتها بطبيعة الظروف المحيطة بنا اليوم ، ومن ثناياها وابعادها ، نستخلص الكثير من العبر ، ونبرز نقط الالتقاء ومظاهر الاختلاف بين الحدثين ، رغم ما يفصل بينهما من قرون ...

وحدتنا هدفهم :

ولعل من ابرز نقط الالتقاء وحدة الاطماع بين الحلفاء والرغبة في تمزيق وحدتنا والانتقاص من اطرافنا ، الا اننا نلاحظ ما كان لدى قادة حملة وادي المخازن من شجاعة سياسية وادبية لا يتوفر عليها متزعمو الحملة الجديدة الذين يتسترون وراء اشباح نصبوها كواجهة لاخفاء الحلف المشبوه .

أوجه الشبه :

ومن اوجه الشبه البارزة بين الهجمة الجديدة والحملة التي اقبرناها في وادي المخازن الاتفاق على معاكسة المغرب في تقدمه صناعيا ، واضعافه اقتصاديا ، واخضاعه سياسيا ، والوقوف في وجه مسيرته الانمائية التي يخشاها القريب وترعب البعيد .

ومن مؤشرات الالتقاء افتضاح أمر هذا الحلف – فى الوقت المناسب – بين أطراف غرتهم الفطرسة، وابطرتهم النعمة ، وخدعتهم القوة ، ولعبت بعقولهم الاطماع ، وزين لهم الشيطان سوء عملهم ، وكما انكشف الغطاء عن حلفاء الامس تعرى الثالوث الجديد عن الاصباغ .

وفى تصوري ان الحملة الجديدة ليست الا نسخة طبق الاصل من سابقتها ، ولئن اختلفت عنها فى المظهر والزمان والمكان ، فهي تتفق فى الجوهر بدءا من الحدود الى آلاف الاميال التي فيها تطبخ المؤامرات ومنها تصدر الآليات ، وما يمكن ان يلاحظ بينهما من اختلاف فهو فى نوعية الاسلحة ، ومبررات التدخل ، وتغيير الاقنعة فى المناداة بشعارات لا صلة لها بالدفاع عن حق مهضوم ، وانما تخفي وراءها احلاما عريضة ، واحقادا دفينة ، واطماعا واضحة ، وتنكرا للعهود ، وردة فى المواثيق ، وتمردا على الاعراف الدولية .

وقد اتضح بالممارسة والمعايشة ان شعارات : الاخوة والوشائج وحسن الجوار ، ليست الا ستارا شفافا لذر الرماد فى أعين الشعوب ، ولا مجال لاقحامها فى قاموس لحمته وسداه ازهاق ارواح مسلمة قرر الحق سبحانه احكامه الصريحة والواضحة ضد مرتكبيها : « ومن يقتل مومنا متعمدا فجزاؤه : جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، واعد له عذابا عظيما » .

ولاشاز أيضا بين اهداف التكالب على المغرب فى حملة وادي المخازن والحلف الجديد الذي تفوح رائحته من قريب وبعيد ، والجانب الذي تختلف فيه الحملتان يتمثل فى التوتر المفتعل والمعزز بدعايات اعلامية واسعة وحملات مسعورة تضع خطوطها ضمائر حاقدة وترددها أبواق مأجورة يسيل لعابها لعائدات الذهب الاسود !

وهذه الحرب الباردة نفسها تنم عن الطابع البدائي فى ميدان حرب الاعصاب ، فالقائمون عليها والموجهون لها لا يعرفون الا الاتهامات الرخيصة ، ولا يتقنون الا السب والشتم والزور والبهتان ، بالاضافة الى دورانهم داخل حلقة مفرغة من الاكاذيب والاراجيف تنم عن عقم سياسي واضح ، وحالة هستيرية بلغت حدها الاقصى فى الهذيان .

ومن الملاحظ ان الاختلاف بين الحملتين لم يكن تخطيطا مقصودا ، وانما تاريخ الحملة الاولى لم تتوفر فيه المعطيات فيما يخص نوعية السلاح ووسائل الدعاية ، ولو توفر ذلك أثناء الحملة الاولى لكان التشابه اتم وأكمل .

النتائج العكسية :

ومن عناية الله ان شطحات الخصوم فى حملتهم الدعائية الهوجاء جاءت بنتائج عكسية لاحلامهم ، فكانت بمثابة حقنة جديدة لتصعيد الاجماع الشعبي على مواجهة العدوان ضد وحدتنا الترابية ، وتمتين أواصر التضامن الشامل والكامل بين العرش والشعب لمواجهة الموقف العدائي بحزم وعزم وتصميم .

والاخطاء فى عمليتهم الحسابية انهم يجهلون نفسية المغاربة فى عدم تأثرهم بالدعايات والتهريج مهما كان مصدرهما ، لتوفرهم اولا على حصافة الراي، ولتعلقهم بنظامهم الملكي تعلقا منقطع النظير ، ولوعيهم ثانيا بالاوضاع والاطماع المحيطة بهم .

ومن هذه الزوايا نؤكد ان حملاتهم الدعائية لا تقابل من المغاربة الا بالسخرية والاستهزاء ، ولا تزيدهم الا تماسكا والتحاما للدفاع عن وحدتهم التي بذل شهداؤنا دماءهم الزكية وارواحهم الغالية فى سبيلها ، واذا كان للصورة ان تهتز فهي صورة جبهتهم الداخلية التي لايخفى اهتزازها الا التسلط والسوط .

من هو أحق بتقرير المصير :

وكما أشرنا فان وطننا عرضة لتحالف يلتقي فى كثير من جوانبه مع حملة وادي المخازن ، كما يختلف عنها فى بعض المظاهر ، ومن هذا الاختلاف مسوح الرهبنة التي يرتديها القوم فيزعمون الدفاع عن المضطهدين ، ونصرة المظلومين ، والمطالبة بحق تقرير المصير ، مع العلم بان ثنايا تلك المسوح تستر أدوات الفتك ، وما تخفي صدورهم اكبر !

ولنقف امام الالحاح على « تقرير المصير » لنضع النقط على الحروف كما يقال ، وانه لمن العجب العجاب ان يطالب الادعياء بهذا الحق لغيرهم

في وقت تخضع شعوبهم لحكم فردي لا يسمح بحرية الصحافة وتعدد الاحزاب ، ولا يتساهل معها حتى في ابسط حقوق الكرامة الانسانية .

ولا نقصد بهذا التدخل في شؤون غيرنا الخاصة ، ولكن الذي نريد تاكيده هو انه اذا كان لاحد من حق في تقرير المصير فشعوب اولئك الادعياء المغلوبة على أمرها أجدر بممارسة هذا الحق الذي اهدروه ، اما غيرهم فقد قال كلمته الفاصلة واستعمل حقه الكامل ، ولم يبق في المستنقع الا من ينطبق عليه « الحرص على الامانة يدل على ... » .

نستخلص من كل هذا ان ملابسات الهجمة الجديدة على امتنا تتفق في مراميها مع مؤامرة وادي المخازن في عدة واجهات ، وتلتقيان بصورة اوضح في الهدف الاوحد وهو العدوان الصريح ، وان اختلفتا في الزمان والمكان والقناع .

النتيجــة واحــدة :

وبحكم هذا التشابه في الهــدف فالنتيجــة المنطقية لا بد وأن تكون هي الاخرى مطابقة ، وهي النصر الكامل للمغرب بحول الله ومدده الذي عليه نعتمد في الدفاع عن النفس .. « ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يحب كل خوان ، كفـور ، اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقديـر » .

وعلى رغم الخيوط التي تشد الحملتين وتجمع بين الهجمتين ، فاننا شعب مسالم ومتسامح ويكره الحرب ، ويود من اعماقه ان تزول أسباب التوتـر ويحكم العقل في سلوك لا يخدم المغرب العربـي ، والوحدة الافريقية ، والجامعة العربيـة ، والعالـم الاسلامي ، والسلم الدولي .

ابغـــض الحـــلال :

ولكنه في الوقت نفسه لا يسمح لاحد بالاعتداء على كيانه ، ومحاولة الانتقاص من اطرافه ، فللصبر حدوده ، وللاناة ظروفها ، وللحكمة ملابساتها ، بحيث اذا لم تنفع العوامل الاخلاقية ، ولم تجد المواقف الحكيمة في تصحيح المفاهيم الخاطئة ، فلا مناص من « تكتيك » يضع حدا لوضعية مرفوضة وطنيا واقليما ودوليا ، وهو اجراء بالنسبة الينا « ابغض الحلال » الا انه ليس من وضع البشر ، وانما جاء امرا ربانيا لمعالجة مثل هذا الوضع على الصعيد الاسلامي : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا ان الله مع المتقيـــن » .

رجاؤنــا في اللــه :

ورجاؤنا في الله ان يجنب منطقتنا صراعا لا يخدم مصلحة شعوبها ، وانما يستفيد منه اعداء الاسلام ، وسماسرة الحروب ، وتجار اسلحة الخراب والدمـار .

واملنا فيه سبحانه ان يراجع القوم تصرفاتهم ويحكموا العقل فيما يخدم المصالح الحقيقية لشعوب ودول المنطقة ، وفي جو الحوار النزيه يمتد الجسر للتفاهم في وضع حد لقطيعة لا يد للمغرب فيها ، وانما هي نتيجة مواقف رفضها المغرب القديم ولا يقبلها المغرب الجديد .

هذا هو اختيار المغرب المفضل ، وهو اختيار تمليه علينا آية الله الكريمة : « ادفع بالتي هي أحسن، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » ، وان لم يكن هو اختيار الجانب الآخر فليتحمل تبعاته ومسئولياته ونتائجه أمام الله والتاريخ .

محمد العربي الزكـاري

من وحي تخليد ذكرى وادي المخازن

تقوية الثغور

للاستاذ محمد حمادي العزيز

لعل من اهم الفوائد التي تقدمها الدراسات التاريخية للوطن ادامة التواصل المعنوي بين جميع الاجيال عبر جميع العصور اسهاما فى تكوين الضمير الوطني او الروح الوطنية للمواطنين وتدعيمهما لضمان الاستمرار الكياني للسيادة الوطنية فى مسار الزمن .

وتعتبر هذه الفائدة المهمة بحق نتيجة غائية عظيمة تقدمها الدراسات التاريخية للسيادة الوطنية ، وينبغي أن تتوخاها الكتابات الهادفة الجادة فى الحضارة الوطنية توخيا موضوعيا مكرسة لانجازها كل ما يمكن تكريسه من جهود .

واذا كان التعمق فى الدراسات التاريخية قد يمكن ان يؤدي الى الخروج منها بحكمة او فلسفة فان هذه الفائدة تعد فى صميم ما يمكن استخراجه .
ومن الاقوال التي تقال عن التاريخ هذا القول :

« التاريخ يعيد نفسه » :

و « التاريخ يعيد ـ او قد يعيد ، او قد لا يعيد ـ نفسه » هذه قضية فيها نظر ، وفيها نقاش يطول ، ويحتاج الى الادلة والبراهين من الاحداث التاريخية نفسها ، وبخاصة الاحداث التاريخية المقارنة ، لاثباتها وتأكيدها والتسليم بها ، وهي ليست موضوع هذا المقال الوجيز .

ولكن اذا وضعت بموازاة هذه القضية قضية اخرى مضمونها : ان المواطنين يريدون بعزم الا يعيد التاريخ نفسه ، وبخاصة فى احداث تعرض التراب الوطني لاخطار العدوان الخارجي وما يتبعه من هوان وخسائر وضحايا وانهزام واحتلال وتقسيم ، فان هذه القضية جديرة باهتمام والاعتبار ، وخليقة بالدرس والنظر والتفكير ، ومستحقة لكل تقدير وتكريس للجهد والاصرار .

وارادة المواطنين العازمين المصممين على الا يعيد التاريخ نفسه اعادة سيئة تندرج فى لب الضمير الوطني الذي تضطلع الدراسات التاريخية المعمقة الهادفة بسهم اصلي اساسي فى تكوينه وتهذيبه وتثقيفه .

والضمير ، كما هو معلوم ، موضوع اخلاقي يتناوله الدين وعلم النفس والفلسفة بالتوجيه والدرس والبحث ، ولهذا فهو موضوع معنوي (روحي) له صلة وثيقة بالايمان والعقيدة .

وعبر هذه الصلة يكتسب الضمير صفته الاخلاقية (المعنوية الروحية) التي تربطه وطنيا وتاريخيا بالله بواسطة حب الوطن مصداقا لقول رسول الله سيدنا محمد ص : « حب الاوطان من الايمان ... »

وكان مهمة الدراسات التاريخية المعمقة الهادفة الى استخراج استنتاجات معنوية غائية توضح العلاقة المعنوية الروحية بين الله وبين الانسان والمكان عبر الوطن وحبه وتوطدها ، وتمتنها فى اطار مقصدها لوضع قوانين علمية (نظريات) تحددها تحديدا .

ومن خلال هذه المهمة يبدو لنا دور التاريخ الحقيقي أسمى من دوره كمرشد وموجه ورقيب وخاصة عند ما يصبح مصدرا ومرجعا لنظريات وقوانين علمية مسلمة تؤثر تأثيرا ايجابيا في النضال او في الريادة أو في القيادة لمدى قرون واجيال .

وفي هذا الاطار يندرج هدف تخليد الذكريات والايام والمآثر الحاسمة في التاريخ الوطني .

ان تخليد الذكريات والايام والمآثر التاريخية ينبغي ان يقصد به الاتعاظ والتأمل والاعتبار قبل الابتهاج والفرح والافتخار ، والعمل بالمغزى المعنوي والسياسي والنضالي المفهوم والمستخلص منه لتلافي العودة السيئة للتاريخ او الوقوع فيها .

ومعركة « وادي المخازن » او معركة « الملوك الثلاثة » على سبيل المثال ، تستحق تخليدها لما فيها من عبر ودروس وعظات معنوية واجتماعية وسياسية وجهادية (نضالية) مهمة جدا ، يجدر بالقائمين بالدراسات التاريخية ايلاءها حقها وافيا من التقدير والاعتبار والاعتناء .

انها مرتبطة بالدفاع عن « الثغور » في سياستنا الوطنية قبل ان تكون مرتبطة بالدوافع الصليبية التي حفزت « البرتغال » للاقدام على غزو المغرب والتوغل داخل ترابه .

والدفاع عن « الثغور » كان قضية الساعة في السياسة الوطنية طيلة قرون ، وشرط اساسي من الشروط التي كان يجب أن يتضمنها برنامج اية حكومة من الحكومات .

فلو كانت « ثغورنا » حينذاك محصنة وقوية منيعة ، وبايدينا لا بايدي غيرنا ، لما حدثت معركة وادي المخازن ولا غيرها من المعارك .

ان « الثغور » اذا كانت محصنة تحصينا كافيا ومتوفرة على جميع ما تحتاج اليه في صمودها اثناء تعرضها لعدوان اى معتد خارجي فانها تستطيع ان ترد الهجومات .

وبالاضافة الى هذا يجب ألا يكون « الثغر » ـ اى ثغر ـ بعيدا عن « الثغور » والمدن المجاورة مسافات طويلة لكي يسهل التعاون الدفاعي بينها وتزداد مناعتها قوة ، اما اذا كان الثغر بعيدا فانه يكون شبه معزول ولذلك يختاره المعتدي هدفا عسكريا لاحتلاله العدواني .

وبناء على هذا اذا كانت « الثغور » ناقصة التحصين وبعيدة شبه منعزلة ، وواقعة في جهات ناقصة العمران والوعي الحضاري والثقافي فان صمودها ينقص ويقل ويضعف ، وتتعرض لاخطار المصائر المؤلمة السيئة وبخاصة اذا ركز عليها المعتدي الخارجي هجومه بشدة .

وهذه خلاصة تجربة دفاعية كانت الحرب فيها سجالا طيلة قرون عديدة كان اثناءها وطننا في مواجهات دائمة متتالية مع المعتدين المحتلين لثغورنا .

فالدرس الاول والمهم الذي تقدمه لنا معركة وادي المخازن هو وجوب تحصين كل ثغر من ثغورنا تحصينا كافيا وتجهيزه بكل ما يحتاج اليه لكي يدافع عن نفسه دفاعا ذاتيا مكانيا ومحليا (اقليميا) في اطار الدفاع الوطني الشامل ، وليقوى على الصمود صمودا ايجابيا طويلا اثناء مواجهته لاي عدوان خارجي .

وتحصين « ثغورنا » يبدأ باديء ذي بدء بادراجها في مخططات التنمية ، دون فرق او تمييز او استثناء بينها ، وبتزويدها بجميع المقومات الحضارية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، وبربطها بأجهزة الدفاع الوطني .

ان العدوان الخارجي لا يفرق بين « ثغورنا » ولا يعاملها بأي تمييز او استثناء .

وبالنسبة لعصرنا الحديث تعتبر افضل وسيلة للدفاع عن حوزة الوطن وبخاصة عن « الثغور » هي المؤسسات الثقافية والحضارية والاقتصادية والعمرانية والاجتماعية ، فحيث توجد هذه المؤسسات توجد اجهزة الدفاع الوطني .

ان الجزء الشمالي من ساحل المغرب على المحيط الاطلنطي بين طنجة والرباط ما يزال في حاجة الى التحصين والتقوية ، و « ثغورنا » الواقعة عليه تحتاج الى دفاع بحري متين يدعمه عمران ونمو ثقافي وحضاري واقتصادي واجتماعي مخطط باعتناء وببعد نظر وتفكير سديد يحدوه الاهتمام بالمستقبل .

فثغر اصيلة يحتاج الى تقوية وتوسيع وكذلك الشأن بالنسبة للعرائش ، كما ان تأسيس مركز بحري جديد بين العرائش والقنيطرة يعتبر تدبيرا دفاعيا بحريا ضروريا للتمكن من مراقبة الساحل مراقبة ايجابية جيدة .

وما يقال عن ثغري اصيلة والعرائش يمكن ان يقال كذلك عن ثغور القنيطرة وسلا والرباط .

فسلا والرباط يحتاجان الى ميناء مشترك ليتمكنا من الوفاء بالتزامات الدفاع البحري ، ومهما كانت الصعوبات فان التقنيات والصناعة الحديثة تسهل بناء الميناء المطلوب .

اين سلا الحديثة من سلا القرون الماضية التي كانت تبني فيها السفن المتنوعة ، ويصول بحارتها ويجولون فى خضم مياه البحار الزرقاء ؟

ان تغطية الجزء الشمالي من ساحلنا على المحيط الاطلنطي بموانىء قريبة متعددة الاختصاصات ومعدة لارساء وايواء خافرات السواحل تدعم الدفاع البحري الوطني ، وتساعد النمو الاقتصادي والرواج التجاري .

لقد حان الحين لتقييم المؤسسات الثقافية والحضارية والاقتصادية والعمرانية والاجتماعية تقييما حقيقيا ، وتقدير دورها الايجابي الفعال فى الدفاع الوطني باعتبارها العمق الاستراتيجي الاصلي الاساسي للدفاع عن « ثغورنا » الساحلية والبرية وعن مدننا الداخلية فى كل مكان من امكنة تراب الوطن .

وان غياب هذه المؤسسات وفقدانها فى اى مكان يعني ، دونما شك ، ضعف او عجز ذلك المكان عن اداء واجبه الدفاعي ونقص امكانات صموده وقصر مدته .

وبالنسبة للجهة الشمالية الغربية من المغرب التي حدثت فيها معركة وادي المخازن ينبغي ان يتضمن تحصين « ثغورنا » برنامجا ضخما وطويل المدى يشتمل على ما ياتي :

— توسيع وتقوية ثغور : اصيلة ، والعرائش والقنيطرة وسلا والرباط .

— تأسيس ثغر جديد (مركز بحري) بين العرائش والقنيطرة .

— اقامة مؤسسات اقتصادية متنوعة الاختصاصات الانتاجية تستهدف احداث الرواج والازدهار .

— تأسيس جامعة فى تطوان وجامعة فى القنيطرة وثانويات ومدارس فى المراكز والقرى فى اطار سياسة تعميم التعليم وتحقيق اجباريته وشموليته .

— تأسيس قرى نموذجية عصرية فى أمكنة مختارة تراعي فى تأسيسها متطلبات الدفاع عن الثغور .

— توجيه المواطنين الى أساليب الحياة الحديثة.

— نشر الوعي الوطني بجميع الوسائل وفى كل الظروف لاحداث تسييس راق .

— تنمية الوعي التعاوني للزيادة فى الانتاج والمردود والدخل وتدعيم الاقتصاد الوطني .

— تنمية الوعي بالذات فى كل مواطن لكي يشعر بكرامته وبدوره فى الحياة ، وبواجبه الوطني ليكون مستعدا دائما للدفاع عن التراب الوطني ، وليقوم بممارسة مواطنته ممارسة واعية .

وينبغي ان تراعى فى وضع البرنامج المذكور قدرة استيعاب الجهة الشمالية الغربية لحوالي 10 ملايين نسمة خلال سنوات قصيرة ، الامر الذي يجعل منها جهة آهلة بالسكان ومزدهرة ومتقدمة عمرانيا وحضاريا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا .

كانت معركة وادي المخازن معركة حاسمة بالنسبة للمغرب كله وان كانت قد وقعت فى الجهة الشمالية الغربية ولهذا فان ما يقال عن تنمية الجزء الشمالي من الساحل الاطلنطي وتقوية ثغوره يقال ايضا عن تنمية الجزء الاوسط منه الواقع بين الدار البيضاء واكادير ، وعن تنمية الجزء الجنوبي منه الواقع بين اكادير والحدود المغربية الموريتانية .

والدرس الثاني المهم جدا الذي تقدمه لنا معركة وادي المخازن هو : عدم التعاون مع العدو ، وانهاء التبعية او « العمالة » للخارج ، والالتزام بخدمة الوطن والدفاع عنه فى جميع الظروف وبخاصة عند ما يكون فى خطر .

والقضية التي يطرحها هذا الدرس جديرة بمناقشتها على جميع المستويات فى اطار توجيهي مبدئي اخلاقي وطني مندرج فى موضوع الضمير الوطني او الروح الوطنية ، وفى موضوع اعداد المواطن الوطني الصالح المستعد لممارسة مواطنة واعية مسؤولة وصالحة ، وهي تعد بحق قضية القضايا التي تستحق دراسات شاملة معمقة فى مجال الانسية المغربية .

والدروس التي تقدمها لنا معركة وادي المخازن عظيمة جدا ، وهي دائما جديدة رغم مـــرور اربعـــة قـــرون من الزمـــان .

انه ينبغي ان نفهم المعاني الصامتة الاخـــرى التي تكاد تنطق بها ، ولا شك انها تقول : ما دامـــت الهزيمة تجر وراءها الخزي والهوان والعار فان العمل الحازم الدائب من اجل احراز النصر واجب وطني مؤكد لانه يضمن العز والفخار !

ثم بعد هذا ما تزال قضية الثغرين المغربيـــن الاسيرين سبتة ومليلية تقدم التأكيدات الجازمـــة بقيمة تقوية ثغورنا .

م. ح. العزيز



قراءات في كتاب الملحمة الربانية

للأستاذ محمد المنتصر الريسوني

نمى مجد أرض هدى احمد   وزفه ربا لكل صدى
فباتت ضياء على الابد   تروي الربوع بفجر ندي

* * *

لقد كبر الحق في ارضنا   ونادى الى الذود عن ربعنا
فانه مغنى لسؤددنا   تأبى على خبث الاوغد

* * *

(سبستين) ارتاد دغل السدف   فساقه للحتف تيه التلف
واعلن اقدامه في صلف   تعني رؤاه منى الاصيد

* * *

(سبستين) القمر ساق الغسق   الى مجتلى عابق بالالق
علاه من الله ضاع ، ائتلق   عصي عصي على المعتدى

* * *

كتائب ربى أتت راعيه   حماه مجالدة سافيه
تكبر نشوة زاهية   تحرق للموقف الامجد

* * *

كتائب ربى هفت للردى   تناصر معبودها الاوحدا
فضجت بها شاسعات المدى   واملت على الكون فجر الغد

* * *

كتائب ربي لهيب الكدر   على المارقين ، ولفح الغير
ونعمى ترف كرف الزهر   يعانقها كل مستعبد

* * *

كتائب ربي مجلى الامل   على الدهر قتام (هبل)
تشق البحار ووعر القلل   تشيد مغاني السنا الاسعد

* * *

كتائب ربي رؤى خالدة   بعمق الزمان منى رائده
مآثر فخر لها شاهده   منار الحيارى على الابد

* * *

كتائب ربي سناء الامم   تذود عن الخلق كيد النقم
وتزرع فى الافق روح الشمم   ترد العدا عن هدى الصمد

* * *

(سبستين) قد مضى مدلجا   بعصف الخطايا ، عتا ودجا
طواه الردى فى ظلام الدجى   والفا والفا من الحشد

* * *

غدا حلم الكفر رهن الشجن   ب (وادي المخازن) نجوى الزمن
وفخر الوجود الوريق الفنن   يزف لنا نخوة السؤدد

* * *

لقد شهق الشرك منشعبا   تروعه عزمات الظبي
وصوت الجهاد يهيج الابا   واضحى الصليب بلا سند

* * *

بكى الكفر أيامه الطائشه   فاغرى بتيه على الفاحشه
فياذلة القيم الفابشه   ويا ذلة الخلق الانكد

* * *

أيا يوم (بدر) بساح الهلع   ب (وادي المخازن) سر طلع
شغلت الزمان بنصر سطع   خضيل بعز ، وبالرغد

* * *

أيا يوم (بدر) بحق طفح   بهدي الاله دعا وصدح
تنفس فيك الشذى فنفح   بصبح تالق بالمدد

* * *

أيا يوم (بدر) لنور غرس   بتيه الظلام وسطو الفلس
لانت من الله نفح قبس   يبلسل ضوءه فى الكبد

* * *

أيا يوم (بدر) لحبي حوى ودله نغش ، ففاح الهوى
وكل فخار سواه هوى وكل علاء به يهتدي

* * *

أيا يوم (بدر) بساح الوغى وصرخة حق على من بغى
أعد جولات على من طغى فلسطين تشدو سنا المعتدد

* * *

فلسطين تجلد وقد الاذى فباتت بجفن الخطوب قذى
وتنفح سوح الجهاد شذى يجالد حقدا ولا تجتدى

* * *

اعد جولات فليل سطا (فلبين) تنشد حلو العطا
اشاوشها سعروا سخطا ورعبا ، فطم على الانجد

* * *

اعد جولات فدرب زها بـ (ارتيريا) ما شكا أو وهى
فكيف يهي وهو ابن السهى يباركه الله فى المقصد

* * *

اعد جولات فغدر مضى بـ (شاد) تلظى ، سعى منتضى
والهب عزم الجهاد المضا ولاح ركاب السنا المنجد

* * *

اعد جولات ، اخى فى حلك تمزقه ظلمات الحسك
لقد ضجت الارض بالمنهتك وطال عليها ضنى الكمد

* * *

لقد جلد الارض سطو الجرب ودمرها عاصف من كرب
وارهقها لافح من صخب وسادت بها مثل الاصيد

* * *

متى تكسر الارض أغلالها وتخرج للناس اثقالها
يقول جبابرة ما لها يقال : روى الغي فى بدد

* * *

ولن ترتوي الارض من شوقها وقد ابحر القهر فى عمقها
تطلع دوما الى عتقها من القلق الكالح الكبد

* * *

سنحيا مناننا واعراسها ونجلو الغيوم واغلاسها
ونحرس للارض اجناسها لتمضي على جدد الرشد

* * *

سنولي القياد لاسلامنا   نخط الطريق لاحلامنا
يسوق مواكب انعامنا   نفجر خيرا من الجلمد

* * *

اذا حكم الوحي زال الصدا   وكبر الليالي ارعوى وانكفا
(بوادي المخازن) زال الصدا   وامست على الدهر فى خلد

تطوان : محمد المنتصر الريسوني

مع ذكريات انتصار وادي المخازن:

شواهد على قوة وثراء المغرب

من آثار الأشراف السعديين

للدكتور عثمان عثمان إسماعيل

من بين الذكريات التاريخية لكل امة ، تبرز احداث خاصة لتحتل مكان الخلود في حياة الشعوب والمجتمعات بعد ان تترك بصماتها في سجل الحضارات ... كما كان الحال بالنسبة لفتح مكة ومواقع اليرموك والقادسية ثم فتح الاسلام لمدينة القيروان ، ونجاح دعوة المولى ادريس بمدينة زرهون وانتصارات الزلاقة والارك .

ويكفي الباحث النظر في نتائج بعض الاحداث التاريخية لرؤية مداها البعيد وتاثيرها الذي لا يبلغه تقدير شان موقعة عين جالوت التي اذاق فيها المصريون طعم الهزيمة للتتار لاول مرة منذ ان خرجوا من ديارهم بشرقي آسيا يحطمون العروش ويسقطون الخلافات ويدوسون الحضارة وينتهكون الحرمات . لقد استعاض المماليك بذلك النصر عن نسبهم المفقود وثبتوا سلطانهم بمصر على اثر نجدتهم للاسلام وانقاذهم حضارة العالم المعمور من الخطر الكاسح الذي لم تقف امامه قوة في الارض .

وعلى هذا الاساس ، فان المؤرخين الاوروبيين يصفون امثال تلك المواقع (الفاصلة في حياة البشر) بعلامات الاميال التي تضيء على جنبات الطريق لتوضح للعابرين مبلغ ما قطعوه من المسيرة التاريخية وتفصح عن معالم الطريق نحو المستقبل ، والامثلة على ذلك كثيرة ...

فان عودة المولى المقدس صاحب الجلالة سيدي محمد الخامس طيب الله ثراه من المنفى مع شريك الكفاح مولاي الحسن ولي عهده آنذاك واسرته الكريمة ، لم تدخل التاريخ مع الاحداث الفردية التي تتعلق بمصائر الافراد ، وانما كان ذلك تحريرا لحاضر الامة واستقلالا لمستقبلها الذي احدث تغييرات حضارية شاهدناها في اقل من ربع قرن دون ان تبلغ شاوها امم اخرى في عدة قرون ، الامر الذي يشهد به مكان المغرب المرموق دوليا ، ووضعه الاقتصادي المتطور ، وحياته النيابية المثالية ، وحريات مواطنيه المكفولة بالداخل والخارج .

كما ان حدث المسيرة الخضراء الذي عشناه وشاركنا فيه ، سوف لا يعتبر مطلقا في نظر التاريخ مجرد انتفاضة قائد واستجابة شعب ، بقدر ما يفسر للاجيال القادمة عبقرية امير المؤمنين الحسن الثاني مفخرة الدولة العلوية وميراث الشعب المغربي بكل وزنه الحضاري وثقله الفكري والمادي ، الامر الذي تتضح آثاره البعيدة مع الزمن سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، بل ومن حيث العقيدة؟ ذلك .

وهكذا ، فان موقعة وادي المخازن كانت احدى المواقع الفاصلة في تاريخ الاسلام العام بحيث لا يقتصر خطرها على مستقبل الغرب الاسلامي وحده او القطر المغربي بصفة خاصة ، بقدر ما يتعلق ذلك

بمستقبل العروبة والاسلام فى نطاق الصراع الابدي بين الاسلام والنصرانية ثم بين الحضارة والنظم العربية وبين الحضارة والنظم الاوروبية .

ان امعان النظر فى طبيعة الصراع الابدي بين الاسلام وحضارته ونظمه وبين المسيحية وحضارتها ونظمها ، ووضع ذلك موضع الاعتبار عند تقييم نتائج واقعة وادي المخازن بالنسبة لحياة دولة الاشراف السعديين ، وحاضر المغرب ومستقبله ، ومصير الجناح الغربي للاسلام ، وانعكاس ذلك على حاضر ومستقبل المشرق الاسلامي ... ليعطي الدليل الكافي على ضرورة تعدد جوانب البحث ، وتفرع وسائل الاستقصاء ، وتنوع اساليب الاستقراء ... وصولا الى القيمة الحقيقية لنتائج وابعاد معركة وادي المخازن .

على ان التاريخ يعلمنا ان الاحداث الكبرى فى حياة الامم والشعوب لا تصدر عن فراغ على الرغم من اصرار المستشرقين على افهامنا اننا نحرث فى البحر واننا ننبعث من فراغ .

ان المغرب على عصر الاشراف السعديين لم يكن مطلقا ليحقق ذلك النصر العسكري والحضاري والعقائدي لو لم تتوفر لديه المقدرة المعنوية ، ووسائل القوة والمنعة العسكرية ، ومختلف الامكانيات المادية ، لخوض معركة عالمية كمعركة وادي المخازن.

ان ادلة وشواهد القوة والثراء فى المغرب على عصر السعديين لجديرة اذن بالدرس والبحث لتكشف للجاحدين والمتجاهلين على السواء ان الامة المغربية لم تتعود على انتصارات تأتي بها الصدفة او تجيء بها ظروف خارجية ... وهو امر واقع عشناه مع انتصارات المسيرة الخضراء بكل خلفياتها الايجابية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا .

وقد اردت بمناسبة هذه الذكرى المجيدة ان اقدم بعض الشواهد على قوة وثراء المغرب من بين آثار الاشراف السعديين انتقيتها من دراستي للنقوش العربية على السلاح الثقيل ثم العملة المغربية التي شاع ضربها من الذهب مع زيادة وزنها ابتداء من حياة المنصور السعدي وندرة ما ضرب منها من الفضة او البرونز دليل ثراء المغرب وتطوره الاقتصادي .

(اولا) ثلاثة نقوش عربية على السلاح الثقيل

توفرت القوة الضاربة ايام السعديين على عدد وافر من وسائل الحرب والمدافع والسلاح الثقيل تحتفظ بها عدة مواقع ومتاحف مغربية الى اليوم . وقد درست ثلاثة نماذج منها ، احدها بمدينة آسفي وهو عبارة عن مدفعين شقيقين ، والآخران بدار السلاح ببرج الشمال بمدينة فاس .

1 — نقش مدفعي مولاي زيدان بمدينة آسفي :

يحتفظ مدخل القشلا بمدينة آسفي الى اليوم بنموذجين متماثلين من المدافع الحربية يتفقان صناعة ومادة وزخرفة ويحملان تاريخ الصنع من سنة 1033 م .

وابتداء من القاعدة الخلفية تبدا المناطق الزخرفية فى كل من المدفعين بنص اوروبي بالحروف اللاتينية ثم منطقة مربعة متميزة باطار زخرفي تتضمن نصا تاريخيا باسم السلطان مولاي زيدان ، ويلي ذلك مقبضان على جانبي البدن ثم منطقة زخرفية رئيسية تتوسطها زهرية تتفرع منها الاغصان والورود بين منحوتات من الرسوم الآدمية فى النحاس مما يذكر بشجرة الحياة القديمة فى الفن الايراني التي كانت تتوسط العناصر الزخرفية ، ثم نرى بعد ذلك تعريشة نخلية تعقبها مساحة طويلة ملساء تنتهي بتعريشة نخلية اخرى مماثلة ثم زخرفة نباتية تدور بفوهة المدفع .

اما النص التاريخي الذي قراته فوق كل من المدفعين فهو عبارة عن نقش عربي فى ثلاثة اسطر بالخط النسخي الجميل فى المساحة المحددة آنفا وهذا نصه :

السطر الاول : امر بعمله عبد الله امير المؤمنين مولانا زيدان المظفر بالله .

السطر الثاني : ابن امير المؤمنين احمد بن امير المؤمنين مولانا محمد الشيخ ايده الله.

السطر الثالث : سنة 1033

وكان النقش الاوربي الذي قراته جهة قاعدة المدفع كما يلي :

Willem. Wegwaert - ME - Fecithagae

2 ـ النقش الثاني : نقش مدفع الغالب بالله بدار السلاح بفاس :

والمثال الاول بفاس عبارة عن مدفع ضخم يبلغ وزنه اثني عشر طنا من النحاس نقشت عليه ثلاثة نصوص عربية بالخط النسخي البارز في منطقة مقسمة الى ثلاثة اشكال هندسية (شكل 1 و 2) .

وتتصدر المنطقة المكتوبة دائرة تشتمل على النص الرئيسي الذي يسجل الاسم والتاريخ . وقد نقش اعلى الدائرة مستطيل يشمل على كلمتين فقط ، بينما نقش داخل مستطيل آخر اكبر مساحة من الاول ويقع اسفل الدائرة اسم الصانع (شكل رقم 3)

ونقرا الآن النقش من اعلى الى اسفل :

داخل المستطيل العلوي في سطر واحد (القوة بالله) .

وتشتمل الدائرة على ثمانية أسطر على النحو التالي

1 ـ امر بعمل هذا .

2 ـ النفط السعيد ان شاء الله

3 ـ عمله أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب

4 ـ العالمين ابو محمد عبد الله الغالب بالله بن امير

5 ـ المؤمنين أبي عبد الله محمد الشيخ الشريف

6 ـ الحسني أيده الله ونصره (....) يوم من

7 ـ محرم عام ستوسبعين

8 ـ وتسع مائة .

واخيرا بداخل المستطيل السفلي في سطر واحد (صانعه الحاج أحمد الغمق) .

ملاحظاتنا على النقش :

اولا : صنع النقش بطريقة الحفر البارز بخط نسخي مغربي جميل وقد تضمن في صراحة اسم التحفة المصنوعة (النفط) وهي مسألة جديرة بالملاحظة لتحديد المصطلح الذي اطلقه السعديون على مثل ذلك الانتاج .

ثانيا : يتضمن النقش لقب امير المؤمنين الذي احتفظ به الاشراف السعديون ، ولهذه المسألة وجه آخر تتضح اهميته عند دراسة تاريخ وتطور الالقاب في دول المغرب الاقصى .

ثالثا : ان لقب (المجاهد في سبيل رب العالمين) الذي كان الاستعمال أيام المرينيين لا زال يستعمل في عصر الدولة السعدية .

رابعا : يتضمن النقش اسم سلطان السعديين الذي امر بصنع النفط مع القابه وكنيته فهو (ابو محمد عبد الله الغالب بالله بن امير المؤمنين ابي عبد الله محمد الشيخ) .

خامسا : يتضمن النقش في صراحة نسب الاشراف السعديين (الشريف الحسني) .

سادسا : اما نقش تاريخ الصنع فقد جاء غامض الكتابة حيث اشرك النقاش كلمة (ست) مع الكلمة التالية (سبعين) كما أنه اهمل جميع نقط الكلمة التالية فجاء التاريخ غامضا لامكان قراءته (ست وسبعين) أو (ست وتسعين) .

وعلى الرغم من هذا ، فلم يكن من الصعب تحديد القراءة الصحيحة فسيرة الغالب (1) بالله مدونة دون لبث وقد بويع سنة 965 هجرية وتوفى سنة 981 (2) هجرية . وبهذا تستبعد قراءة (ست وتسعين) وتكون القراءة الصحيحة وتاريخ الامر بعمل هذا النفط هو سنة ست وسبعين وتسع مائة .

سابعا : أن اشتمال النقش على اسم الصانع (الحاج احمد الغمق) يفتح بابا الى دراسة تاريخ الرجل وانتاجه ومعرفة خصائص مدرسته ومميزاتها.

3 ـ النقش الثالث : نقش مدفع الوليد بن زيدان بدار السلاح بفاس :

وكان المثال الثاني الذي درسناه ببرج الشمال بمدينة فاس عبارة عن مدفع من النحاس أقل حجما

---

(1) الاستقصا ج 5 ص 38 .

(2) نفس المصدر ص 52 .

من المدفع السابق وقد تضمن نقشا تاريخيا من خمسة اسطر داخل دائرة وقد كتب بالخط النسخي المغربي على النحو التالي :

1 ـ الله أكبر
2 ـ امر بعمله عبد الله تعالى الوليد
3 ـ امير المؤمنين بن زيدان امير المؤمنين
4 ـ الشريف الحسني أيده الله ونصره
5 ـ سنة اربع واربعين والف .

ويتضح من النص استمرار لقب امير المؤمنين الى لواخر الدولة السعدية ، فعندما توفى السلطان زيدان سنة 1037 هجرية بويع بعده ابنه عبد الملك وثار عليه اخوه الوليد واحمد (3) الى ان قتل السلطان عبد الملك بن زيدان سنة 1040 (4) بمراكش وبويع اخوه امير المؤمنين ابو يزيد الوليد بن امير المؤمنين(5) زيدان الذي استمر في الحكم الى ان قتل بمراكش سنة 1045 (6) . وقد امر الوليد بن زيدان بصنع المدفع المذكور سنة 1044 قبل مقتله بعام واحد .

(ثانيا) عملة الاشراف السعديين

(1) العملة الذهبية :

نستطيع بادىء ذي بدء أن نميز مرحلتين هامتين في عملة الاشراف السعديين الذهبية من حيث النصوص والنقوش العربية المضروبة عليها .

فمنذ ما قبل عام 992 هـ (1584 م) وفي بداية حكم المنصور الذهبي لم تكن العملة الذهبية تحتوي على نصوص قرءانية ، وكان يكتب على احد الوجهتين :

(بسم الله الرحمن الرحيم عن امر عبد الله) وبعدها الاسم واللقب .

وفي الطوق وهو دائرة الوجه يكتب (عملت ب ...) ثم اسم المصنع .

كما كان يكتب على الوجه الآخر اسم والد الامير الحاكم ولقبه ، وفي محيط الدائرة يكتب التاريخ بالحروف ونادرا ما يكون بالارقام الفارسية .

ولكننا ابتداء من عام 992 هـ نلاحظ في النقش المستدير كتابة سورة من القرءان الكريم بينما استبدلت عبارة (عملت ب ...) في الوجه الآخر بعبارة اخرى وهي (ضرب بحضرة ...) ثم اسم (7) المصنع .

ولوفرة عملة السعديين الذهبية امكن استخلاص القاب ملوكهم من عملتهم كما يلي (شكل 4) :

ابو عبد الله محمد الثاني المهدي :
مولانا امير المسلمين الشريف الحسني .

ابو محمد عبد الله الاول الغالب بالله :
امير المؤمنين ابن امير المؤمنين الشريف الحسني .

ابو عبد الله محمد الثاني :
المتوكل على الله امير المسلمين .

ابو العباس احمد المنصور (الذهبي) :
امير المؤمنين ابن الخليفة الامام محمد الشيخ المهدي .

ابو فارس : الواثق بالله ابن الامام ابو العباس امير المؤمنين الشريف النبوي .

محمد الشيخ المامون :
امير المؤمنين ابن الخلفاء الراشدين .

ابو المعالي زيدان :
السلطان الملك الناصر امير المؤمنين الفاطمي ابن السلطان احمد ابن السلطان محمد .

(الثائر المحلي) ابو العباس احمد :
الفاطمي خليفة الله .

كما وجدت القاب اخرى ورد ذكرها بالقطع المنشورة في كتاب بريت J. D Brethes

(3) الاستقصا ج 6 ص 72 .
(4) نفس المصدر ص 77 .
(5) نفس المصدر ص 78 .
(6) نفس المصدر ص 82 .
(7) J.D. Brethes: Constribution l'Histoire du Maroc par les recherches Numismatique P. 196 - 197

وكان وزن عملة السعديين الذهبية ما بين عام 965 هـ (1157 م) وحوالي عام 986 هـ (1578 م) أوائل حكم ابي العباس احمد المنصور الذهبي لم يبلغ مطلقا أربعة جرامات ، ولكنه ابتداء من ذلك التاريخ بلغ 4.44 جراما .

(2) العملـــــة الفضيــــــة :

نادرا ما ضربت تلك العملة بصفة استثنائية ايام

(8) نـــفس المصـــدر ص. 196
(9) نـــفس المصـــدر ص. 197 .

ابي فارس الواثق بالله والناصر زيدان وكانت ايـام ابي فارس تزن 18.55 جراما وبلـغ قطرهـا 36 مليمترا ، اما المنسوبة الى زيـدان فتـزن ما بين 26.30 و 27.54 جراما بقطر من 35 الى 36 مليمترا وهي نادرة الوجود ، كما أنه من العسير العثور على عملة برنزية من عصر السعديين .

دكتور عثمان عثمان اسماعيل

ذكرى وادي المخازن

للأستاذ محمد محمد العلمي

من وحي انتصارنا في القصر الكبير على البرتغاليين (4 غشت 1578) في معركة وادي المخازن . تلك يقظة الوطن ، في رد الفعل الديني . والذكرى انهاض للهمم ، وشحذ للعزائـم .

بلاد العـز اعلنـت الجهـادا ، على الباغيـن تتحـد اتحـادا
ومعركة المصيـر اجـل مـن ان يصـد جنودهـا ظلـم تمـادى
كمـا كنـا بماضينـا ليوثـا ، نظـل اليـوم آسادا شـدادا
فيزداد اتحـاد الشمـل قربـا ، ويزداد العـدى عنـا ابتعـادا
فمـا منـا قعيـد أو جبـان ، فان الحـر للجلـى ينـادى
وللقرءان صوت حيـن يدعـو ، نلبي الامـر جمعـا أو فـرادى
ندافع عن حمـى الاسلام طـرا ، ونرعى امـة تسمـو اعتقـادا
يعلمنا الفـداء سبيـل نصـر مبين ، فيـه نجتهـد اجتهـادا
فمن حركاتنا التاريـخ يزهـو ، ويوري مـن عزيمتنـا زنـادا
والاستعمار عنـا قـد تنـاءى ، وان الـف التسلـط والعنـادا
ونفس البرتغال تشيـب هـولا ، وقد فقـد اللياقـة والرشـادا
وفي وادي المخازن نحن صلنـا بمعركـة بهـا نلنـا المـرادا
وقد طهرت شواطئنـا ، فليـت للاستعمـار تنقـاد القيـادا
مدى الاجيال لا نرضى دخيـلا ، وقد عاقـت مآقينـا الرقـادا
ومن امجادنـا نـروي حشانـا ، فيـزداد الابـاء هنـا ازديـادا
وان بلادنـا كانـت وتبقـى لمـن يرعـون ذمتهـا ، مهـادا
هو التاريخ يحيـا كـل حيـن ، فكـم ذكـرى لامتنـا اعـادا !
ونحـن هنـا كأجـداد كـرام نظـل لذلـك النـور امتـدادا

وللصحراء يوم ، أي يوم ! ... قد احتشد الجميع له احتشادا !
خفي التقسيم ثالثة الاثافي ، ... والاستفتاء أشنع ما يعادى
وفى الارهاب لا يرتاح بال ... على وطن بمهجتنا يفادى
ومن يزرع بذورا من رياح، ... ففي الاعصار قد وجد الحصادا
ومن شاد القصور على رمال ، ... اضاع الزاد ، اذ خسر المعادا
وحق المغرب الاقصى صريح ، ... ولو اخفاه من فقد المدادا!
ففي تاريخنا اقوى دليل ، ... عليه الحق يستند استنادا
ومذ كنا ، وقام لنا كيان ، ... مدى الازمان ، نأبى الاضطهادا
وهذا الشعب حين يهيب زحفا ، ... يحطم فى مسيرته القتادا!
فلم يكن الدخيل على هواه ، ... ليزدرد الطبيعة والعبادا !
ولكن فاته منا صمود ، ... ففي صحرائنا لم يلق زادا ...
فلا التضليل يجديه فتيلا ، ... وان قطع المفاور والوهادا
ففي التوحيد عصمتنا جميعا، ... ونار الكفر تحتد احتدادا
وفى قلب (الرباط) يرف شوق ... وحب (للعيون) به اشادا
فوحدتنا ضمان حول عرش ، ... عليه الشعب يعتمد اعتمادا
أرى الدخلاء فيما قد دهاهم ... على اطماعهم لبسوا الحدادا
فلا الفوسفاط ينفعهم ، ولا هم ... اطاقوا اليوم بأسا او جلادا
ولكنا بهمتنا نباهي ، ... ومنا الخصم يرتعد ارتعادا
فسل عنا اصالتنا ، فلسنا ... عن التوحيد نرتد ارتدادا
وما نمنا على ضيم ، ولكن ... عشقنا فى مطالبنا السهادا
وللاسياد تصميم ، فما هم ... على ما صمموا اقتعدوا اقتعادا
وللاسبان فى الجار اتعاظ ، ... فان الكون أشبعه انتقادا!
وان مناهج الاقطاع ولت ، ... وصادت من يريد بها اصطيادا!
حذار ! فغضبة البركان ترمي ... جمارا تترك الاعدا رمادا
حذار ! فليس فى الامر اختيار ، ... وان الشعب يتقد اتقادا
وليس الحر اذ يلقى نفادا ، ... كغاصب ارضه يلقى نفاذا
فما خاب الذي يسعى لحق ، ... وان الحق يفتقد افتقادا
وان الشعب بالعرش المفدى ، ... وبالاسلام يعتد اعتدادا!
ففيه الحصن ان طغت العوادي ، ... وصار الهول يشتد اشتدادا
وللحسن العظيم طموح حر ، ... لقد عاف التعفن والفسادا

يصون مصيرنا دينا ودنيا ، وانماء ، وجدا ، واقتصادا
يريد القمة الشماء دوما ، وفى الاصلاح يجتهد اجتهادا
لقد فاق الملوك بكل عصر ، ثباتا ، واقتدارا ، واتئادا
له خطب لقد أحيت مواتا ، وبالايمان حركت الجمادا
فقد كان الطليعة فى كفاح ، وللتحرير سباقا ، جوادا
له بقلوبنا عرش مكين ، ومن ابصارنا احتل السوادا
أفاد المغرب الاقصى ، وأرضى بما يسعى له منا الفؤادا
جزاه الله خيرا حيث أدى أمانته ، وقد بعث البلادا
لدين الله جندنا جميعا ، وقد طبع الوفاء له ارتيادا
وحول العرش ، هذا الشعب يسعى لنصر ، حين يتحد اتحادا

الرباط : محمد بن محمد العلمي

في أعين القصر الكبير

للشاعر الأستاذ محمد البوعناني

في أعيـــن القصـــر الكبيـــر
مفاتن الاعـــراس والحـــب الكبيـــر !
مدينة تملك ماضينا بلا سحر ، ولا لغز ولا اسرار

* * *

شربـــت مـــن احداقهـــا
حلم السماوات ... وخمرة الغيوب !
عانقتها : اجنحة ... الوبة ! ...
مراوحا تذوب في قوس قزح ؛
الطفل مسحور بها بين الدروب
بظله يوزع الذكرى على مستقبل ...
يكره الالتفـــات ، يكتـــم الفـــرح .

* * *

باللـــه يا بـــن (طـــارق) ...
اما تزال امك العذراء في اشبيليـــة ؟
اما يزال مهرهـــا المكنـــوز تحت السارية
عند الكنيسة التي كانت بامس جامعا اسلامية ؟

* * *

وقرطبـــة ! ...
تخفي عيوبنا ... وكم لنا عيوب !

تهيب بابن تاشفيـــن أن يكفـــر
عن الكـــرام بالزلاقـــة !
ويفتـــل الاوتـــار
يخنـــق بهـــا اعاديـــه !
فكيف صار جبل الفتح ضريبة سقوط ووداع ؟
ونستحي من اسمه كسبة الاقدار
كالبسمة السوداء في فم الاسير !
كزمـــن بـــلا ربيـــع !

* * *

اذا تخلت أنجـــم عن ليلنـــا
فان قبة السماء في جبيننا تضيع ؛
وقبة السماء في جبيننا براقـــة
مصقولة ... بلا قشور ... وتـــذوب !
خلال كل رمشة ورمشة : الف شراع !
مد بها المنصور كفه الى صلاح الدين
الـــى ديـــار المسلميـــن !

* * *

يا شطنا المصلـــوب في لشبونـــه !
ويا سفينـــــــــة ! ...
تبيع وجهنا تقصد برشلونه !
تنوء بالذهبان ، والحرير ، والتوابل !

منافــــذ الاقمـــار
شائكـــة ... مدميــة المساري
محـــذورة
حتى على توسلات الامهـــات !
فلا يد ممدودة الى كسيـــح
ولا ايماءة صـــلاة ،
ولا فـــم رد الســـلام !
يلطف القول ، يشع بابتسام !
جفت مآقينا ، وكانت رطبة السنابـــل ؛
فالثـــوم والبصـــل
لا يدمعان أعين الصغـــار
واصبـــح العســـل
مرا على ألسنة الكبـــار ،
والنهد غائر التجاعيد ! ... مشبك العروق
كجيفـــة على الطريـــق ! ...
ينتحر المعنى بدون كلمـــات !
في صدر كل طفلـــة تميمـــة الحـــرام
ترقصهـــا
قيثـــارة مفسوخـــة الاوتـــار !

* * *

يا شطنا ـ (والمتوكل) العميل ...
والضميـــر ! ... والكيـــان ! ...
يقبـــل التـــرب
يقـــل يـــدي (سباستيان) ! ...
ينثر زهرنا ، وقمحنا ، وزيتنـــا عليـــه ! ...
يا شطنـــا السليـــب
ـ والقصـــر الكبيـــر واقـــف
بـــلا وراء وبميـــن ! ...
يستنهـــض الصخـــور
والنســـور ،
والقبـــور ،
في ركـــب الجهـــاد !
بجيب (عبد المالك) الامير
يطوي الليل والاهوال تحت قدميه !
وهكذا ينطلق الشمال والجنوب والشرق
الـــى غـــرب البـــلا .

* * *

حيـــال هـــذه الديـــار
تلتقي ملاحم الابطال بالحق المبين .

فـــلا رجـــال ونســـاء
ولا كبيـــر وصغيـــر
الكل في قلـــب المعـــارك سواء
الكل في حرب الصليبية والظلم سواء !
ولم تكن في ساحـــة الحرب ضيـــوف
وانمـــا الاسيـــاد ! ...
تسترد موجنا الى أميـــرة السواحـــل !

* * *

ونقش التاريخ كيف لا يبالي المغرب الصبار
بالجيش الاوربـــي الغزيـــر ،
وكيـــف تربـــح العمائـــم الحـــروب !
ومثلمـــا
ابصرتـــه في اعيـــن القصـــر الكبيـــر
يطلع شمس الخلد من رموشها الحريريـــة
يغسل في (وادي المخازن) يديـــه
أبصرتـــه
والرمح في قبضة (اسماعيل) يثقب الفضاء !
على رؤوس الدخـــلاء ...
لتسقط اللعنـــة فـــوق وجههـــم ...
وتنتهـــي التمثيليـــة !

* * *

يا مغربـــا
غسل في وادي المخازن يديـــه
مخالب الاعداء قصها شبابك الطويـــل !
فكـــل اسرة يضمها الجهـــاد :
باقـــة من السيـــوف ! ...
من البنـــادق مـــن القنابـــل !
وفي صباح السلم نحن الورد والريـــان
والقبلـــة ، واللحـــن الجميـــل !
نحن وســـام الله للاعيـــاد ...
والمرجـــان للاصـــداف ...
والافكـــار في بحـــر العقـــول !
فذلك الفلاح من ذاك البطـــل ،
وذلك الطالب من ذاك الشهيـــد ،
امهمـــا سيـــدة الارامـــل !

* * *

تحيتي الى الرفاق كابتسامـــة وليـــد
لونتهـــا

بافق الصحراء ساعة الغروب !
عطرتها
بصرخة اللاجىء في جنوب لبنان الوئيد !
وفي فلسطين تعلمت البكاء
ما كان ينفع البكاء !
وانما ابكي ... فلا اموت موتة الخجل !

* * *

تحيتي الى الرفاق في مدينة القطوف
والحروف !
تحيتي الى المهاجرين بالكلمة السجينة !
تحيتي الى المعذبين بالصمت المريع !
تحيتي الى المطلين بخوف وحياء !
الى المدافعين عن لقيتنا ... بالكلمات والقصيد

اليكم ...
يقف قلبي ويطير في الحقول
تغزل مهجتي
أشعة الامل !
تمسح انفاسي دروب الصبر والاعذار
تنفض اشفاري
غبار الشك عن وسادة القيثار !
ومثلما
ينجذب الليل الى النهار
ومثلما تبتهج الانجم بالسمار
رفعت موالي الى القصر الكبير
مدينة الحب الكبير .

محمد البوعناني



للأستاذ محمد بن احمد اشماعو

اصدر الاستاذ الاديب السيد محمد بن أحمد اشماعو رواية تاريخية مهمة عن معركة وادي المخازن العظيمة اختار لها عنوان المعركة الكبرى ، وذلك ضمن مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر بالرباط .

وتتضمن الرواية الفصول التاليـة :

1 ـ مراكش مدينة الاندلس ـ 2 حملة الاخبار والاسرار ـ 3 ـ استراق السمع 4 ـ هدوء مراكش يتعكر ـ 5 ـ الى أرض المعركة ـ 6 ـ الاستنفار العام ـ 7 ـ نصيحة الشيطان ـ 8 ـ حديث الضمير ـ 9 ـ تسلل الافعى ـ 10 ـ قائد المعركة يترنح ـ 11 ـ الالتحام الدامي ـ 12 ـ افتضاح المتآمرين ـ 13 ـ نهاية الملوك ـ 14 ـ اشراقه يـوم جديـد .

أما أشخاص الرواية فهـم :

(عبد الملك السعدي) : الخليفة أمير المومنين (أحمد السعدي) : نائب الخليفة بفاس ـ (محمد المتوكل) : المطالب بالعرش السعدي والمتعاون مع البرتغال ـ (سحابة رحمانية) : أم الخليفة عبد الملك ـ (سبستيان) : ملك البرتغال ، قائد الحملة على المغرب ـ (أبو علي القوري) (محمد بوطيبة) (علي ابن موسى) (الحسين العلاج) قادة الجيش السعدي ـ (جيهان وصفي) : فتاة تركية من حاشية أم الخليفة ـ (الفقيه الحسن الشامي) : مقيم بقصر الخلافة ـ (رضوان) : الخادم الخاص بالخليفة ـ (خوان ايمانوس) : أديب وفيلسوف برتغالي ، مشارك في الحملة .

وقد قدم لها الدكتور محمد حجي بالكلمة التالية :

« في اطار الاحتفال العام الذي يحيي به المغرب في هذا العام ذكرى مرور أربعمائة سنة على معركة وادي المخازن العظيمة التي وضعت حدا للتدخل البرتغالي في المغرب بعد احتلال واستلاب وانتهاك دام زهاء قرنين ، يسعد دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ان تسهم باصدار رواية المعركة الكبرى كحلقة أولى في سلسلة القصص التاريخية الجديدة.

ومؤلف الرواية الاستاذ محمد اشماعو من المتعاطين لهذا النوع الطريف من التأليف القصصي منذ أزيد من عشرين سنة خلت . وأذكر أنني عندما كنت أطبع كتاب الزاوية الدلائية بالمطبعة الوطنية بالرباط سنة 1964 ، قرأت فصولا من مجموعته القصصية الاولى قدر العدس التي طبعت ذات الوقت في نفس المطبعة ونالت استحسان النقاد المغاربة والمشارقة الذين كتبوا عنها .

الرباط في 27 جمادى الاولى 1398
5 مـاي 1978
محمد حجي »

ويسرنا أن ننشر في هذا العدد الخاص بمعركة وادي المخازن المجيدة الفصل الثاني من هذه الرواية « حملـة الاخبـار والاسرار » :

ادهش السائسين كلهم – فى هذا الصباح – وجود جياد مربوطة ما تزال جنوبها تعلو وتنخفض ، وخياشيمها تخرج زفرات متقطعة ، ومن شدة انهاكها ان لم تقو على اكل العلف المقدم اليها ، ولو كانت من ذوات الاظلاف لنزلت بأجسامها الثقيلة على الارض واستراحت ، ولكن راحتها فى وقوفها مهما طال الوقت ! ولم يكن هناك من احد يستطيع أن يفيد السائسين الفضوليين بشيء ، ولذلك اشتعلت عندهم غريزة الفضول واحتدت ، ولو استطاعوا لاستنطقوا البهائم العجمى ، عما عندها من اخبار واسرار ، ولكن عيون الدواب على كبرها واتساعها ، لا تنبىء عن شيء مطلقا ، سكوت عميق وتبلد مطبق ...

وبدات – مع ذلك – الاستنتاجات : يظهر أن القادمين طووا المراحل – التي هي طويلة ولا شك – ليصلوا الى مراكش ، وهم لم يتريثوا حتى يطلع النهار ، بل انهم بادروا الى الدخول على الخليفة . قطعا ان فى المسألة سرا خطيرا ، وهم لم يعملوا على الاتصال بالحاجب او صاحب الشرطة اولا ، لييسر لهم مقابلة الامير ، بل دخلوا توا ، مما يدل على انهم فى صحبة احد رجالات القصر المقربين ، الذين لا يحول حائل دون دخولهم أو اتصالاتهم ...

ان جدران القصر العالية الصامتة العبوس تخفي من ورائها سرا عظيما ، سينكشف بعد قليل ، وسيعرف من ملامح الحاجب أو الوزراء عندما يظهرون وسيستنتج من خلال مقتطفات الحديث الذي يكون احدهم بصدد تكميلة للآخر ، ومن اسماء الذين سيتم استدعاؤهم الى قصر الخليفة – المفرم بالشورى – سيعرف من حيثياتهم موضوع المشكلة الكبرى الطارئة .. قد تكون ثورة من الثورات قد قامت فى جهة من الجهات ؟ ! ماذا وقع ؟ اتراه ابن اخ الخليفة (محمد المتوكل) قد عاد الى الظهور ، مرة اخرى ، فى منطقة سوس ، وهو الآن فى الطريق الى العاصمة يهددها بحرب طاحنة ؟ أم تراه احد الدجالين ، خلب عقول البسطاء بدهائه ، وحلاوة لسانه ، وسخاء يمينه ، فأصبحوا طوع أمره ، وعلى استعداد لازعاج الخليفة فى عاصمة ملكه بالذات ؟ ام انها مفاجاة جاءت من الناحية الشرقية حيث يعسكر الاتراك ؟ .. لا أحد يدري ! وبقي الصمت مخيما !

وخرج بعض الاعوان من خواص الخليفة ، ذهبوا ثم عادوا على عجل ومعهم بعض كبراء القصر الخليفي والوزراء ، جاءوا مستعجلين ، حتى أن البستهم وارديتهم لم تكن كعادتها فى كمال الترتيب والنظام والاناقة ... مشكلة خطيرة ولا ريب حدثت ؟ وعاد السكون المطبق يخيم !

اخيرا ، خرج الحاجب نفسه يجهر بصوت قوي مناديا :

– انتم أيها السائسون ، وانتم ايها الاعوان تعالوا ... هيا اذهبوا حالا وبلا توقف الى العلماء ، فى منازلهم ، او فى المساجد ، او فى المحاكم الشرعية .. وادعوهم بالتاكيد ليحضروا فورا الى هنا ، باسم مولانا الخليفة (أبي مروان) لا تقبلوا عذرا أو تملصا من احد ، مهما كان السبب ... ما عدا الذين هم خارج مراكش أو على فراش المرض ، حتى هؤلاء المرضى الحوا عليهم أن يحضروا ... انت يا سيد عثمان يا رئيس الشرطة وزعهم على المناطق بالمدينة فى الحين ، وكلف كل واحد أن يصحب عالما من العلماء فورا ، لا سبيل الى التأخير هيا ،، هيا ،، هيا . بادروا ، الخليفة جالس فى الانتظار !

وازدادت حيرة السائسين والاعوان وافراد الحراسة ، فالامر ما زال غامضا مامامهم ، ولا يعرفون لكل هذه الحركة الكبرى من سبب ، ولو امكنهم لاستخبروا الحاجب ، وجعلوه يروي غلتهم ، ولكنه صارم النظرات ، مطبق الشفاه ، أولى من محادثته ان تتركه ساكتا !

– سمعا وطاعة ، الامر لمولانا الخليفة .

ومرت فترة غير قصيرة ، فاذا رجال العلم

والفقه والفتوى يتوافدون ، يحيطون انفسهم بالوقار والجلال والسمت الذي يليق بالعلماء ، ويطبعون حركاتهم واشاراتهم واحاديثهم بالرصانة والتمهل ، فلا يسع محدثهم الا ان يكون فى حضرتهم الموقرة ، وقورا رصينا لبقا . وهكذا ، تلقوا انحناءات التقدير والتعظيم من الاتباع والخدم عند الباب ، وتلقوا قبلات الاجلال والاعزاز على راحاتهم او اكتافهم ، من علية المستقبلين الواقفين — فى لهفة وحسن استعداد — على باب القصر ...

انهم منذ وقت قصير تركوا منابرهم بالمساجد ، وغادروا الطلبة الذين كانوا يحدقون بهم ، معتذرين للجميع بأن دعوة كريمة جاءت من الخليفة على عجل . وهي ليست عاجلة الا لامر مهم ، ومهم جدا . والخليفة — حفظه الله — عودهم على ان يجعلهم فى طليعة المستشارين ، لا يسبقهم فى ذلك أحد .

والتام الشمل ، بحضور جميع العلماء ، دون تخلف او اعتذار ، ومن ثم دخلوا على الخليفة ، الذي كان جالسا فى القاعة الكبرى دون ابهة ولا ترفع ، وعندما اقبلوا على القاعة وجدوه فى استقبالهم ، وضم كل واحد منهم الى صدره ،واخذه بالحضن ، واطلق لسانه بعبارات الترحيب الصادق ، وهزته خفة من الابتهاج والسرور ، ولو ان لون بشرته — على غير العادة — مشوب بصفرة ، بينما الصوت قوي ، طافح بالثقة والعزم .

ودعاهم للجلوس فجلسوا على لحف وثيرة ، واستندوا — فى غير ارتخاء — على وسائد لينة عامرة، وقبل ان يسترجعوا انفاسهم علقوا الابصار بالخليفة ، الذي جلس واثقا ، حازما عازما ، غير بعيد منهم ، علقوا كلهم الابصار بمحياه الجليل ، منتظرين ان يكشف الستار عن اسباب هذه الدعوة العاجلة .

وسادت الحاضرين رهبة لا شك فيها ، فهم ، رغم غزارة العلم ، وعلو السن ، وثبات الجنان ، قد شعروا بهيبة المقام الخليفي ، ممثل السلطة المعنوية، وحامي الملة والارواح ، وضامن الاستقرار والكرامة . .

وتزحزح الخليفة الشاب ، ابن الخمس والثلاثين سنة ، عن مكانه قليلا ، واستعد ليتحدث الى هؤلاء الرجال ، خيرة المجتمع ، وابرع من يستطيع الحديث ويطيل فيه ويفيد : واخذ بقوي نفسه ، الى اقصى حد ، ثم شرع يقول :

« ايها العلماء الاجلاء :

لقد وصلتني فى هذا الصباح اخبار خطيرة جدا، تتطلب مني — انا خليفتكم — القيام بالعمل السريع الحازم لانقاذ ارواح المسلمين ، وحماية ديار الاسلام، كما تتطلب منكم انتم علماء الامة ان تبدوا الراي الصريح ، وان تستنفروا الامة كلها ، للدفاع عن كرامة الوطن ! وحماية امن المسلمين ، في هذه الديار المغربية المجيدة .

انه والله لموقف عظيم وحادث جلل ، ومأساة ينفطر لها القلب .. ذلك ان عمالي بالعرائش واصيلا والقصر الكبير ، وما حولها من بلاد الهبط وغيرها قد بعثوا الي برسلهم على عجل ليخبروني ان جيشا جرارا قد دخل اصيلا ، وهو فى الطريق الى احتلال هذه المدن الشاطئية ، وهذا الجيش اكثره من امة (البرطقيز) خربها الله ! وليست لدي معلومات هل تشارك اسبانيا فى هذه الحملة ام لا ؟

والمحزن المؤلم أن ابن اخينا (محمد المتوكل) خيب الله قصده ، مشارك فى هذه الحملة الغادرة ، بل هو محرض عليها ،، وتفصيل ذلك : انه عند فراره من وجهنا بعد الهزيمة ، احتال ببعض انصاره ومعاونيه حتى غادر الارض المغربية ، والتحق بعدوة النصارى، ذهب اولا الى ملك الاصبنيول (فليبو) وعرض عليه ان يساعده على اخذ هذا العرش ، مقابل ان يمنحه تسهيلات ومساعدات لاحتلال اطراف من الارض المغربية ، شاطئية منها على الاخص ، ولكن (فليبو) كان عاقلا بعيد النظر ، فلم يستجب له ،، فتركه وذهب الى ملك (البرطقيز) دمره الله وخيب سعيه، وعرض عليه نفس العروض ،، وبما ان (سيبستيان) شاب غر ، طائش ارعن ، فقد اقتنع فورا بالفكرة ، وتحمس لها وراى الفرصة مواتية ، كأحسن ما تكون المواتاة ، لتحقيق ما عجز من سبقوه الى عرش البرتغال ، ومن اجل ذلك اعطى محض موافقته ، وان كان قد اشترط فى شروطه مع المتوكل المارق ، ظانا انها شروط قد لا تقبل ولكن هذا قبلها كلها ، ولم يظهر اية ممانعة لقبول غيرها !

وهكذا ترون ايها السادة الاجلاء ، ان المتوكل خان بلاده ، وعرضها للهلاك والهوان والذل ، وعرض امة الاسلام فيها للزوال ، وقد تكون منها اندلس جديدة بكل مآسيها لا قدر الله . . !

ايها السادة الافاضل ، اننا جميعا مهددون ،

واولى منا بالسلامة هذه البلاد الطاهرة ، وهذه الامة النبيلة ان لم نواجه الموقف فستصبح ارضنا تابعة ، وديانتنا مطموسة مضطهدة ، وسيصير الرجال عبيدا، والنساء اماء اما العاجزون فسيرمى بهم الى مجاهل الصحراء . . . اية نكبة ستحل بنا ، ان لم نقم بجهد جبار حاسم عنيف ، نقهر معه هؤلاء المعتدين العتاة الجبابرة ، واولئك الخونة المارقين .. افتوني يرحمكم الله !

سكت ، وقبل ان يتقدم كبير العلماء للكلام ، وجد أن ضميره ما زال يغلي وان سجيته لا تزال فوارة ، فاختار من العبارات اقواها واشدها تأثيرا ، مخاطبا ضمائر هؤلاء الافاضل من اهل العلم والراي ، وحرص — في هذه المرة — على ان يتعمق بنظراته في عيون القوم ، وأن يرسل اليها الاشعة النفاذة :

— « انكم يا ائمة المسلمين تحملون من الآن امانة في اعناقكم ، امانة عظيمة ، هي في عظمة الجبال وثقلها ... فادعوا الامة — وفقكم الله — للدفاع عن حرمتها ، وحرمة دينها ، وحرمة الرقعة المطهرة ، وللدفاع عن شرف النساء والبنات والابناء . انكم لسان الامة الجهير الفصيح المسموع ، وانكم لضمير الوطن الواقع في محنة ، وانكم لنواب النبي وورثته لتحفظوا الدين وابناء الملة . فادعوا لنصرة دين الله، ايقظوا الحماس في القلوب ، زينوا للناس حب الشهادة في الله والوطن . لقد اعددت مراسلات الى جميع الاقاليم ، طالبا من عمالي فيها أن يدعوا الناس للجهاد بالمال والزاد والرجال ، بعد أن يوضحوا لهم الاخطار المحدقة بنا ، ان الرسل مستعدون للسفر لجميع المناطق وسيتولى أخونا احمد — نائبنا بفاس — استنفار الناس بمنطقته والمناطق المجاورة لها .. ان عنده من الغيرة على هذه البلاد ما يعادل حماسنا .. فما رايكم يا ائمة الاسلام ؟ »

سكت الخليفة ، واخذ يجفف عرقه ، بمنديل قطني ، بسيط ناصع البياض ، ثم وجه وجهته الى كبير العلماء ، واخذ ينصت الى همهمة الشيخ الذي كان على وشك بدء الكلام ...

تنحنح كبير العلماء كانه ينفض عنه العياء ، وضعف الصحة ، لقد دخل منذ حين يتوكأ على عصاه، ويستند من الجهة الثانية على خادمه .. لكنه بمجرد ما ان سمع كلام خليفة المسلمين العامر بالحماس والايمان ، حتى شعر بدماء حارة تجري في عروقه ، وانتفض انتفاضة الملسوع بالنار ، غيرة منه على دين الاسلام المهدد ، وخشية ان يصير المغرب العزيز الكريم ، الى ما صارت اليه ارض الاندلس وقال :

« يا خليفة المسلمين ، وسليل المجاهدين ، وناصر الملة والدين ، اننا علماء الاسلام ، نلقي على المتوكل كل الملام ، فهو الذي اباح راض الاسلام الحرام ، فندعوكم الى القيام ، بالدفاع المجيد عن راضنا ، وان تطلب لذلك من تشاء من شيوخنا وكهولنا وشبابنا ... وثقوا ان الجماعة الجالسة بين يديكم ، لعلى استعداد تام للخروج من حضرتكم ، للمشاركة في ركابكم الى أرض الجهاد ، لا حاجة بنا الى المال والولد ، اي فائدة في ذلك اذا ملك العدو ارضنا ، وحقق الذل على رجالنا ، والرجس على نسائنا ... سر بنا من فورك الى ارض الجهاد ، لمحق عدو الله والوطن والعباد ...

ورجع النفس قليلا ليستريح ثم عاد يقول :

ابعث رسلك الى عمالك في مختلف المناطق ، اما العلماء ، فهم على استعداد لمصاحبة أولئك الرسل ، لمساعدة خدامك في كل مكان ، على توضيح المشكل العظيم الخطير حق التوضيح ، واعطاء الجماهير راي الدين في الجهاد الصحيح .. ان للعلماء قدرة على الدعوة ، بما وهبهم الله من فصاحة السنة ، وغزارة علم ، وقوة حجة ، واطلاع على كتاب الله ، وسنة رسوله في موضوع الجهاد ، والحض عليه ، والترغيب فيه .. خذ منا من تشاء ، وابعث به الى اي ناحية من نواحي المملكة للعمل .

لا شك عندنا ان المتوكل الخائب ، ارتكب الخطيئة الكبرى ، لما استعان باعداء الاسلام على المسلمين وباع اراضيهم بثمن بخس ، لخصم عنيد جبار ، لا يشفق ولا يرحم ، وما مصير الاندلسيين الشهداء الطرداء عنا ببعيد وما درى انه سيجر على نفسه البلاء العظيم ، اذا تحقق للاعداء اي نوع من انواع النصر نعاهدك ايها الامير الجليل أن هذا النصر الذي يريده الاعداء ، وتابعهم الخائب ، لن يتحقق ابدا، ونحن على قيد الحياة . واعلموا أن هذا هو ما سيكون باجماع افراد امتكم ، انها امة غيور ، على الملة والوطن ، مثل غيرتنا عليهما ، ونحن متاكدون من النصر (وما النصر الا من عند الله) .

بعد هذا ، نحن على استعداد لفضح اعمال هذا الخائن الفاجر ، المسمى — كذبا — بالمتوكل على الله، وما هو بالمتوكل الا على أعداء الله ... » !

انشرح الخليفة انشراحا عظيما ، اذ تصعد الدم الى وجنتيه ، وترقرقت عيناه بالدموع ، بدموع لـــم تأخذ طريقها الى النزول ، وعاد يتمتم ، باحثا عـــن كلمات كلمات تكون ارضاء كليا لهؤلاء الافاضل ، الذين اظهروا الارتياح كلهم ، لما قال كبيرهم ... ثـــم نطـــق :

ـــ « قوموا يرحمكم الله الى المسجـــد ، واعلنوا الحالة الخطيرة ، التي نحن فيها ، الى عامـــة المسلمين ، من سكان الحضرة المراكشية . والمناسبة الآن مواتية ، من حيث ان الاسواق عامرة بالوافدين، من البوادي ، ومن أعالي الجبال ، ومـــن اقاصـــي الصحراء .. حضوا على الجهاد فى سبيـــل الله ، وبصروا الامة بالخطر المحدق بها .. فو الله لن يهدأ لي بال ، الا اذا رأيت جنود الله غالبين ، وجنود الكفر والخيانة مقهورين ... لا يهمني من اليـــوم ـــ والله شاهد ـــ عرش ولا مملكة ، انما يهمني انتصا الامة ، وبقاء الاسلام بهذه الديار ، أما ما عدا ذلك فاغراض زائلة لا تهم .. قوموا يرحمكم الله ! .

قام العلماء ، وتعانقوا مع امير المومنين ، عناق الاخ مع أخيه ، وغلب على الجميع التأثر ، فسالـــت الدموع قليلا ، ولكن العزائم بقيت قوية ، فانصرف كـــل الى مهمتـــه .



المغـــــــرب :



● صدر عن « صندوق احياء التراث الاسلامي» المشترك بين المملكة المغربية واتحاد الامارات العربية ثلاثة أجزاء مـن كتـاب «أزهار الرياض فى اخبار عياض» لشهـاب الدين احمد بن محمد المقري التلمساني .

وكان قد صدر الكتاب الكتاب بالقاهرة سنـة 1939 بتحقيق الاساتذة: مصطفى السقـا وابراهيـم الابيـاري وعبد الحفيظ شلبي . وذلك تحت اشراف « المعهد الخليفي للابحاث المغربية » وبيت المغرب بالقاهرة فى ذلك العهد .

● أصدر الديبلوماسي المغربي علي منير كتابـا جديدا عن تاريخ المسيرة الخضراء عنوانه : « مـع مشاة الامال » وقدم له الكاتب الاسباني الشهير خوان كويتسلـو .

وقد تعرض المؤلف لمختلف مراحل المسيرة الخضراء منذ القرار الذي اصدرته محكمة العـدل الدولية حول مغربية الصحراء وتصفية الاستعمـار واسترجاع الاقاليم الصحراوية الى الوطن الام .

● صدرت الطبعة الثانية من كتاب « احاديث عن الادب المغربي الحديث » للاستاذ الكبير عبـد الله كنون أمين عام رابطة علماء المغرب ، عن دار الثقافة بالبيضـاء .

الطبعة الاولى من هذا الكتاب صدرت بمصر فى أوائل الستينات .

والكتاب عبارة عن سلسلة محاضرات فى الادب المغربي الحديث القاها المؤلف الفاضل على طلبـة قسم الدراسات الادبية واللغوية فى معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية .

● دفع الاستاذ المؤرخ الكبير محمد داود بالجزء الاول من المجلد الثامن من موسوعته « تاريخ تطوان» الى المطبعة الملكية ، بينما يطبع الجزء الثالث مـن المجلد السابع فى المطبعة المهدية بتطوا ن.

وقد نشر حتى الآن من تاريخ تطـوان ستـة مجلدات كاملة والجزءان الاول والثاني من المجلـد السابـع .

● شارك الاستاذ الباحث محمد ابراهيم الكتاني فى الملتقى العربي الصقلي الذي نظمته الجمعيـة العربية الصقلية بمدينة قاطانيا بجزيرة صقلية .
استمر الملتقى يومين من 10 يوليوز الماضي الى 12 منه .

● « مفهوم الربا فى ظل التطورات الاقتصاديـة والاجتماعية المعاصرة » . كتاب جديد صدر بالدار البيضاء للدكتور فاروق النبهان مدير دار الحديـث الحسنيـة .

● « شخوص معلقة من الارجل » مجموعة قصص جديدة صدرت اخيرا عن دار النشر المغربية للكاتب أحمد صبري .

مصـــــــر :

● صدر للدكتور أحمد شلبي كتاب جديد بعنوان : « تاريخ المناهج الاسلامية » .

● (الجامعة العربية وتسوية المنازعات المحلية) كتاب جديد للدكتور بطرس بطرس غالي .. وهو أول كتاب يصدر عن دور الجامعة العربيـة فى تسويـة

المنازعات العربية على الرغم من مرور ثلث قرن على قيام الجامعة العربية .

● (الصوفيون وأثرهم على الحضارة الاسلامية) موضوع الكتاب الجديد الذي اصدره الكاتب عامر النجار الاستاذ بجامعة القاهرة .. والكتاب يعرض لحياة الصوفيين وآثارهم وخاصة السيد البدوي وابو الحسن الشاذلي وعبد الرحيم القناوي والمرسي ابو العباس .. ويصور جهاد السيد البدوي ضد الصليبيين .. والمؤلف يعرض للصوفية لا كما يتصورها البعض كالدروشة .. ولكنها مذهب رائع يعبر عن نقاء الاسلام وجوهره الاصيل .

● محمد عبد الغني حسن احدث عضو فى مجمع اللغة العربية .. صدر له كتاب جديد عن (التاريخ عند المسلمين) .. ويعتبر اول كتاب عن علم التاريخ عن المسلمين واهميته .. ووضع المؤرخين فى الدولة الاسلامية .. ومن أهم مؤلفاته الشعر العربي فى المهجر .. فن الترجمة فى الادب العربي .. دراسات فى الادب العربي والتاريخ .. بجانب عدة دواوين شعرية ..

● (البوصيري .. المادح الاعظم للرسول) كتاب لعبد العال الحمامصي صدر عن دار المعارف .. وفيه يقدم الكاتب دراسة عن البوصيري .. من خلال التركيز على بردته الشهيرة ..

● (الفراغ وأزمة التدين عند الشباب) عنوان احدث كتاب صدر للدكتور عبد العظيم المطعني عن دار الانصار .

● مكتبة الانجلو المصرية ، اصدرت للدكتور نعيم عطية كتابه الجديد عن يحيى حقي بعنوان (يحيى حقي وعالمه القصصي) ..

● (المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم) تأليف الدكتور احمد عثمان ، عنوان أحدث دراسة ادبية صدرت ، عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

● فى اطار اعادة طبع أعمال الكاتب الانجليزي وليم شكسبير أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب ترجمة جديدة (للعاصفة) و (تاجر البندقية) بالشعر (لعامر بحيري) ، عضو لجنة الشعر بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والادب والعلوم الاجتماعية .

● وعن سلسلة (كتابك) صدر كتاب (الصحافة مهنة .. ورسالة) للدكتور خليل صابات ، وكتاب (يوميات طبيب فى الارياف) للدكتور دمرداش احمد ويحكي فيه عن يومياته فى الارياف كما فعل من قبل توفيق الحكيم .

السعودية :

● سينعقد قريبا فى الرياض بالمملكة العربية السعودية مؤتمر جغرافي اسلامي ، تقوم بتنظيمه جامعة الامام محمد ابن سعود الاسلامية ، وقد دعت اليه عددا من علماء الجغرافية والمهتمين بالدراسات الاسلامية فى الاقطار العربية والاسلامية . وسوف يتفرع عن المؤتمر عدة لجان هي :

— لجنة التراث الجغرافي
— لجنة الجغرافية الاقتصادية
— لجنة جغرافية السكان والعمران
— لجنة الجغرافية السياسية
— واللجنة التربوية الجغرافية

وسيناقش المؤتمر من خلال لجانه هذه ، عددا من الموضوعات الجغرافية الهامة من بينها :

— مناهج البحث لدى الجغرافيين المسلمين وجهودهم فى رسم الخرائط ، واثر الرحالة المسلمين في اثراء المعرفة ، والكشوف الجغرافية .
— اثر الجغرافية الاسلامية فى الثقافة الجغرافية العالمية .

— الكشف عن المخطوطات الجغرافية الاسلامية
— الثروات الزراعيــة والرعويــة
— مشكلة الاراضي الجافة والثروات المعدنية
— مستقبل الطاقة الحديثة والتنمية الصناعيــة
— التكامل الاقتصادي فى مجال انتاج الغذاء
— الحركة السكانية والتكامل السكاني
— المدينة الاسلامية وخصائصها وتنمية البادية

هذا بالاضافة الى موضوعات جغرافية سياسية تتعلق بمشكلة فلسطين وكذلك كشميــر وارتيريــا والفلبين وفطاني — ودور الجغرافية فى توطيد التضامن وتدعيم الوحدة .

العــــــراق :

● قرر اتحاد المؤرخين العرب تنظيم مهرجانــات تذكارية بمناسبة مطلع القرن الخامس عشر الهجري.

ولهذه الغاية وجهت امانة الاتحــاد رسائــل تبلغ فيها جميع الدول العربية ضــرورة الاسهــام والدعم لتحقيق هذا الهدف النبيل .

الكــويــــت :

● فاز السيد حسين علي محمد بالجائزة الاولى للدراسات الاسلامية عن بحثه « نظريــة الصــراع الدرامي والشخصية فى الادب المسرحي الاسلامي»

ســوريـــــا :

● أعلن الدكتور احمد يوسف الحســن رئــيس جامعة حلب أن المؤتمر العام لليونسكو اتخذ قــرارا بدعوة لجنة من كبار رجال الفكر والثقافة من مختلف البلدان العربية والاسلامية لوضع خطة لاجل اصدار مؤلف من مجلد واحد أو من عدة مجلدات تبحث فى مختلف مظاهر الحضارة الاسلامية ، وقــد قــررت اليونسكو ، أن ينعقد اجتماع اللجنة فى معهد التراث العلمي العربي فى جامعة حلب ، ودعت اليه اكثر من ثلاثين شخصية فكرية عربية واسلامية .

● تعززت المكتبة المغربية بكتاب جديــد فى تاريخ الدولة السعدية الشريفة للدكتور الباحــث عبد الكريم كريم . بعنوان : « المغرب فى عهد الدولة السعدية » وهو دراسة تحليلية لاهــم التطــورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية . ويحتــوي على عرض مفصل لظروف معركة وادي المخــازن ومعطياتهــا .

المغرب فى عهد الدولة السعدية

دراسة تحليلية
لاهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية

بمناسبة
الذكرى الاربعمائية لمعركة وادي المخازن
(الاثنين 30 جمادى الاول 986 هـ / 4 غشت 1578 م)

للدكتور عبد الكريم كريم
استاذ التعليم العالي فى التاريخ الحديث
بكلية الآداب والعلوم الانسانية
جامعة محمد الخامس
الرباط — المغرب

1397 هـ — 1977 م

مسابقة ادبية في تأليف
مرشد في اللغة العربية

● يسر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية أن تحيط الكتاب والباحثين المغاربة علما بأن مجمع اللغة العربية الاردني بعمان قد أعلن عن مسابقة ادبية لوضع كتاب تحت عنوان : « المرشد في اللغة العربية » حسب الشروط التالية : أن يتضمن الكتاب عرضا لقواعد النحو الاساسية التي لا غنى عنها . تقدم في نصوص قصيرة جذابة . أن يشمل قواعد الاملاء العربية وعلامات الترقيم المختلفة . أن يشمل معجما صغيرا للالفاظ اللغوية الصحيحة . مع تصحيح الاغلاط الشائعة في الكتابة والتعبير . ان يحتوي على نصوص في موضوعات تتعلق بالحياة المعاصرة على ان تجتمع في ما يتضمنه الكتاب ... السهولة . الفصاحة . الدقة . والوضوح .

ان يحقق بالبحث فهارس دقيقة تسهل الرجوع الى مواد الكتاب .
ان يكون عدد صفحات الكتاب ما بين 150 و 200 صفحة .
ان يقدم المخطوط في ثلاث نسخ مطبوعة على الآلة الكاتبة .
ان آخر موعد للمسابقة 3 شتنبر 1978 .

وستحرز الكتب الثلاثة الفائزة في المسابقة على جوائز مالية على الشكل التالي :

الجائزة الاولى ... مقدارها : 750 دينارا اردنيا

الجائزة الثانية ... مقدارها : 500 دينار اردني

الجائزة الثالثة ... مقدارها : 350 دينارا اردنيا

وسيعلن عن النتائج خلال شهر مارس 1979 .

وترسل المخطوطات المعدة للمسابقة بالبريد المسجل الى الامين العام لمجمع اللغة العربية الاردني .

صندوق البريد : 13268 ــ عمان ــ المملكة الاردنية الهاشمية .